المناهل



35





تصدرها
وزارة الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الخامس والثلاثون
السنة الثالثة عشرة

ربيع الثاني 1407
دجنبر 1986

فهرس

قصة

أبناء أنطاو العجوز
جواكين، جوزي، ومارغاريدو

تأليف: جوزي سارني JOSÉ SARNEY
الرئيس الحالي لجمهورية البرازيل(*)
ترجمة: أحمد بوشرب

«وهل تعرفون من هو (أغولا صوفيديو Aglau Sofidio) ؟ لقد كان مزارعا صغيرا ومسنا، كان أفقر مزارعي (أركادا Arcádia)، وكانت البقعة الصغيرة المجاورة لكوخه والتي كان يحرثها بنفسه دون أن يحسد أحدا أو يحسده أحد، تضمن له عيشه».

الأب (أنطونيو ڤييرا Antonio Viera) خطبة يوم الأربعاء للكنيسة الملكية التي لم تلق لعاهة المؤلف.

مزرعة أرز من عشرين خطا، طول كل خط خمسة وعشرون ذراعا، وكل ذراع تطلب يوما من الاجتثاث وإحراق الغابة والغرس واقتلاع الأعشاب الرديئة والجني، تطلب عرقا وعطشا وشفتين يابستين وظهرا

(*) عضو اتحاد كتاب البرازيل وعضو الأكاديمية البرازيلية. له 16 مؤلفا في مجال الإبداع القصصي والشعري بالإضافة إلى كتاباته السياسية.

أحرقته الشمس ويـدين كبيرتين وصلبتين، كما تطلب جسـأة أيـدي الزوجـة والأبنـاء والمسـاعـدين من رجـال ونسـاء، هؤلاء الـذين يزرعـون ويجنـون، يجنون ويأكلون.

لقـد كانت مزرعـة (ستيرو لغـوا مـول Satíro Língua – Mole) خضراء وفي نمو متواصل. سوف يكون المحصول جيدا إذا مـا سـاعـده الحـظ واختفى الشؤم الذي كان يلاحقه كل سنة كما يلاحظ كل المزارعين. لقد حلت ساعـة الفرج، بينما كانت الحال فيما مضى لاتتغير : جفـاف بعـد الزرع يرغم النـاس على البذر من جديد.

زار اليرقـان الوريقـات الخضراء النحيفـة المتمـايلـة مـع النسيم، ليـأكل بعض البراعم. غير أن ما أكلت كان قليلا بـالقيـاس الى السنـة الفـارطـة التي كانت قاسيةلكثرة ما أتلفت الارقة بالمزرعةوسيـاجهـا. هـذه الحشرة نوعـان نـوع أسـود : للرشيات لايكاد يرى لفرط صغره، جني شيطـان، وآخر أحمر يفضل سرقة المخـازن ، يزقزق كحوصلـة الطير ويحول كل شيء الى هبـاب، إنها حشرة لعينة نهمة تتولد من عدم، وتتسرب إلى سقائف وحيطان المدر.

لم يحـدث مثل هـذا خلال فصل الشتـاء، كان كل شيء على مـا يرام. لقد كانت عناقيد العنب معلقة متـأرجحـة. وفي أصبـاح كثيرة، عنـد طلوع الشمس وتوقف الأمطار العنيفـة، كان (ليغوا ـ مول) و (زكينيـا Zequinha) يمعنـان النظر في المزرعـة. كانت الفترة فترة اقتـلاع الأعشـاب الرديئـة التي تجند لها الجميع، الزوجة والأبناء، كباراً وصغـاراً، وحتى (بـادو Badu)، الـذي خطا خطواته الأولى، لم يكن يتأخر عن العمل.(...)

تحت أغصان شجرة غير عالية توجد مقـدمـة سقيفتين يغطيهـا سعف نخيل جمع من عين المكان بعد أن أفلت من النار ومن القطع.

لقد كانت وجوه العمال المتعبين تنم عن ساعة النهار. وكان حديثهم قليلا، وكانت الكلمات التي يتداولونها تدور حول الجروح والصلوات والسمك والمزروعات والأرض.

لم يكن العمل كثيرا خلال هذه الفترة من السنة، كان يقتصر على اقتلاع الأعشاب لانتظار جني المحصول. غير أنه كان على المزارعين الاعتناء أكثر بالسياج لجعله أمنع وأمتن باعتماد ألواح غليظة مترابطة كالأصابع تمتد على طول الجهتين الداخلية والخارجية للمزرعة لمنع المواشي من الدخول، خصوصا مواشي العقيد (جوزي رايمندو بالديس José Raimundo Baldez) وهو صاحب جاه ومال وضيعة غير بعيدة، ومالك أراض مسجلة وقطيع كبير. لقد كان المزارعون يشتكون كل سنة من حيواناته التي كانت تلتهم مزارعهم، غير أن (ستيرو Satíro) كان مصمما على أن لا يكون من بين المشتكين لمناعة سياجه ولمراقبته له باستمرار وترميمه لكل ثغرة تحدث به. ويعود حرصه هذا لمعرفته الجيدة بطبع العقيد وللحيطة اعتبارا للمثل الزنجي القائل :

«نطحة ثور في القَطَن، فلفل في الدبر»

منذ سنتين وصل إلى هنا من منطقة بعيدة، من الشمال الشرقي (Nordeste) المنكوب، مع زوج حامل وأطفال. لقد سبقه إلى هنا أبناء عمه الثلاثة أبناء (أرودا) بينما بقي هو صامدا بمنطقة (سيرا Satíro) إلى أن استسلم للواقع ولحق بهم، خصوصا أن الأخبار التي وصلته كانت مشجعة. فالمياه تغمر منطقة (مرنياو Marinhão)، والأرض خصبة، ونهر (ميارين Mearim) يجري في حوض منبسط، ومياهه تغمر كل الوادي. لقد كانت الأراضي خلاء، وكان بإمكان أي شخص أن يختار منها ما يشاء، وأن يتعاطف مع

الآخرين وأن يستقر، وهذا ما فعل. حقيقة أنه لم ينس بعد الأصدقاء وباقي أفراد الأسرة وصلبان الأبنـاء الموتى. ومن هؤلاء الأبنـاء مـا يزال أربعـة على قيد الحياة، فضلا عن أصغرهم (بادو) الذي لم يتجاوز بعد الثانية من عمره.

لقد أنشـأ أبنـاء (أرودا) الثلاثـة (جواكين، جوزي ومرغيريـدو) قريـة أصبحت تعرف باسمهم، وكانت هذه القريـة على مقربـة من مراعي الضيعـة المسماة «الذهب القديم» التي كانت في ملكية العقيد (جوزي رايمونـدو). كانت الأرض صالحة لزراعة الأرز، وأصبح بإمكان الشاحنـات الوصول إلى القريـة خلال فصل الصيف بفضل الطريق التي شقوها بـأنفسهم بعـد أن كان ذلـك متعذرا. كان المكان يعرف، كباقي الأماكن المهجورة، «بالبيت القديم».

كان الدخان الذي يسببه إحراق الغـابـة قصـد إنشـاء مزارع يخيم على المنطقة كلها خلال شهور نونبر. أما الآن، فالسماء ما تزال غـائمـة، والجو قـد مال إلى الجفاف وقل تهاطل الأمطـار، إلا أن الأوديـة والمستنقعـات لم تجف بعد.

وكانت أيام الآحاد أيام عطل، غير أنها كانت تخصص لحشـذ المنـاجل والفؤوس والسكاكين بمختلف أحجامها، ولغسل الملابس الوسخة.

لمـا علم العقيـد (جوزي رايمونـدو) بتـوسـع قريـة آل (أرودس)، وبـأن المزارع المهجورة تتـوفر على مراع جيـدة، أرسـل مـواشيـه إلى هنـاك لتزداد سمنة.

قرر (ستيرو) وأبنـاء عمـه آل (أرودس)، وكـذا (جـواو) و (زكزيـاس) و (طـومـاس) و (إرنستينـو)، الـذين كانـوا من أكبر مستصلحي الأراضي،

الالتحـاق ببيت العقيـد الموجود على بعـد 2 (لغـواش) (*) من محـل إقـامتهم لمفاتحته في الموضوع.

- سعـادة العقيـد، لقـد جئنـاك نحن آل (أرودس) نرجو من سماحتكم سحب مواشيكم من «البيت القـديم» لأنهـا تـأكل محصول مـزارعنـا. وبالمقابل سنصوت جميعا خلال الانتخابات لصالح سيادتكم.
- يا آل (أرودس)، لقـد حصل لي الشرف بـالتعرف إليكم. إن مواشي ترعى بعيـدا عنكم، وفوق كل هـذا، فعلى كل صـاحب مـزرعـة أن يـسيجهـا، هـذا فضـلا عن أن الأرض ملـك لي، وتبعـا لـذلـك، فبإمكان أبقاري أن ترعى فيها.
- سعادة العقيد، ان المكان الـذي نستغلـه أرض خلاء، فنحن الـذين أحيينا القرية وأقمنا الـدور، ولم يسمع أحـد قـط أن للمكان سيـدا، ولهذا السبب سنظل به.
- سنرى ذلك. لقد حصل لي الشرف يا آل (أرودس).

وبهذا أنهى العقيد المناقشة.

ولم يتدخل (ستيرو) بل كان يسمع بكل هدوء. فمزرعتـه بعيـدة جـدا، ولا توجد على طريق الأبقار.

لقد كانت تلك العجلة الشرهة تبقى دائمـا منعزلـة عن القطيع. كانت ذات عيون مرعبة، لا يبدو عليها الاطمئنـان، كان رأسهـا مرفوعـا بـاستمرار نحو السماء، وكان قرنـاهـا الحـادان قـد صقلتهما كثرة إزاحـة الأغصـان وفتح المسالك. كان وركاها عريضين ولحيمين وضرعها صلبا، وجلدها ناعما، وكانت

(*) أي مسافة 11 كلم (المترجم).

تمشي مشية الأميرات في الممرات المفتوحة بين أشجار النخيل الزيتي. كانت كلما شعرت بالخوف تطلق العنان لقوائمها العالية وتفر بخفة وهي تقفز بحرية وشراهة. كانت الثيران تعرف أنها لم تكن سهلة، وأن ركوبها كان يقتضي ترك القطيع وملاحقتها داخل الغابة (...) وكان عجل صغير نحيف من فصيلة أبقار المنطقة، جريء وعدواني، يقتفي باستمرار أثر العجلة الشرهة. كانت العجلة الشرهة شائلة، وكانت تركض هنا وتتوقف هناك، وكانت ترفض كل محاولات الثور المطارد. كانا يحطمان الأغصان هنا ويعبران المنحدرات هناك إلى أن أوصلهما التيه والصدفة إلى سياج مزرعة (ستيرو لينغوا ـ مول).

نظرت العجلة بعد هذا السباق العنيف بعيون حادة إلى مزرعة الأرز الأخضر ذي الأوراق الواسعة والشديدة الخضرة، واقتحمت المزرعة لتعودها على القفز فتأثر السياج المنيع بخدشات القدمين الخلفيتين.

ظل العجل المرهق خارج المزرعة، حاول تحطيم السياج، اعتمد على الكتفين ثم على القرنين قبل أن ييأس.

شرعت العجلة الشرهة في المشي فوق نبات الأرز وهي ترسم دوائر، وبدأت تأكل وتفسد وتفتش في كل مكان، فاتحة ممرات بين المحصول. كانت تنظر باحتقار إلى العجل الذي أبعده عنها سياج (ليغوا ـ مول) قررت في نهاية الأمر مساعدته وفتحت بعد عدة نطحات ممرا تسرب منه العجل إلى الداخل. أصبحت متخمة بعد أن امتلأ بطنها. ورويدا رويدا فقدت شراستها وتوقفت عن المشي فوق الأرز المحفور على شكل عناقيد. كانت الشمس على وشك الغروب، وفي مستهل الليل كانت خطى الماشية العائدة إلى اسطبلها تختلط بصوت أجنحة الطيور المستعجلة.

لما وصل (ستيرو) إلى مزرعته في اليوم التالي، لاحظ ما أُتلف بها فرده إلى شجار ثورين. لقد كان السياج محطما على مقربة من باب المزرعة. تفحص الآثار وأحس بمرارة كبرى لفداحة الخسائر. لقد أكل العجل والعجلة الأرز من أعلى، من براعمه (...) وبعد لحظة الغيظ، قرر (ستيرو) ترميم السياج، فقطع العارشات وجمع الخشب ثم شرع في العمل. تفحص كل الأماكن معززا هذه الجهة، ورابطا تلك. وهكذا قضى يومه.

وخلال عودته إلى البيت سمع خطى ماشية في الغابة، فقرر القيام ببحث. أمامه، بجانب مستنقع بدأت مياهه تجف، شاهد الثنائي واقفا : العجلة والعجل النحيف وهما في طريق عودتها. أفزعها، صرخ فيهما، ثم قبض عليهما ورأى الوسمة وقد خلفت حرف باء دالة على (بالديس) وراء دالة على (رايمندو). قرر إرسال أبنائه في اليوم التالي لحراسة المزرعة والذهاب بنفسه إلى ضيعة «الذهب القديم» ليشتكي إلى العقيد (جوزي رايمندو).

- سيدي العقيد (جوزي رايمندو)، نحمد الله على نعمه، أتيت لأخبر سماحتكم أن عجلتكم وثوركم ذا اللون البرتقالي المحروق أكلا غلة مزرعتي. لقد أفسدا منذ يومين أكثر من خط. ولقد صادفتهما البارحة ليلا وهما عائدان في الطريق حوالي الساعة الخامسة.

- أين توجد مزرعتك أيها (السيرنسي)(*) ؟

- أعلى بئر (أنطا)، في اتجاه اليمين.

- ليس لي مواش هناك.

(*) نسبة إلى منطقة Ceará بالشمال الشرقي البرازيلي.

- بالعكس يا سعادة العقيد، لقد لاحظت الوسمة على ماشيتكم.
- لا يوجد لي قطيع هناك أيها (السيرنسي)، إن ما شيتي لا تذهب إلى هناك.
- ولكن يا سعادة العقيد، لا أحد غيركم يملك مواشي بتلك الجهة، ثم إن الوسمة تدل عليكم بالباء والراء.
☆ طيب، إذا كان الأمر كذلك، فاقتلها.
☆ أنا لا أرغب في ذلك، كل ما أرجوه هو أن تأمر سماحتكم بسحب مواشيها لكي لا تقضي على كل الغلة.
☆ إسمع، أخبر ذويك أن هذه هي آخر سنة أسمح فيها بإنشاء مزارع. لقد أتممت إجراءات تمليك الأراضي، وما هو خارج عن ملكيتي اكتريته من الحكومة باسم أبنائي، وقرية آل (أرودس) توجد ضمن هذه الأراضي، لذا عليكم أن تتهيأوا جميعا لإفراغها. إني أنا الرجل المسالم، وأنتم، كعادتكم، المشاكسون.
☆ أبدا سيدي (رايمندو)، سنظل هناك، لأن الأراضي كانت خلاء، ولم تكن تصلح لأي شيء قبل أن نستصلحها... أعتقد أن آل (أرودس) أبناء عمي لا يعرفون هذا الخبر.
☆ لا يهمني ذلك...
☆ سيدي العقيد، لقد جئت فقط لأطلب من سماحتكم أن تأمر بسحب ماشيتكم.
☆ لقد سبق لي أن قلت لك إني لا أملك مواشي بتلك الأطراف، وإذا كانت لي فاقتلها.

إن ما تتداوله الألسن عن العقيد (جوزي رايمندو) وعما يدور

داخل ضيعته لم يكن يبعث على الاطمئنان. لقد جاءه مرة أحد النازحين من منطقة الشمال الشرقي وطلب منه السماح له بالإقامة بأراضيه. كان يصحب معه حمارين وزوجة وطفلين، وكان ذا ذراعين قويّين وقدرة على تشغيل الفأس لمدة ثمان ساعات في اليوم.

☆ سعادة العقيد، هل تتفضلون بالسماح لي بأن أستقر بأراضيكم ؟

☆ ولم لا يا إبني، إنك محظوظ لقد اخترت للإقامة أفضل منطقة من (مرنياو Marinhão) : فهي تتوفر على أخصب الأراضي، وصاحبها أكثر الملاك رفقا بالمزارعين ومصادقة لهم. هنا يمكنك اختيار ما تشاء من الأراضي للغرس والحراثة.

☆ وهل تسمحون لي ببناء بيت ؟

☆ بإمكانك ذلك.

☆ وما هي شروط الإقامة ؟

☆ ستتنازل لي عن نصف ما ستجنيه من النخيل الزيتي طالما أني مالكها وسيكون عليك أن تبيع لي النصف الآخر لأن الأراضي ملك لي، ولأني المشتري الوحيد بالمنطقة. ومن جهة أخرى، فأنت ملزم بأن تتنازل لي عن نصف غلات المزروعات وأن تبيع لي النصف الآخر.

☆ سعادة العقيد، هل تسمحون لي بزرع بعض الأشجار المثمرة ؟

☆ لا داعي لذلك يا بني طالما أن لي أراضي تنتج فواكه تتعفن. كلما أردت فواكه أبيعك إياها وأخصم ثمنها مما ستبيعه لي من محصول أرضي.

☆ سعادة العقيد، هل تسمحون لي بالاحتفاظ بالحمارين اللذين جلبتهما معي ؟

☆ لا داعي لذلك، بل عليك تسليمهما لي فورا لأنك لن تكون في حاجة إليهما. وحينما سيحل وقت نقل المحاصيل، ابعث لي لأرسل إليك بعض ما املك من دواب، ولن تكون ملزما بدفع ثمن كرائها فورا لأني سأخصمه من نصف المحصول الذي ستبيعه لي.

☆ سعادة العقيد، هل الصيد وفير هنا ؟

☆ كثيرا، بل وأكثر من اللازم...

☆ وهل يشتري سيدنا الجلود أيضا ؟

لم يتحمل (جوزي رايمندو) كل هذا الإزعاج. غضب وعبس في وجه مخاطبه وقال :

☆ أيها المولد الحقير، أغرب عني، أنت لا تصلح للإقامة بأرضي. لقد عرفت وجهك الذي يشبه وجه المولدين المشردين. تريد أكل لحم أيلي، وفوق ذلك تطمع في بيعي جلودها.

كان الصبح صحوا، بدأت النباتات الرديئة تظهر من جديد وسط خطوط الأرز وبدأت البقع التي أفسدتها الماشية تتجفف. قرر (ستيرو) أن يقضي يومه في حراسة مزرعته وفي انتظار القطيع. لقد كان متيقنا من أنه سيعود، لأن ثور الأسياد لا يمكن أن يتصرف إلا كثور الأسياد : يكسب عادات يصعب عليه التخلي عنها. انه من السهل له أن يأكل نبات الأرز على انفراد دون منازعة باقي القطيع على كل شبر من المرعى الذي بدأت أعشابه تقل وتجف، خصوصا وأن الأرز أفضل طعما وأكثر سمكا.

لم تترك العجلة الشرهة نفسها تفاجأ، لقد أحست بالمراقبة، لذا انتظرت حلول الليل. وما أن غادر (ستيرو) المزرعة وعاد إلى بيته مارا بنفس الطريق في اتجاه مزرعة بئر (أنطا) حتى تخطت العجلة السياج وشرعت في الأكل. أكلت من هنا ومن هناك، حطمت، داست وأفسدت. كان الأرز الأخضر المبلل في فم العجلة التي أتت منفردة وعادت كذلك بعد أن تخطت السياج دون أن تترك أي أثر أو تفسد أية جهة.

وهكذا مرة بعد أخرى، أضحت المزرعة أكثر ضررا، ولم يكن (ستيرو) يملك بسبب ذلك وسيلة لتهدئة نفسه والصبر أكثر. نام وهو ينتظر وقت رؤية ما أفسدته العجلة، وكانت عيناه تنمان عن الحقد والمرارة. ذهب إلى العقيد (جوزي رايمندو).

- سعادة العقيد، عدت إليكم مرة أخرى لأطلب من سماحتكم لأجل الخير الذي تتمناه لأبنائها أن تأمر بإبعاد ماشيتها عن مزرعتي. لقد أكلت نصف المحصول، وستأتي على الباقي.
- سبق لي أن قلت لك إني لا أملك ماشية بتلك الجهة.
- بلى يا سعادة العقيد، تملكون كما تدل على ذلك الوسمة : باء وراء.
- لو كانت ماشيتي، آذن لك بقتلها.
- سعادة العقيد...
- يمكنك قتلها، ان قطيع ضيعتي عرضة لطلقات بندقيتك.

عاد (ستيرولا) إلى بيته. وفي الطريق عطف على متجر (مني دوندون Mani Dondon) واشترى رصاصا وبارودا جيدين وباقي العتاد. لقد اتخذ قراره النهائي واتجه نحو مزرعته. اختفى خلف حاجز ومكث ينتظر طوال

ما تبقى من العشية وقسم من الليل. كان يرتعش لشدة قلقه، كان مقتنعا أنه أكره على فعل ما هو مقبل عليه. لقد كانت المزرعة مخربة ومليئة بالجذور المجتثة والأوراق الساقطة والمدوسة، وكان صوت العقيد الجاف يرن في أذنه :

☆ لا أملك ماشية بتلك الجهة، وإذا كان العكس، فاقتلها.

قد يحدث هذا في نفس اليوم. لاشك أن العجلة ستعود كعادتها، ستعود لتتخطى السياج وتلتهم الأرز.

سمع خطوات على الأوراق والحطب. كما سمع أصوات ماشية. انها العجلة التي ما كادت تصل حامت حول السياج بحثا عن المكان الذي ستقفز منه إلى الداخل. كانت متوجسة وحذرة. لم يكن (ستيرو) ليتركها تفعل لأنه هناك لأجل منعها. لقد كان مصمما على ذلك، وكانت البندقية التي توجد بيده معدة لإطلاق النار. رفعت العجلة رأسها، رجعت إلى الوراء (...) واستعدت للقفز. تأرجحت، تراجعت ونظرت مرة أخرى. كان (ستيرو) يتابع كل هذه الحركات. اختار الرأس فيما بين القرنين لكي لا يخطئها. كان عليه ألا يخطىء بسبب المقادير من الأرز التي أكلتها، ولأجل الجروح واللسعات التي تعرض لها ابنه (بادو)، ولأجل الحمى وبرد صباح أيام العمل والعطش، ولأجل ما قطعه من مسافات، ولأجل جوع شهور الصيف التي لم يذخر لها.

لم يترك للعجلة فرصة النظر من جديد. انطلقت الرصاصة. رفعت العجلة قائمتيها، توقفت ثم قفزت بعنف قبل أن تسقط وهي تصيح بقوة بجانب السياج. أسرع (ستيرو)، وبينما كانت العجلة تختلج طعنها بعمق وغضب وحقد.

كانت الساعة السادسة أو أكثر، وكانت الشمس تميل بهدوء نحو الغروب تاركة وراءها بعض البقع المضاءة على الأشجار. أصبح عليه الآن أن يسلخ العجلة وأن يضع اللحم داخل الجلد لنقله إلى ضيعة العقيد (جوزي رايمندو). لاحظ حرف الباء الدال على (بالديس)، والراء الدالة على (رايمندو) واضحين بالورك العريض. وبالفعل شرع في العمل منذ الرابعة صباحاً، أي منذ أن عاد إلى البيت رفقة (زينيو Zeninho) وأبناء عمه (جوزي ومارغريدو). وما أن وصلت الساعة السادسة حتى كان كل شيء جاهزا. وضعوا اللحم داخل الجلد والجلد في المحمل واتجهوا صوب ضيعة العقيد (جوزي رايمندو).

- صباح الخير أيها العقيد.
- صباح الخير أيها السادة.
- جئت لسماحتكم بلحم عجلتها التي كادت أن تقضي على مزرعتي. لقد أذنت لي سماحتكم بقتلها، وها أنذا قد فعلت. لم يكن لدي حل آخر.

تقلصت عينا (جوزي رايمندو)، توقفتا عن الحركة وتصلبتا. توقف لحظة ثم نظر إلى (ساتيرو) وإلى (جوزي) وإلى (مرغريدو) آل (أرودس)، تحكم في أعصابه وهدأ نفسه كشخص كان قد اتخذ قرارا. رفع يده وخفت من صوته وأشار إلى مخزن المؤونة :

- احملوا اللحم إلى هناك...

لأول مرة يجرؤ أحد على مس قطعة من شعر العقيد (جوزي رايمندو). كان الحاضرون متأكدين من أن شيئا ما سيحدث لمعرفتهم بالعقيد وبأراضيه وقطعانه وذرته وأرزه و «منيوكه» ونخيله وداره وأبنائه ونفوذه

وكفلاء تعميده ومحمييه وخدمه. لم يكن أحد ليعرف له أعـداء إذ كان هؤلاء جميعهم بعيدين عن هذه الغابات، وكان بعضهم في عالم الأموات.

كان (مرغريدو) واقفا. وبينما كان يفك رباط الجلد، تـذكر رنات الغيطارة وصوت المغني الذي كان منذ يومين يردد في حفل القرية مغامرة آل (أرودس) مقابل بعض الأرز :

جواكين، جوزي، مارغريدو،
أبناء أنطاو العجوز،
مزارعون معروفون،
للأرز، المنيوك والفاصولية،
أرودا، أرودينا، أرُوداوْ،
ثلاثة مزارعين من آل أرودا،
رجال أحرار، بدون سيّد.

أما جوزي البطيء وذو الذراعين الصلبتين، والرجلين الكبيرتين، فقـد كان يعلق أطراف اللحم الذي كان دمه يتقاطر. (...).

قال بلديش : يمكنكم الانصراف، وليبق فقط صاحب المزرعة لأن لي معه حديثا ولكي يساعد كذلك في تمليح اللحم.

أجاب آل (أرودس) دون أن يحركوا قدما : فليكن كذلك سيدي العقيد، نشكر سماحتكم.

- قبل ذلك أرجو من (جوزي) أن يسحب لحم متن العجلة (الحرباء) بعناية وأن يعلقه في مخزن السروج. سأخصصه لأمر ما، وصاحبه في انتظاره.

شرع (جوزي) في قطع اللحم بسرعة وانتظام بسكينه الحاد وأخرج منه حرباء مشيقة.

- لقد انتهيت يا سيدي العقيد.

- شكرا، علقه هنا، بالكُلاب الموجود على يسارك.

كانوا جميعا حائرين. لقد تغيرت عينا العقيد. كان يردد بهدوء بين الفينة والأُخرى وهو ينظر إلى اللحم المملح :

- فرسي لا يصلح إلا في الطريق.

كان كل شيء جاهزا في الساعة الخامسة عشية، فبعد بيع بضعة كيلوغرامات لبعض الجيران، بقيت قطع اللحم المملحة والمكدسة بالقفة القديمة ذات الفم الواسعة. (...) خيم الظلام كالعادة على الضيعة. بدأت الأبقار تعود إلى اسطبلاتها، وفرت بعض العجول من الاسطبل لترعى خلال الليل. علقت السروج ونظفت الجياد وعادت لها حريتها. بدأت الفوانيس توقد بأكواخ رعاة البقر والأعوان والخدم. أوقد في البيت الكبير فانوس ضخم ذو مذخنة. (...)

كان (ستيروا) جالسا على مقعد صغير بإحدى زوايا مخزن المؤونة. لم يبق أمامه من جثة العجلة إلا الحرباء المشيقة المعلقة والمليئة ذبابا والتي بدأت تتعفن. وبينما كان نسيم الليل يحمل من بعيد رائحة اللحم، كان (جوزي ومرغريدو) خلف الاسطبل في انتظار تسريح العقيد لابن عمها. كانا مفزعين وقلقين. لقد قضيا يومها دون أن يأكلا شيئا، ولم يجرؤ أحد من السكان على إعطائها ولو مجرد لقمة أرز. ينتظران بهدوء متكئين على النقالة التي وصلت إلى هناك خلال الليل.

تعشى العقيد حتى شبع، وكان عشاؤه من لحم العجلة المسلوق في الماء المالح والمخلوط بعجين المانيوك المطبوخ في اللبن... كانت الغبطة والفرح بالحصول على غنيمة أكيدة باديتين في عينيه.

- واحد بالحوصلة والآخر مربوط بالوتد.

كان سكان المنطقة يعرفونه معرفة جيدة. غير أن الرجل الحبيس بمخزن المؤونة لم يكن على وعي بخطورة الموقف. وبالمطبخ كان (تود تربوتينو Tude Tributino) يضحك لعلمه بأمر ما. لقد شرب نصف قنينة من ماء الحياة (...) كانت لـ (تريبوتينو) بعض العادات، وكان صانع مسدسات محترما ومشهورا، وكان رجل ثقة وبسالة. كان مسدسه من عيار 38 المزدوج الطلقات حبيس حزامه الجلدي في غلاف جلدي أخضر يزركشه جلد رقيق أبيض. كان مزيتا ومشحونا برصاص جديد. وكان بطرفه الأيسر خنجر أنيق وحاد يبلغ طوله أربعين سنتمترا أهداه إليه صديق من منطقة (Campina Grande).

أرودا، أورودينيا، أروداو،
ثلاثة فلاحين من أبناء أرودا،
أبناء أنطاو العجوز،
زنوج سود بدون سيد.

لا يزال (مرغريدو) يتذكر أغنية القيطاري الذي كان في مستهل الليل ينشد :

أرودا، أرودينيا، أروداو،
ثلاثة فلاحين من آل أرودا،
أبناء أنطاو العجوز،

رجال أحرار بدون سيد.

كانت لحم المتن يتعفن أكثر مع مرور الوقت. أصبح (ستيرو) يشعر بالغثيان بسبب رائحة اللحم والدوار الذي سببه صوم يوم كامل. وكان عاجزا عن أن يتجاهل رائحة التعفن لشدة تعبه وإلحاح النوم عليه. لقد أضحت أطرافُه قميصه ملونة لكثرة ما ضغط على أنفه.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلا حينما خرج ثلاثة أشخاص من البيت الكبير ومعهم سراج. انهم العقيد و (تربيتونو) والزنجي (زي غريغوريو Zé Gregório) محمي الضيعة وخادمها ومشارك العقيد حياته إذ كان لا يغادره أبدا حتى حين الذهاب للمبيت ببيت زوجة (نيكو دوندون Neco Dondon) التي تسكن على بعد 2 لغواش بـ (Coivara de Cima). كان الثلاثة يخطون خطوات بطيئة. كان (غريغوريو) يحمل السراج بينما كان العقيد يقتفي أثر خادميه.

رغم الظلام والنوم الذي كان يداعب أجفانها، تنبه أبناء (أرودس) إلى ذلك الضوء المتجه نحو مخزن المؤونة. أيقظهم الفزع فاقتفيا أثر الشعلة المدخنة واحتاطا. أفاق العجوز (ستيرو) لقد أصبحت رائحة الحرباء طيبة، طيبة جدا. ربط (تربيتينو) و(غريغوريو) المقاومة. أمرهم (بالديش) :

- إقطع من الحرباء واعط هذا الزنجي ليأكل فهي من حقه طالما أنه قتل العجلة. من يأكل من عجيني يدخل في حمالتي.
- سعادة العقيد، اقتلني، ولكن لا تعذبني.
- الناس يقتلون الرجال لا الزنوج مثلك الذين تميتهم لسعات الذباب.

صاح (تربيتينو) : هيا كل فورا...

كانت رائحة اللحم على مقربة من أنفه وفمه قد اختلطت بدخان وسخام (الكيروسين). لن يطيق (لينغوا - مول) أكثر هذه القذارة. تقدم (غريغوريو) وفتح فم السجين وأخذ (تربيتينو) يدخل فيه قطع اللحم بواسطة خنجره الطويل. كان (لينغوا - مول) يلفظ كل قطعة تدخل فمه.

صرخ (بالديش) اربط الحزام الجلدي بفك هذا الحقير حتى يبلع اللحم. ربط (غريغوريو) الحزام الجلدي المليء ثقبا بفك (ستيرو) وأرغمه على ابتلاع لحم الحرباء. كرر، بأمر من العقيد، العملية ثلاث مرات. كان (تربيتينو) يحرك آنذاك سوطا جلديا ملتويا وصلبا وكان يضرب به (ستيرو) الذي كان يئن.

سمع آل (أرودس) الأنين والأصوات (...). رقصت عينا (مرغريدو) الحيتان وفتشتا حوله. وفي الظلام تكلم الاخوان :

- (جوزي) انهم يقتلون الرجل...

- إنهم يفعلون...

وكالصاعقة اقتحم (مرغريدو) الباب وأطفأ فانوس المدخل فخيم الظلام على الحجرة. أطلق (تربيتنو) النار.

صاح العقيد : من ؟

أجاب (تربيتنو) : إنهم آل (أرودس).

أطلقت رصاصة أخرى فصاح الزنجي وفرّ. كان (مرغريدو) منبطحا على الأرض يزحف بدهاء وكأنه حية أو فأر. كانت يده تلمس الأرض وتبحث عن شيء ما كان يعرف أنه سيجده هناك. توسل إلى الأب (سسيرو) أن ترعاه عنايته : لقد بعث له الإله السكين.

- جواكن، جوزي، مرغريدو،

ثلاثة أبناء لانطاو والعجوز،
مزارعون معروفون،
للأرز والمانيوك والفاصوليا.

أخذ المدية التي يبلغ طولها 40 سنتمترا. كان الوقت قصيرا وكان عليه أن يتصرف بسرعة. سمع طلقة أخرى.

ـ هل قتل (ليغوا ـ مول) ؟

أجاب (جوزي) : ـ «لا، لم يمت بعد أيها البئيس». وجه (مرغريدو) السكين صوب مصدر الصوت، بينما وجه (تربيتينو) بدوره فوهة مسدسه لنفس الاتجاه.

لوحظت تلك القفزة الكبيرة وسط الظلام. انه جسم الزنجي المتطاير في اتجاه صاحب المسدس. وجده. لقد أحس (مرغريدو) بيده تلمس حنجرة فرفع أمامه السكين الكبيرة. لم يبق عليه الآن إلا تحريكها. فعل ففار الدم الدافيء وسقط (تربيتنو) جثة هامدة.

ـ سأل (جوزي) : هل انتهى أمر الأول ؟

لم يجب أحد بشيء، ولم يكن يسمع إلا الأنين.

ـ لص، ابن...

لقد كان العجوز جالسا القرفصاء في زاوية وهو ساكت ومسدسه في يده. كان يعرف أنه سيغامر أكثر إذا ما لاذ بالفرار. اثنتان من الطلقات كانت من مسدسه. أصبحت أصوات الرجال الذين استنجد بهم (غريغوريو) تسمع. لم يعد بإمكان (مرغريدو) التباطوء. مد يده إلى يد (تربيتينو) الذي كان لا يزال يرتجف وانتزع المسدس. مرة أخرى توسل إلى الأب (سيسرو)

أن يدله على مكان العقيد. وعد بإعطاء المساكين مقدارا من الأرز عربون شكر.

انطلقت رصاصة أخرى وسط جو مشحون برائحة البارود. أصابت الرصاصة هدفها. لاشك أن رعاية الأب كانت تحيط به. قفز أحد الحاضرين فقزة ضفضعة. أطلق (مرغريدو) الرصاص من جديد. عاد الهدوء إلى الحجرة فوقف (مرغريدو). كان (جوزي) ملقى على الأرض بعد إصابته في ركبته.

سأله (مرغريدو) : أجرحك أحد ؟

أجاب (جوزي) : أصابتني رصاصة.

وفي تلك اللحظة كان (ستيرو) ما يزال يتقيأ بقايا العجلة. ودون أن يفك (مرغريدو) رباطه، حمله على ظهره وغادرا الحجرة متبوعين بجوزي تاركين خلفهم العقيد يئن أنينا عميقا.

كانوا يسمعون في الغابة ضجيج الأربعين جنديا المسلحين الموفدين من طرف العدالة، والذين كانوا منهمكين في إحراق كل شيء : الأشجار والمزارع والخنازير والدجاج وكلاب الرافضين الاعتراف بشرعية الوثائق وضباط العدالة وموثقي العقود، والطوابع؛ والذين كانوا يرددون أن تلك الأراضي خلاء، مبررين ذلك بعدد الشهور التي قضوها فيها. كانت النساء يتوسلن إلى الله، ويرجين ويعدن الأولياء بهبات، كل ذلك كي ترق قلوب الرجال.

كان العقيد ممتدا في أرجوحته البيضاء المعلقة بين الخزيران، بينما كان آل (أرودس) يعبرون الغابات مع نسائهم وأبنائهم وبناتهم.

- إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى منطقة (طوكانتينس Tocantins) البعيدة.

ـ وداعا يا مسقط رأسي الذي أبعدني عنه الجفاف، ووداعا يا منطقة (مرنيا و Maranhão) التي طردني منها ظلم الرجال.

ـ الوجهة ؟

ـ منطقـة (طـوكانتينس) إلى جـوانب (Belém – Brasília) حيث لا يـوجـد أحـد، على الأقـل إلى حين وصـول صكـوك الملـك وذوي النفوذ.

ابن فرج القربلياني الأندلسي
وكتابه في الجراحة الصغرى

محمد العربي الخطابي

تَأْتي أَهمية «كتَاب الاسْتقصاء والإبرام في علاج الجِراحات والأَوْرام» من كَوْنه ثانيَ كتاب في فنّ الجراحة وجَبْر الكسور يحفظه الزّمن ضمن ما وصل إلينا مخطوطاً من التّراث العِلْميّ الأَندلسي.

ومؤلّفه هو أبو عبد الله محمد بن علي بن فرج القربلياني المُلَقَّب بالشّفْرة، أصْله من «قِرْبلْيان»، التي كانت تحت حكم النّصارى في عَهْد المؤلّف[1]، وعلى هذا فإن أَبا عبد الله القِرْبلياني يُعدّ من المدجّنين ـ أي المسلمين الذين كانوا يقطنون البلادَ الواقعة تحت حكم النّصارى في إسبانيا ـ وكانت قبل ذلك داخلة في مملكة الإسلام بالأندلس.

---

1) قِرْبِلْيان وبالأسبانية Crevillente، وهي بلدة في ناحية القنت Alicante قريباً من بلدة إلش ELCHE من أعمال بلنسية.

وردت ترجمة القِرْبِلْيـاني في كتـاب «الإحـاطـة» لأبي عبـد اللـه ابن الخطيب، وهي على قصرها مفيدة جـامعـة، فهو يقول عنـه إنـه «كانَ رجلاً ساذجاً - [أي سليمَ الطوية] - مشتَغِلاً بعلم الطبّ عاكفاً عليـه عُمْرَه، محقّقـاً لكثيرٍ من أعيـان النّبـات، كَلِفـاً بـه متَعَيِّشـاً من عُشبــه أولَ أمْرِه، وارتـاد المنـابت، وسَرَح بـالجبـال، ثم تصـدَّر للعلاج، ورَأَسَ بـه، وحفـظ الكثير من أقوال أهله، ونسخ جملةً من كنانيشه على ركاكة خَطِّه، وعالج السلطان نَصر المستقرَّ بوادي آش[2] وقد طرق بها مرض وافد - [أي وباء] -.... ثم رحل إلى العَـدوة وأقـام بمراكش سنين عـدّة، ثم كرَّ إلى غرنـاطـة عـام أحـد وستين [وسبعمائة]، وبها هلك على إثر وصوله»[3].

ثم يَتطرَّق ابنُ الخطيب إلى شيوخ القربلياني فيقول إنه قرأ على «عبـد الله بن سراج وغيره»، وأظنّ أن المقصود هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن روبيل الأنصاري المعروف بابن السراج (ت 730 هـ / 1330م).

وذكر ابنُ الخطيب أنّ ابنَ فرج القربلياني «زعم أنه قَرأ على أبيه ببلده في قربيليان، بلد الدّجن، وأخذ الجراحة عن فوجٍ من محسني صناعة عمل اليَـد **من الروح** ؟» - كما ورد في طبعة الإحاطة التي حققها محمد عبد الله عنان، وهذه الجملة غامضـة بسبب التَّصحيف، وصوابهـا : «وأخـذ الجراحـة عن فوجٍ من محسني صناعة عمل اليد **منَ الرُّوم**». ذلك أن القربلياني نفسَه يـذكر في

2) هو السلطـان أبو الجيوش نصر بن محمد رابع ملوك بني الأحمر بويع عـام 708 هـ / 1309 م واستقر بـوادي آش من عـام 713 هـ / 1314 م إلى عـام 722 هـ / 1323 م، وهـو تـاريـخ وفاته.

3) ابن الخطيب، «الإحاطة» (القاهرة 1393 هـ / 1973 م الطبعة الثانية) ص 3 : 179.

كتاب «الاستقصاء والإبرام» شيخاً نَصْرانياً من شيوخه سَمّاه «الميشو يزناد» أو برناد وهذا أمر لا غرابة فيه، إذ كان القِرْبلياني من «بلاد الدّجن» أي البلاد الأندلسية الواقعة تحت حكم النّصارى وتعيش فيها جاليات من المسلمين، ذلك أن الصّلات العلمية بين المسلمين والنّصارى كانت قائمة بالرغم من الحروب بين الفَريقين؛ وقد ذكر ابن الخطيب أن أبا عبد الله محمد الرقوطي المرسي كان أستاذا في مدرسة أسسها له الملك الأسباني ألفونصو العاشر (1266م) في مرسية وكان الرقوطي يدرس فيها العلوم للنّصارى واليهود بألسنتهم، كما قال ابن الخطيب[4].

وعن تآليف القِرْبلياني ذكر ابن الخطيب أن له «كتاباً في النّبات» ولكنّه لَمْ يذكر «الاستقصاء والإبرام» الذي وصل إلينا بخلافِ كتاب النّبات الذي لا نعرف عنه شيئاً، وقد كان المؤلّف خبيراً بالأعشاب بعد أن ارتاد منابتها، وسرح بالجبال لمعاينتها على غرار ما كان يفعله مشاهير العشّابين قبلَه كابن عبدون والسيد الغافقي وأبي العباس ابن الرومية وابن البيطار.

وإذا كان ابنُ الخطيب قد أخبرنا أن القربلياني رحل إلى العُدوة وأقام بمراكش سنينَ عدَّة، فإننا نعرف مما ذكره القربلياني نفسه في «الاستقصاء والإبرام» أنه أقام بسبتة وفاس حيث زاول مهنته وباشر علاجَ المرضى والمصابين بالسّهام أو بكسور في العِظام أو بأصناف من الأورام.

وكانت وفاة القربلياني ـ حسب ابن الخطيب ـ في السابع عشر لربيع الأول عام أحد وستين وسبعمائة (1332م).

---

4) الإحاطة 3 : 67 – 68.

كتاب الاستقصاء والإبرام[5]

إن هـذا الكتـاب - كما سنرى - هـو ثمرةُ تَجربـة المـؤلِّف ومعــانــاتــه للجراحة الصغرى وجبر الكسر، وهو من الناحية العلمية النَّظرية قد استفاد من مؤلفـات جـالينوس وذكر منهـا على الخصوص «رسـالـة أغلـوقن»[6] - كما رجع إلى المقالة الثلاثين من كتاب التَّصريف لأبي القـاسم الزّهراوي، وذكره غير ما مرة.

وقَسَّم كتابه إلى ثلاث مقالات :

- المقالة الأولى في الأورام.
- المقالة الثانية في الجراحات والجبر.
- المقـالـة الثـالثـة في الأدويـة المفردة والمُرَكّبـة التي تصلـح لـلأورام والجروح والحروق والجبر وما إلى ذلك.

وقد سار المؤلِّف في كتابـه هـذا على نهج تعليمي وعَملي يُخـاطب فيـه ابنَه ويُعَلِّمه قواعد الصناعة ويُلِحّ عليه في أن يعتمد على التَّجربـة والمعـانـاة وأن لا يعول على الكتب فقط، وهو بالرغم من خبرته وعلمه قليل الاحتفال

---

5) أدرج جماعة من المستشرقين هذا الكتـاب في قـائمـة المؤلفـات الطبيـة العربيـة المخطوطـة التي ينبغي نشرها بالأسبقيـة («Archeon» XVII, 1935, p 86 - 89). ونشر H. P.J. Renaud بحثـا عن مؤلف كتاب الاستقصاء والابرام بعنوان : جرّاح – مسلم في مملكـة غرنـاطـة (انظر مجلـة Hespéris، المجلد XX، الكراسة 1، عام 1935) ص 1 : 20.

6) ترجمت هذه الرسـالة إلى اللغة العربية ولخصها وشرحهـا حنين ابن اسحـاق؛ وحققهـا ونشرهـا أخيراً د. محمد سليم بعنوان «كتـاب جـالينوس إلى غلوقن في التـأتي لشفـاء الأمراض (القـاهرة 1982).

بالآلات الجراحية لا يدقق في انتقائها للاستعمال المناسب، وهو في ذلك على خلاف الزّهراوي، إلا أنه دقيق في استعمال المصطلحات العلمية في ميدان الجراحة الصغرى فجاء كتابه حافلاً بها مما يكن عده ثروة لغوية.

وأسلوب القربلياني سَهْل واضح، وهو في بعض الأحيان أقرب ما يكون إلى لغة الكَلام الدّارج، وهو كسلفه الزّهراوي ـ كثيرَ التحرُّز والتحفّظ يَنْصَح بالأناة والتثبُّت في التشخيص والعلاج، ويطلب الابتعاد عن مداواة الحالات الصعبة التي لا يُرجى لها بُرْء، وهو أكثر ما يكون تحفُّظاً في حالات الأورام المتعفنة والسرطانية وفي جَبْر العظام المكسورة، يكره الإقدام على ذلك بغير علم ولا تَجربة، وكثيراً ما يشتكي المؤلّف من جهل المنتحلين لهذه الصّناعة من غير أن يكون لهم بها علم ولا مراس، وكثيراً ما يذكر حالاتٍ واجهته والطريقة التي اتّبعها في العلاج حتى إنه ذكر حالةَ كسرٍ أصابهُ في عظام ساقه فجبره بنفسه.

ومن هنا فإن كتاب «الاستقصاء والإبرام» لابن فرج القِرْبلياني يُمْكن عَدّهُ من المؤلَّفات الهامَّة في تَاريخ الطبّ بالغَرب الإسلامي لكونه قد عُني بنوع من التخصّص بَرّز فيه الزهراوي وحده، ولم يصلنا مؤلَّفٌ غيره في الكيّ والجراحة والجَبر إذا استثنينا كتابَ ابن فرج هذا، مع فارق مهم بين التأليفين، فالزّهراوي عُنِيَ بالجراحة العامة ولم يقتصر كالقربلياني على الأورام وعلاج الجروح التي تصيب الجسد وإخراج ما يَنْشَبُ فيه من سِهامٍ ونَحْوها بالإضافة إلى علاج الكسر والخلع والرضّ.

وسنقدم فيما يلي فصولاً من المقالة الأولى المتعلقة بالأورام، وفَصْلَيْن من المقالة الثانية في الجِراحات، وذلك لتوضيح منهج المؤلف في هذا الضّرب

من الصناعة الطبية، وقد أعددنا للطبع النّص الكامل لكتاب «الاستقصاء والإبرام» الذي سيصدر - إن شاء الله - محققاً ضمن كتاب «الطبّ والأطباء في الأنْدلس الإسلامية»، وهو في مجلّدين، يضم عدداً من النصوص الطبية لم يسبق نشرها مع دراسة عن نشأة الطب وتطوره في الغرب الإسلامي، وتراجم مشاهير الأطباء ومعجم لتفسير المصطلحات العلمية.

وقد اعتمدنا في تحقيق كتاب الاستقصاء والإبرام على نسختين إحداهما محفوظة بالخزانة الحسنية ورقمها 1716 / مجموع، والثانية محفوظة بالخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ورقمها 1363/د.

الأدرة المائية

هذا الورم يَحْدُث في كيس الأنثيين تَجْتمع فيه رطوبة مائية - كما في الاستسقاء الزِّقّي - أو رطوبة لَزِجة. تَعظُم حتى تصير في عِظَم رأس الإنسان أو أعظم كثيراً.

وعلامتها أنها لا حس فيها، وتكون الرطوبة التي فيها تتحرك عند اللّمس عليها ولا يوجد فيها صلابة ولا يبقى فيها أثر الأُصبع عند الغمز عليها، وقد يحدث في الجلد عليها بعضُ غِلَظٍ وصلابة إذا طال بها الزّمان وعظمت وظهرت في جلدها عروقٌ ممتلئة كثيراً.

وعلاجها تقوية الهَضْم[7] وهجر الأغذية الرطبة مثل **الألبان والحيتان** وما أشبهها، ويأخذ الأدويةَ المُدِرَّة للبول وتضمّدها بأعناق **الثوم والنّخالة** بعد الطبخ بالماء، ومتى جفَّ الضّماد أعيد غيرُه.

---

7) في ا : النضح.

ومما جَرَّبْتُ في ذلك **الطِّين الأرميني والسُّعْد**[8] من كلٍّ واحدٍ جزء، يُعْجَن الجَمِيع بعد الدقّ والتنخيل بطبيخ **الآس** ويُضَمّد بها المَرّة بعد المرّة ولا يترك إلى أن يجفّ؛ وقد رأيت من ثقبها بإبرَةِ خَرّاز وسال منها مثل غُسالَة اللحم وبَرِئ ولم تعد له بعد، وهذا أبلغ في علاجها عند ابتدائها، وأما إذا طالت مُدّتها أو عَظُمت فلا علاج لها، وإن بُطَّتْ سال ما فيها وانحلّت قوةُ صاحبها وحدث به الإسهال وتبعه الموت.

وقد تحتوي هذه الأُدرة على رطوبةٍ غير مائية كما في الدُّبيلات، والحق في مثل هذه ألا تَقربها بعلاج.

الأُدْرَة الريحية

هي ريحٌ تنحدر من البطن إلى كيس الأُنثيين وتُمَدِّده حتى يَعْظُمَ ويصيرَ على قدر رأس الإنسان أو أعظم ويُدَوِّي عند الضرب عليه مثل دَوِيّ الطّبل، وإذا شُدّ عليها باليَد خرج منها الريح إلى البطن وأحدث قَرْقَرة، وإذا أزيلت اليدُ عنها رجع الريح إليها كما كان.

وعلاجها أن تُضَمَّد **بالكَمُّون والسَّذاب وبرز الدُّوقو والنّانخة والفراسيون**، مفردةً أو مجموعة، **بربِّ العنب** بعد الدقّ والتّنخيل، ويُجْتَنَب كلّ ما يولِّد الريحَ من الحبوب والفواكه والبقول وغيرها، ويؤخذ جوارش **الكَمّون** في كل يوم غُدوةً وعند النوم.

---

8) يرجع في تفسير المصطلحات النباتية والطبية إلى كتاب «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار» لابن القاسم الغساني الوزير، تحقيق محمد العربي الخطابي (دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985).

وقد رأيت من الأطباء من شَدَّها عند أصلها ومنع الريح من أن يدخل إلى البطن وثقبها بإبرةٍ طويلة[9] ليسهل دخولها ويُسرِع اندمال الثَّقب بعد خروج الرّيح، فلما ثقبها حبس باليد مع[10] الربط في أصلها ومَرَصَها[11] باليد حتى خرج جميعُ ما فيها من الرّيح وكَوَى موضعَ الثَّقْب وعالجه بالمرهم النّخلي حتى بَرِئَ ولم تَعُدْ له بعد ذلك.

العُقَدُ الغَددية

هذه العُقد أنواعُها كثيرة ومواضعها من الجسم مختلفة. فمنها ما يَحدث في العُنق وتُسَمَّى **الخنازير**، ومنها ما يَحدث تحت الإبْط وفي الأُرْبية فإذا وَرِمَتْ تسمَّى **طواعين**، ومنها ما يحدث في سائر البدن تحت الجلد وفي ظهر الكفّ وفي ظهر القَدم.

وعلامتها أنّها في لون البدن ظاهرةٌ للحسن.

وعلاجها أن تُضَمَّد **بالأُشَّقِ والمُقْل الأزرق والقَنا**، يطبخ الجميع **بالخلّ** ويُضَمّد به على قطعة **رَصاص** فإن تحلّلت **والأُشَّقُ** عليها فأَخْرِجها بكيسها واكْوِ الموضعَ وعالِجْه حتى يبرأ - إن شاء الله تعالى.

وأمَّا ما تورم من هذه العُقَد الغُددية فتعالَج أولا **بالمَرْهم الحادّ** حتى تتصل أغشيتها كلّها لِيَلاّ تعود، وبعد ذلك يعالَج موضعها بما يُنْبِت اللحم ثم بما يُدمل كما تقدّم في علاج الأورام حتى يبرأ - إن شاء الله تعالى.

---

9) في ب : بابراة مربعة.

10) ساقطة في ا .

11) في ب : ومرسها (بالسين)، ومعنى مرص (بالصاد) غَمَزَ باليد.

الخنازير

تَوَلُّدها عن بَلغم غليظ خالطته سوداء، فإن كان ما يخالطه من السوداء يسيراً كانت الصّلابة[12] قليلةً، وإن كان ما يخالطه ـ أعني البلغم ـ من السوداء كثيراً كانت الصلابة كثيرة.

وعلاجها الشقُّ عليها وإخراجها بكيسها وإلا تعود كما كانت.

وما كانت الصلابة فيها أقلَّ أُنْضجت وأُسيل ما فيها، وعلاجها يكون بالأدوية الحادّة الأكّالة حتى يتأكّل ما فيها من التعفُّن ويخرج كيسُها بجميعه، وبعد ذلك يُعالَج الموضعُ بالمراهم المُنْبِتة للّحم، فإذا تساوى مع سطح البدن عولج بالمراهم المُدْمِلة.

وهذه الأورام إذا كانت في ابتدائها فعلاجها يكون بما يحلِّل مما ذكرنا مثل **الأُشَّق والمُقْل** وما أشبههما.

وقد ذكر **جالينوس** أن **الكُزْبرة الرَّطبة** تحلِّل الخنازير، تُدَقُّ دقاً جيداً ويُضَمَّد بها وتُبْدَل قبل أن تَجفَّ، فإن ظهر فيها أثرُ حُمرةٍ فأَنْضِجها بالمراهم المُنضجة مثل **الدياخيلون** وغيره مما نذكره في مقالة الأدوية، فإذا انفجرت فيوضَع عليها أحد المراهم الحادّة حتى يَقْلع أصلَها ولا يبقى من كيسها شيء.

ومما جَرّبت في علاجها **المرهم النّخلي** : أوقية **نحاس محروق ورَهج وغار**، ربع أوقية من كلّ واحد، يُدَقّ النّحاس المحروق والرَّهج

12) في أ : الصلبة.

ويُنخل ويُخلط الجميع ويكون خَلْطه باليد حتى يصير جسداً واحداً ويُذَرّ منه على خرقة كتّان على قَدْر وسط الجرح ويبيت عليه، فإذا أصبح والموضعُ قد اسودَّ فاجعلْ عليه **الكبريتَ بالسمن** حتى يَسقط ما اسودّ منها وتعفّن فإذا سقطت بجملتها وإلا فأعد عليها المرهم الحادّ كما فعلت فإذا خرج جميعها عالج الجرحَ **بالمرهم المُنْبت للحم** مثل **المَرهم الأصفر** وغيره حتى يَمتلئ الموضع باللحم، فارجع إلى **المرْهم النخلي** حتى يَندمل، وإياك - إن كانت عُقَد كثيرة - أن تضع الدواء الحادّ على جميعها مرّةً واحدة في وقت واحد بل تفعل ذلك بواحدة فإذا سقط جميعُها ترجع إلى غيرها تفعل ذلك بواحدة بَعْد أخرى.

ومن الأدوية الحادّة الأكّالة للحم : **الزرنيخ المُصَعَّد** إذا سُحِق وذُرَّ عليها أكلها وأخرج جميعَ ما فيها، والمَرهم المذكور قَبْلُ أقوى فعلاً في ذلك، **ودواء القطنة** أقوى من جميع الأدوية الأكّالة للحم يؤخذ ذلك وغيره من مقالة الأدوية - إن شاء الله تعالى.

الثآليل

أنواعها كثيرة بحسب مواضعها من البَدن، منها رطبة ومنها يابسة، ومعكوسة وغير معكوسة.

فاليابسة منها تتولّد عن المِرَّة السوداء، والرطبة عن فضول البَلغم وهي ظاهرة للحس لا تخفى.

وعلاج اليابسة منها : إسهال السوداء واستعمال الراحة والحَمّام وكلّ ما يُرطِّبُ البدن، ويُجْتَنَب ما يولد السوداء مثل لحوم **البقر والماعز والوحش**، ومثل **الكُرنب والباذنجان والعدس** وما أشبهها.

ومما يَقْلع الثآليل **بزر الكتّان** : يُدَقّ ويُخْلط مع **الرماد** ويُعجَن بالماء ويضمَّد به المرَّة بعد المرّة حتى تتورّم وتسقط. وإذا أحرق **الزَّرجون** حتى يَخْرج الماءُ على الطرف الآخر وكَوَيْت به ذلك الموضع[13] وَرَّمها وقَلعها؛ ولبن **التين** يُخْلط مع الشحم ويُضَمّد به.

وأما المعكوسة منها فلابد من إخراجها بالحَديد وكيِّ الموضع بالنّار، وبهذا عالجتُها أنا مرارا فَبَرِئَتْ، وكذلك **الذراريج** إذا جعلت في الزيت وعلّقت في الشمس أربعين يوماً وقُطِّر من ذلك الزيت على الثآليل وَرَّمها وقَلعها.

وعلاج الثآليل الرطبة إسهال البَلغم وترك الأغذية المولِّدة للبُلغم **كالحيتان والألبان** وما أشبهها، وأن تضع عليها أحدَ **الأدوية الحادّة** حتى تسقط.

وقد عالجتها في الأنف **بدواء القُطْنة** حتى سقطت وعالجتُ الجُرح حتى بَرِئ الموضع، وعالجتها مراراً في المقعدة : أخذت **البَصل** وشويته في الغطاء[14] ودققته دقاً جيداً وخلطته **بالسمن وضمدتها به فسكن وجعها.**

---

13) في ب : الماء.

14) في أ : الفضا.

وقد عالجتها أيضاً بأن ربطتها بشعرة من ذيل فرس حتى سقطت وكَوَيْتُ موضعها وعالجت الموضعَ **بالمَرهم النّخلي** مرطباً **بدهن الورد** حتى برئ بحمد الله تعالى وعونه.

السِّلْعَة

تبتدئ على قَدر الحِمّصة وقد تَعظُمُ حتى تصير كالبطّيخة، وهي على لون البدن ويُحيط بها كيسٌ تحتَ الجلد يُشبه الصِّفاق، وهي ثلاثة أنواع : **شحمية وعصيدية وعسلية.**

فالشحمية تُشبه قِطَعَ **الشحم** الأبيض، **والعصيدية** تشبه عَصيدةَ **الحِنْطة**، **والعسلية** تشبه **العسل** الثخين.

وعلامة السِّلعة أنها ملتزقة بالجلد وتتحرَّك إلى جميع الجهات من غير ألم يَجده العليل.

وإذا أردت أن تَعلم ما تحوي السِّلعة فخذْ مِسَلَّة واسْبرها[15] حتى يبرز لك شيء مما فيها، وكذلك تفعل **بالدُّبَيْلات** فتعلم ما في داخلها.

وعلاجها ـ إذا بَدأَت تتلوَّن ـ الكيُّ حولها فيمنعها أن تكبر، وأما إذا عَظُمت فلابدّ من الشقّ عليها وإخراجها بكيسها. والشقّ يكون على التّصليب على هذه الصفة +، ويُسلَخ عنها الجلدُ من كل جهة وتُرْفع بصِنَارة إلى فوق وتُقْطع بجميع كيسها وإلا عادت كما كانت فاحْذَر[16]

---

15) في ب : فصيرها وفي أ : فسيرها (بالسين)، ولعل الصواب : وأسبرها ـ أي السلعة ـ وهو اللفظ الذي استعمله الزّهراوي في مقالة الجراحة عند الكلام على هذا الورم.

16) في أ : فاحرز.

ذلك، وتعالج الموضع كما تُعالج الجراحاتِ، وتَحَفَّظ عند السلخ عليها من قطع عَصَبٍ أو عرقٍ ضارب فيَنزف الدم، وإن تَبَقّى نَزَف شيء من الدم فاكْوِ عليه في الحين بعد تمام عملك ولا تَقْرب لشقّه حتى تكون معك **آلة الكيّ** من حديد مُعَدّة لمثل ذلك ليلا يقع معك الخجل والخوف من نزف الدم، فإن كان العِرْق كبيراً والنّزف كثيراً فتفعل فيه على حسب ما يأتي بعدُ في علاج النزف في جراحات الرأس وغيره إن شاء الله تعالى.

الوَرم الصُّلب

هذا الورم يُسمّى عند اليونانيين **(سقريوس)** لثباته ودَوامه وبُطء انحلاله، ويكون عن أحدِ ثلاثة أسباب : إما من بَلْغم غليظ خالِص، وإما مشتركاً وممتزجاً ببلغم ومِرّة سوداء، وإما من خَطإِ الأطباء عند تبريدهم وتقبيضهم للأورام الحارة وتحليلهم إياها حتى يتحلل الرقيق ويبقى الغليظ فيتصلب.

وهذا الورم يَحْدُث قليلاً قليلاً ويتزيّد حتى يَستحكم.

وعلامته إذا كان ممتزجاً بالسَّوداء أن يكون لونُه إلى السواد مع بَرْد المَجَسَّة، وهذا الوَرم إذا تقادم وصَلُب وظهرت فيه عروقٌ حمراء وسوداء وكان فيه ضَرَبان مع أدنى حرارة فقد صار **سرطاناً**.

وهذا الورم إن كان مما يُحَسّ فهو بَيِّنٌ[17] إلا أنه عسير البُرء، وعلاجه - إذا كان من قِبَل البَلغم - إسهالُ البلغم وترك الأغدية المولِّدة له، وبالجملة

---

17) ب : يبرا.

ينبغي أن يعالَج الصلب بما يُلَيِّن مثل **الشحوم والأمخاخ والمُقْل ودهن السوسن ودهن الشَّيْرَج** وبزر الكتّان [والشمع، يُجمع الجميع ويُحمل عليه، وإن زيد في هذا الضِّماد الوَشَّقُ والتِّين والبازَرْد][18] **ولُعاب الحُلْبة** فيُخلط الجميع في الهاون حتى يشتدَّ قوامُه، كان نافعاً من جميعِ الأورام الصلبة - إن شاء الله تعالى.

السَّرطان غيرُ المتَقَرِّح

هذا الورم إما أن يكون تولُّدُه عن الأورام الحارة إذا تَحَجَّرت، وإما أن يكون مبتدئاً يَحْدث عن دُرْديِّ الدم وغليظِهِ وهو **الخِلْط الأسود**. وهذا الورم إنما سمي **سرطاناً** لِشَبَهه **بالسرطان البحري**.

وعلامته أنه يبتدئ مثلَ الحِمّصة ثم يتزيَّد بطول الأيام حتى يصيرَ له عِظَمٌ وصلابة شديدة، ويصير له في الجسد أصل كبيرٌ مستدير، لونه كَمِد وعليه عروق خُضْر أو سودٌ إلى كلّ جهة منه، ويولد[19] عند اللمس حرارةً يسيرةً.

وعلاج المبتدئ منه استفراغُ السوداء قليلاً قليلاً في مَرّات[20]، وإن ظهرت علاماتُ الوَرم[21] فافْصده من **الأكحل**، وإن كانت العلّة بامْرأةٍ يُدَرُّ طَمْثُها[22] بدلاً من الفصد إذا لم تكن جاوزت خمسين سنة.

---

18) عبارة ساقطة في أ.

19) ب : ويوجد.

20) ب : مرة.

21) ب : الدم.

22) ب : فالحجامة بدلا من «يدر طمثها».

ويَجْتنب صاحبُ هذه العلّة جميعَ ما يولِّد السوداء كما ذكرنا في **الوَرم الصلب**، ويكون غذاؤه كل ما يولد دماً محموداً، وبعد الاستفراغ يُحْمَل على الوَرم ما يدفع ما ينصبُّ إليه ويمنعه من أن يتزيّد مثل **عنب الذئب وحيّ العالم وعنب الثعلب** ونحوها.

وقال الزّهراوي : ومما يَنْفع الأورام الرديئة والغددَ التي تكونُ في المَقعدة والأورام التي تكون في الأنثيين وفي الثّديين أن يُعْمد إلى هاون من رصاص وفِهْر[23] منه فيُسْحَق فيه **طين أرميني** مع **خلّ** أو مع **عسل** أو مع **لبن حليب** أومع **دُهن ورد** أو مع **زيت أنْفاق** - أيُّ ذلك حضر - حتى يَسودَّ وتُلَطَّخُ به الأورام.

وقال أيضاً : ومما ينفع السرطان في ابتدائه منفعة عظيمة : أن تؤخذ **السُّلاقة** التي تكون على قدور الحَمّامات البالية فتُسحق **بدُهن ورد** وتُحْمَل على الورم، فإن لها في ذلك خاصيةً عظيمة.

وإن كان الورمُ في موضعٍ كثير اللحم ولم يكن في مَفْصل ولا في موضعٍ فيه عصبٌ أو عرق ضارب أو نهرٌ كبير أو عرق غير ضارب يُخاف نزفها فيشقُّ عليه كما تقدّم في الورم الصُّلب ويُكْوى المَوضع بعد خروجه ويعالَج كما ذكرنا في الأورام الصُّلبة حتى يبرأ - إن شاء الله تعالى.

السرطان المتقرِّح

هذا الورم إما أن يتقرَّح من ذاته وإما أن يتقرَّح بالعلاج، يفعل ذلك الطبيبُ الجاهل.

---

23) ب : وفهو.

وعلامة المتقرِّح أنه قَرْحة قبيحةُ المنظر غليظةُ الحواشي منقلبةٌ إلى خارج مائلةٌ إلى السواد تسيل منها رطوبةٌ مائية وصديد مُنْتِن، وكلّما عولج منها زاد رداءةً ولم يُؤثِّر فيه دواءٌ البَتَّة.

وقد رأيتُ هذا الورم تقرَّح لأناس وكان آخرهم الموت. وأنت ـ يا بُني لاَ تَقْرب هذه الأورام الصُّلبة[24] مثل السرطان المتقرّح وغير المتقرّح والدُّبَيلات الكبار، ولا تلتفت إلى ما ذكرنا من العلاج لها في هذا الكتاب، ولا يُدركك فيها الطمع أصلا إلا في ابتدائها قبل أن تَعْظُمَ فَتَقْبَلَ العلاج كما تقدَّم ـ إن شاء الله تعالى.

المقالة الثانية
في الجراحات

اعْلَمَ أنَّ هذه الجراحات تَحْدثُ عن [أسباب بادية تُحْدِثُ][25] تفرُّقَ الاتصال. والأسباب الفاعلة لتفرّق الاتصال كثيرة ومختلفة كضربة السيف والسكّين والحَجَر أو رُمحٍ أو سهم أو عود أو سَقْطة، وكذلك تختلف أيضاً بحَسَب الموضع من الجسْم الذي تَقَع فيه، مثل أن يَقع الجُرح على الرأس أو على الوَجْه أو على الحَلْق أو الصَّدر أو الفَقار أو المعدة أو الكبد أو الطيحال أو الأمعاء أو المثانة أو الكُلَى أو اليدين أو الساقين، أو تقع على عِرْق ضارب أو غير ضارب أو على عصبٍ أو رباط أو وَتَر[26] أو عَضَلٍ أو نحوها من الأعضاء.

---

24) ب : الصعبة.

25) عبارات ساقطة في أ.

26) في أ : وثين.

واعلم أن الغَرض في علاج تَفَرُّق الاتّصال إنما هو شِفاؤه، وهذا يكون بجمع ما تفرق وإدمال ما تباعد، إذ الجمع ضدّ التفرق والإدمال إبقاءُ ما جُمِعَ على حاله وإمساكُه على طبعه واعتداله.

وأقول : إنّ هذه الأبدان التي تقع فيها الجراحات قد تختلف معاناتُها بحسب كلٍّ نوع منها وما يوافقه، إذ الأبدان تنقسم قسمين : **الأبدان اليابسة** مثل أبدان الشيوخ والحرّاثين والخدّامين والحدّادين والبنّائين وأصحاب الكدّ والتعب، **والأبدان الرطبة** مثل أبدان النساء والصبيان وأصحاب الدَّعة والرياسة ومن يُكثرون من الاستحمام بالماء العذب، وقد استوفى جالينوس ذكرها في «حيلة البرء» وفي قطاجانس[27] على ما نذكره بعدُ إن شاء الله تعالى. وأنا أبيّن لك طريقَ التّدبير في هذه الجِراحات فأقول :

إنّها تنقسم قسمين : إما أن يكون الجُرح **بسيطاً** وإما أن يكون **مركّباً**.

فالبَسيط هو ما قَطَعَ اللَّحم وحده، **والمُرَكَّب** هو ما قطع معَ اللحم عَظْماً أو عَصَباً أو غيرَهما مما ذكرناه قبل.

فلنبدأ أولا بذكر الجُرح البسيط فأقول :

إن الجُرْح إذا كان مُفْرداً في سطح البدن فقد قدَّمنا أن علاجَه بِجَمْعه وبِرَدِّه إلى ما كان عليه، فإن كان صغيراً فينبغي أن تَضُمَّ شفتي الجرح

27) حيلة البرء، وقطاجانس كتابان من تأليف الحكيم اليوناني جالينوس، نقل الأول إلى العربية حبيش بن الحسن الأعثم وأصلح بعضه حنين بن إسحق (فهرست ابن النديم ص 348)، أما قطاجانس فهو كتاب في الأدوية المركبة ذكره ابن جلجل في طبقاته، ص 43.

بالدواء إن كان الجرح في موضعٍ يُمكن فيه ذلك، وإن كان واغلاً في اللحم وله غَوْر فيُضَمُّ بالخياطة بحسب ما يتأتّى لك، ويكون جمعُه مستوياً محكَماً ولا يكون بَينه فضاء، وتَحَفَّظْ لِيَلاً يقعَ في الجرح شيء، بل تُنَقِّيه تنقيةً حَسَنة، وتَذرُّ عليه الذَّرور المُلْحِم والمرْهَم الملْحِم، ويكون ذلك بحسب العُضو، فمتى كان مزاجُه اليُبسَ كان دواؤه الذي تريد أن تُنْبِت اللحمَ به من اليُبس مساوياً لمزاجِ ذلك العضو، وإن كان مزاجُ العضو رطباً كان مزاجُ الدّواء المُلْحِم من الرطوبة مساوياً لمزاج ذلك العضو أيضاً، وهذا بخلاف علاج الأمراض، لأنَّ معالجةَ الأمراض تكون بالضدّ.

فالحارُّ واليابس يعالَج بالرّطب والباردُ وبالعكس، وفي إنبات اللحم في الجِراحات يكون مشاكلاً لمزاج العضوِ وإن تركّبَ مع الجراحات أورامٌ فتُرَكِّب العلاجَ على ما قدّمنا ذِكْرَه في علاج الأورام.

وقد قال **جالينوس** في قطاجانس وفي غيره : إن **المرهم النّخلي** يزاد في **القلقطار** إذا كان الجرح في عضو يابس أو في بدن يابس، وينقص من القلقطار إذا كان الجرح في عضو رطب أو في بدن رطب، وهو أفضل المراهم كلّها، وذلك أنَّ تَفَرُّق الاتصال يَحتاج إلى الجَمْع والإدمال كما تقدّم القول فيه، وجميع هذه القوى موجودة في **المرهم النَّخلي** لأن فيه القَبض والرَّدع والتَّحليل وإنبات اللحم والإدمال، وذلك لأنّه يسكِّن الوَجَع في الجراحات عند حدوث الورم ويَرْدع ويجفّف ويجلو ويُنقّي ويُقوّي العضو، ومن أجل أنه يُجَفف ويجلو في هذين الفعلين يُنْبِت اللحم ويُدمل ويَجْمع ويَختم الجراحاتِ والقروحَ ويحَلِّل ويردع، فَيُذْهِبُ بذلك الورمَ

ويُبدل المزاجَ الرديء، وذلك كلّه بحسب استعماله، فإن كان مزاجُ العضو مائلاً إلى الحرارة فامزجه بإحدى العصارات المبرِّدة بعد حلِّه بأحد الأدهان المُبرِّدة القابضة، وإن كان مزاج العضو مائلاً إلى القبض فتمزجه بضدّ ما ذكرنا، وكذلك تفعل بالتَّرطيب والتَّجفيف.

وإن تركَّب سوءُ المزاج ركِّبْ العلاجَ بحسب ذلك على ما يَدُلُّ عليه مزاجُ العضوِ والسنِّ والدَّواءِ[28] والبلدِ والوقتِ الحاضر من أوقات السنة، وإن كان هذا[29] المزاجُ في الجسم كلِّه فاستفرغْ له الخِلْطَ المُحدِثَ لسوء المزاج بأحَدِ الاستفراغات : إما بالفَصْد أو بالإسهال أو بالقيء إن لم يَمْنَعْكَ مانع، ويكون قصْدُك في جميع الاستفراغات سيلانَ المادّة إلى ضدّ النّاحية التي مالت إليها، وترجع بعد ذلك لإصلاح دم الجسم بالأغذية التي تُوَلِّد دماً محموداً، أو بالأشربة والمعاجين والرِّياضة القليلة المعتدلة التي لا يَتْعَب معها البدن، ويكون ذلك كما تقدَّم في علاج الأورام في مقالة الأورام.

واعْمَل أن يكون الاستفراغُ - إنْ كان البَدَن قوياً محتمِلاً - في مرَّة واحدة، وإن كان البَدَنُ ضَعيفاً استَفْرِغه في مَرَّات عِدّة قليلاً قليلاً حتى تصلَ إلى ما يُرضيك وتبقى قوةُ المريض وافرةً في العضو، فإنْ كان سوءُ المزاج في العضو الألِمِ وحده، فَعَدِّل مزاجَ العضو : إن كان حارّاً فبالبرد وإن كان بارداً فبالحر، واليابس بالرَّطب والرّطب باليابس كما قدّمت لك.

---

28) في ب : الهواء.

29) في ب : سوء.

فإن كانَ سببُه لحماً فاسداً أو عظماً فاسداً أو غليظاً في شفتي الجُرح فأزِل اللّحم الفاسدَ بالدواء الحادِّ أو بالقَطع على ما يتأتّى لك؛ وتحتال في إخراج العَظْم، فإن منعك مانع من عِرْقٍ ضارب أو أحد الأنهار الكبار أو عصب أو عَضَل أو وَتَر أو غير ذلك مما يُخاف منه ولم تَجِد حيلةً إليه فإيّاك أن يضيق لك فمُ الجرح، واحْمِلْ عليه الأدويةَ المُنْقِصة للّحم مُركَّبةً أو مفردة؛ فان كان فيمن لا يَحتمِل الأدويةَ الحادَّة مثل الصبيان والنِّساء [فعليك بحكٍّ ذلك اللّحم باللُّطف بما تَقْدر عليه من الآلة][30] وتجعل عليه من الأدوية المتوسِّطة في قوة الحِدَّة مثل **الكبريت**[31] بالسّمن **والزّرنيخ** المُصَعَّد **والنّحاس** المحروق **والزّنجار** مفردةً أو مجموعةً مع مثلها **أنْزَروت** تُبيِّتُها على الجرحِ ليلةً وتُنَقّيها من غدٍ في كل ما عَفن من اللحم، وتُعاود العملَ حتى يبدوَ لك العظمُ بقدر ما يدخل إليه ما يوافقك من الآلة، فان تأتّى للخروج وإلا فاحتل في جَرْدِه لاسيما إن كان ما فسد منه يسيراً فإن كان الفسادُ قد تمكن في العظم فاحْتَل بكلّ حيلة على إخراجه، والصانع الدَّرِب يَظهر به ما لا أقدر أن أصفه في كتاب، وإن لم يكن هنالك ما يَمْنعك من الأعضاء التي ذكرتُ لك فالأدوية الحادَّة تُخَلِّصك إن لم يكن بقربِ عضوٍ شريف.

فاحفظ - يا بُنيَّ - ما ذكرت لك، فالله يوفِّقك للصواب وقد ذَكَرتُ لك في هذه المَقالة ما تستعين به في عِلاج الجراحات - إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق، فاعلمه.

---

30) عبارات ساقطة في ب.

31) في ب : الكرنب.

ذكر الجرح إذا وقع في الرَّأْس

اعْلَم أنَّ جراحاتِ الرأسِ أنواعها عشرة، وهي :

- **الدّامية الصُّغرى**، وهو جُرح يَخْدش الجلدَ ويَخْرج منه ماءٌ أصفر مختلطٌ بحُمرة.

- ثم **الدامية الكُبرى**، وهو جُرح أكبر قليلاً من الذي قبله، ويَخْرُج منه دم صافٍ يجري.

- ثم **البَاقرة**، وهو جُرْح يَبْقر الجلد - أي يَخْرِقه - ولا يصل إلى اللَّحم.

- ثم **الباضعة**، وهو الجُرح الذي يَبْقر الجلدَ ويَبْضع في اللَّحم.

- ثم **المُلاحِمة**، وهو الجرح الذي يَقطع لكل جهة يميناً وشمالاً وخَلفاً وأماماً.

- ثم المَلْطاء[32] وهو الجُرح الذي يَقطع الجلد واللَّحمَ ويصل إلى المِمْحَاق - وهو الصِّفاق الذي بينَ اللحم والعظم.

- ثم **المُوَضِّحة**، وهو الجرح الذي أَوضَح العَظْم.

- ثم **الهاشمة**، وهوَ الجُرْح الذي هَشَّمَ العظم ولم يَقْطعه.

---

32) في ب : الملطى.

- ثم **المُنَقِّلة**، وهو الجرح الذي ينقل منه العظم أو العظمين أو أكثر من ذلك.

- ثم **المأمومة**، وهو الجرح الذي يَنْفُذ العظمَ ويظهر منه الصِّفاق الذي على الدِّماغ.

- ثم **النّافذة**، وهو الجرح الذي يَنْفُذ الصِّفاق ويخرج منه المخّ.

وعلاجُ الدامية الصُّغرى ـ إن كانت بمقْرَعٍ أو بحجر ولم تكن دامغةً ولا خِفْتَ معها حدوثَ وَرَم يكفي فيها أن تَدْهن بدُهن **الورد** ويُذَرَّ عليها ذَرورٌ من ورقِ **الآس** حتى تَبرأ. فإن كانت دامغة وظهر حولها ترضيضٌ فافْصد العليلَ وعالجْه بما ذكرنا في مقالة الأورام في علاج الوَرَم الحارّ الحادث عن ضربة.

وعلاج الدامية الكبرى أن يُذَرّ في الجرح ـ بعد تنقيته كما قدَّمت لك ـ ذَرورٌ من **اللُّبّان والمرّ والأَنزروت والشيّان**، يُسْحق الجميع ويُنْخَل ويُذَرُّ في الجرح أو يُعجّن بدهن **الورد** ويُلْقى عليه أو يُعالج بالمَرْهم النّخليّ حتى يبرأ.

وكذلك تفعل **بالباقرة والباضعة والمتلاحمة** يُذَرُّ عليها ـ بعد التَّنقية ـ الذَّرور المذكور ويُوضع عليها **المَرهم الأصفر**، فإذا تَساوى فيها اللَّحم أدْمِلْه **بالمَرهم النّخلي**. وإذا ذررتَ عليه الذَّرورَ فاحْشُ الجُرحَ بتَنْسيلٍ من ثوبِ كتّان خَلَقٍ وتُبْدله غُدوةً وعَشيّةً وتَمسحه مسحاً جيداً حتى لا يبقى في حواشيه شيءٌ من الوَضَر، وتَحْلِق الشعر وكلّما أراد أن يَنْبت أزَلْتَه، تفعل ذلك حتى يبرأ بعون الله تعالى، وكذلك تفعل **بالمِلْطاء**.

وعلاجُ الهاشمة أن تَغسلها بعُصارةِ **لسان الحَمَل** أو **بالخلّ** وتُجففِّها وتذرُّ فيها الذّرور - كما قدّمت لك - وتحشوها بالتّنسيل وتجعل عليها **المَرهم الأصفر**، ويكون بالُك إلى العظم ليَلاً يظهر فيه سواد، [فإن ظهر فيه شيء من السواد فبادرْ بجَرْده لِيَلاً يَفسِد العظم][33] فإذا امتلأ الجُرْح من اللَّحم فأدْمِلْه **بالمرهم النّخلي** - كما قدَّمت لك.

وعلاج المنَقِّلة أن تُنَظِّف الجرحَ بالتّنقية وتُخرِج ما انكسر من العظم متى رأيته صغيراً أو بالجِفْتِ، وإن كَان كبيراً فبما أمكنك من الآلات وتَجعل في قعر الجرح على العظم في موضع الشقّ فتيلةً ممدودةً من ثوبٍ حريرٍ لِتَشرَّب ما يجري إلى ناحية شقّ العظم من المِدَّةِ وتمنعها أن تدخل إلى الصِّفاق الذي على الدماغ فتعفِّنه.

وقد رأيت من جهَّال الأطباء المنتحلين لهذا الشأن مَن غفل عن هذا وكان سبباً لفناءِ صاحب الجرح، فأنت - يا بنيَّ - لا تغفل عن هذا أصلاً وعالجه كما قدَّمت لك.

وأما الجِراحات **النَّافذة** فلا علاجَ لها إلا الموت.

واعلَم أن العَظْم إذا انكسر وكان صغيراً فافعل فيه ما يتهيأُ لك، وإن كان كبيراً وارتفعَ لِجانب واحد فاسلخ ما كان عليه من اللّحم بحديدة قاطعةٍ برِفْق ولا تقطعه عن موضعه فإذا أخرجتَ العَظْم بَقي ما كان عليه من اللَّحم [والجِلْدِ في موضعه][34] وإن كان العظم كبيراً جداً ولم تَقْدر على أن تصل بالسلخ إلى آخر العَظم فاقطع ما كان عليه من اللَّحم وأخرج

33) عبارات ساقطة في ب.

34) عبارة ساقطة في ب.

العظم، من وإن كان الـذي انكشف من الـدِّمـاغ مـوضعـاً كبيراً فَغَطِّـه بخرقـةِ حريرٍ مفروشـةٍ عليـه وعلى الجـوانب من العظم لتَتَشَرَّب المِـدَّة وتَمنعها أن تـدخـل إلى الـدمـاغ ـ كما قـدَّمت لك ـ وإن لم تجـد خرقـةَ حريـر فـاجعـل القشـرةَ البيضـاء التي في داخـلِ شَقَفِ القَرْعـة ـ وهو الجـزء الرطب الـذي في الشّقَفِ من داخـل ـ تجعـل منـه على قَـدْر الموضع المنكشف من الدِّماغ فإنه يُجَفِّف ما يسري إليـه من المِدّة ويَمنعها عن الدخول إلى الـدمـاغ، وتُبَـدِّلها غُـدْوةً وعَشيـة، وإن خِفْت أن يقع على الرأس شيءٌ يُضِرُّ به فاربط من فوق الرِّفائد التي على الجرح شبه شاشية من شَقَفِ قرعةٍ وقايةً تمنع أن يَقع على الجرح من خارج ما يضره من ضَربـة أو غيرها.

وإن كان الجرح من وقعـةٍ أو ضربـةِ حجرٍ كَسَرَت العظمَ ودفعتـه إلى داخل ولم يُمكنك جذبُ العظم بالآلة فاجْرُدْ على موضِع الكسر كما يدور به بمِجْرَدٍ على مثل المِجْرد الذي تُجْرَد به المغـارف، وَيَكُون المِجْرَد صغيراً وتَجْرُد به يسيراً يسيراً حتى يَنْفذ العظمُ وتَتَمكَّن من إخراجه.

قـال **الـزَّهراوي** : يُثْقَب عليـه بمثقـابٍ على مثـل مثقـاب السَّرَّاج، وذلك يُخاف منه أن يدخل إلى الدماغ بمَرَّة فيَثْقبه.

وأنا قد أخرجته مراراً بالجَرْد بالرِّفق بالحديد القاطع وبلغت مرادي.

وممـا اتَّفق لي مـع ابن المُـزَيْن[35] ضَربـه عِلْـجٌ كان عنـده أسيراً فقـام بالليل وضربه بشاقور على شِقِّ رأسه الأيمن وهو نـائمٌ فرفع من العظم بطول

35) في ب : ابن الزبير.

أصبع وعَرْض أُصْبعين وبقي مسكوتـاً [أي مغمى عليـه] بطـولِ ثـلاثـة أيـام فدخلت عليه ونقّيت جُرحه، والعظمُ قد ارتفع إلى ناحية أعلى الرأس وظهر الـدِّمـاغ، فتركت العَظمَ في موضعـه ونقَّيت الجرحَ وجَعَلْت عليـه الخِرْقـة كما قدَّمت لك لتمنع المِدَّة عنه، ثم في اليوم الرَّابع رجع إلى ذهنـه وتكلّم في اليوم الخامس، ورأيت اللّحمَ قـد طلع في داخل الجرح، وفي اليوم السـادس أصبح الجرح واللحم قد طَلَع وغطّى الدمـاغ. [ورأيتُ صبيـاً بجرح في رأسـه وزال العظم وبقي المخّ يظهر فطلع المخّ فوق سطح الرأس فما قدر أحـد على رَدّه فرددته بقُرْصَة رصاص وضعتها على الصِّفاق فرجع بـإذن اللـه تعـالى][36] فلم يُحتج بعـدُ إلى تَغْطيتـه، وفي اليوم السَّـابع تَسـاوى اللّحمُ مـع سَطْـح الرأس فخِفْت عليه أن يتَفَقّع، وكنت قد رأيت نصرانيـةً ضُرِبت بسكّين وطـار من عظم رأسها [مقدارٌ] أكبر من الدينار ثم نبت فيه اللحم وطلع حتى صار على قدر أُتْرُنْجة كبيرة وماتت منه، فخِفْت أن يكون هذا اللّحم الذي نبت مثلَ ذلك فذَررت عليـه الشبَّ والعَصْف [والعفص] بعـد دَقِّـه ونَخْلِـه فـأصبح في اليوم التالي وقد نزل ذلـك اللحم وسـال مِنْـه مـاءٌ كثير، وقـد رأيتـه ثـانيـاً فهبـــط اللّحم إلى داخـــل الجرح وانتقَص، ثم سَلخت على العظم المكســور وأخرجته وعالجته بـالـذَّرور المَـذكور قَبْلُ **وبـالمرهم الأصفر** حتى تسـاوى اللحمُ في الجرح وأدْمَلْته **بالمرهم النّخلي** فَبَرِئ بحمد الله تعالى.

وإنما أعلمتك بهذه النَّازلة لِيَلاَّ يقع لك مثلُها فتَدْهِشَك، فإن وقع لـك مثل ما ذكرته فاعمل فيه كما تقدّم.

---

36) عبارات ساقطة في أ.

وإن رأيت في أحدِ جراحِ الرأسِ نَزَفَ دمٍ فانْظُر من أيِّ ناحية يَكُون خروجه، وشُدَّ بأصبعك على الجلد على بُعْدٍ يسيرٍ من الجرح موضعاً بعدَ موضع شدّاً جيداً، فإذا رأيت الدم يَسْكُن جريانُه ارفع أصبعك عن الشدّ فإذا رأيت الدم يَنْزف كما كان فأعِد الشدَّ على الموضع الذي كان أصبعك عليه وشدّه، فإن رأيت الدم يمتنع نَزفه ثانيةً فاعلم أن العرقَ من تلك النّاحية طريقُه، فاجعل في ذلك الموضع نصفَ **قِشْرةِ جَوْزة** وشُدَّها برباطٍ شدّاً جيداً واحْشُ الجرحَ **باللُّبَان والشِّيان قطر والعَفْص والجُلْنار والجير** غيرِ مَطْفِيّ، تَعْجن الجميعَ بعد الدقّ والتّنخيل ببياض البيض [وتَخلط الجميع به مع **وبر الأرنب** وتملأ به غَوْرَ الجرح وتَشُدّ عليه جَرَّة **كتّان** قد شَرَّبْتَها في بياض **البيض**][37] ولا تَحُلّه بطول ثلاثة أيام، فإذا حللته إن وجدت في الدواء رطوبةً فشدّه وافتقده [وتفقده]، وإن وجدت الدّواء قد جفَّ، فَرَطِّبْه **بالخلّ** حتى يَنْقلع ويزولَ وتعالجه على حَسب ما ذكرنا. فإن كان النَّزَف كثيراً ولم ينقطع بهذا التّدبير فاكْوِ على مِوضع النّزف وبعد الكيّ اجعل عليه الدواءَ كما تقدّم، فإن جَفَّ الدواءُ فاعلم أن الدّمَ قد انقطع، فافعل ما ذكرتُ لك من العلاج حتى يبرأ - إن شاء الله تعالى.

واعلم أن جميعَ الجِراحات ـ حيثما وقَعَتْ من الجسم ـ يحتاج صاحبُها إلى تَلْطيف الغِذاء في أول حُدوثها ليَقِلّ الدم في الجسم فَيأمن من حدوث الورم، فإن الطبيعة من عادتها أن تُرسل للعضو الضعيفِ من الغذاء أكثر مما تُرسل إليه في وقت صحّته ليَقْوَى به، والعضو لضعفه لا يَقدر على أن يُشْبه ما يصل إليه من الغِذاء حتى يَرُدَّهُ جزءَ عضوٍ فيجتمع ذلك الدمُ الذي يأتي

37) عبارات ساقطة في أ.

إلى العضوِ الضّعيف فَيُفَرِّقُ أجزاءَ الموضع ويَرْشح فيه فَيُورِمُه، ولذلك ينبغي أن يُلَطَّف التّدبيرُ في أول حدوث الجرح، فإذا أمِنْتَ من الورم بعد سابع أو أكثر غَذَّيته بالأغذية المولِّدة للكيموس الجَيِّد الشّبيه بمزاجِ العضوِ الصحّي ليَخْلُف بدلاً مما ذهب منه ويُسْرِع بُرْءه، وبخلاف ذلك يُبْطِئ البُرء ويَقع الفساد.

وقد رأيتُ من ضُرِبَ فِي شِقٍّ رأسه الأيسر ضربةً **مُنَقِّلَةً** فاحتبست له اليدُ اليمنى والساقُ اليمنى، وبَرِئ الجرح وبقي مُعَطّل اليدِ والساق باقي عمره.

الرباط محمد العربي الخطابي

العالم الموسوعي أبو زيد عبد الرحمن الفاسي
مع قائمة كاملة لمؤلفاته

محمد الفاسي

أولا : ترجمتـــه

كان لعائلة بني الجد الفهرية بالأندلس ثم بعـد انتقـالهم سنـة 980 هـ، إلى فاس دور كبير في نشر العلم بأصقاع الجزيرة والمغرب وذلـك منـذ نزول أول قادم منهم من جزيرة العرب لفتح الأندلس حيث نزل بمدينـة لبلـة في جنوب الجزيرة قرب البرتغال وهي المسماة إلى الآن نييبلـه Niebla ثم انتقل أحفادهم إلى قرطبة ومنها إلى اشبيلية وكان آخر مطافهم بـالأنـدلس مـدينـة مالقة وكان أشهر علمائهم في القرن الخامس الإمـام أبو بكر ابن الجـد الـذي بعثه علماء الأندلس إلى الفاتح يوسف بن تاشفين مستغثين بـه ضـد عـدوهم الملك الإسباني الاذفونش وقد اكتسح جل ممـالكم أيـام الطوائف فـاستجـاب لهم وعبر مضيق جبـل طـارق بجيـوشـه الجرارة وشن الغـارات على الإسبـان وتوَّجها بمعركة الزلاقة الحاسمة التي مكنت للإسلام السيطرة من جديـد على

الأندلس لمدة أربعة قرون حتى استفحل مرة أخرى أمرهم وضايقوا المسلمين إلى أن اضطروهم للتنازل عمّا بقى لهم من حكم في غرناطة في أواخر القرن التاسع الهجري عند ذلك قرر اثنان من أبناء عائلة بني الجد الهجرة إلى فاس وهما الاخوان أبو زيد عبد الرحمن وأبو العباس أحمد ابنا أبي بكر ابن الجد وتوفى أحمد دون عقب وخلف أخوه أبو زيد عبد الرحمن ابنه أبا الحجاج يوسف فربى في حجر أمه وتحت كفالتها فنشأ أحسن نشأة ولقى الشيخ الشهير أبا العباس أحمد زروق وأخذ عنه وعن أصحابه ثم انتقل إلى مدينة القصر الكبير في شمال المغرب وكانت أيام دولة الوطاسيين مركزا حضاريا هاما لأنها كانت باب المغرب في علاقاته مع أوربا وتزوج بها واستوطنها فأطلق عليه إسم الفاسي الذي بقيت عائلة بني الجد تعرف به إلى الآن وولد له بها ابنه أبو عبد الله محمد وهو والد شيخ المشايخ ورئيس الطريقة الشاذلية أبو المحاسن يوسف الفاسي وهو جد كل أفراد هذه العائلة وكان له شأن كبير في العلم والتصوف واشتهر في أيام السلطان السعدي مولاي عبد الملك بطل معركة وادي المخازن قرب القصر الكبير التي قضى فيها على ملك البرتغال دون سيباستيان وعلى جيشه بأكمله وكان عدد عساكره يفوق مائة ألف جندي فقتل أكثرهم بالسيف أو بالغرق في وادي المخازن عند هروبهم وأسر الباقي وقد أحضر أبو المحاسن يوسف خمسين ألف مجاهد من اتباعه للمشاركة في هذه الغزوة.

وبعد المعركة طلب منه الملك الذي بويع إذاك أن يرجع معه إلى فاس وهو المنصور الذهبي أخو الملك الذي توفي بعد مرض ألم به يوم المعركة وحيث مات دون سيبستيان غرقا والملك محمد الشيخ السعدي ابن أخي

مولاي عبد الملك الذي كان يتوق إلى الملك عرفت هذه المعركة عند المؤرخين الأوربيين بمعركة الملوك الثلاثة.

ونبغ بفاس من أبناء أبي المحاسن يوسف علماء أجلة كالحافظ الفاسي وأبي حامد العربي وأبي الحسن علي شيخ المقرئين في وقته كما برع أبناؤهم وأحفادهم في مختلف مناحي المعرفة حتى كان منهم في القرن الحادي عشر الهجري أربعون عالما بجامعة القرويين لكل واحد منهم كرسي في هذه الجامعة وأشهرهم وأكثرهم تلاميذ شيخ الإسلام أبو السعود عبد القادر بن علي ابن الشيخ الكبير أبي المحاسن المذكور آنفا، وعبارة شيخ الإسلام تطلق بالمغرب على من أخذ عنه أو عن تلامذته كل علماء وقته وقد توفي رضي الله عنه سنة 1091 هـ.

وأبو السعود هذا هو والد العالم الموسوعي الذي خصصت هذا البحث له وهو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي سيوطي زمانه كما لقبه به والده شيخ الإسلام وكما يعرف به في كتب المؤرخين المغاربة وذلك لكثرة تآليفه في كل العلوم والفنون المعروفة في زمنه وقد كنت كتبت بحثا عنها بالفرنسية منذ أربع وأربعين سنة في مجلة هسبريس[1] التي كانت ولا تزال تصدر بالرباط وهي الآن من منشورات كلية الآداب في جامعة محمد الخامس.

وأبو زيد عبد الرحمن الفاسي ترجم له كل من كتب عن علماء المغرب من المغاربة أو غيرهم. وقد ولد بفاس يوم 12 جماد الثانية سنة 1040 هـ

---

1) المجلد 29 سنة 1942 ص 65.

(24 يناير 1631م) قال السلطان العالم المولى سليمان المتوفى سنة 1237 هـ (1823م) في كتابه الذي خصه لتاريخ العائلة الفاسية إكراما لشيخه محمد بن عبد السلام الفاسي والذي سماه : عناية أولي لمجد بذكر آل الفاسي ابن الجد[2] : أبو زيد عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عبد القادر بن علي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف رضي الله عنه ولد بفاس عند زوال يوم الأحد سابع عشر جمادى الأخيرة سنة أربعين وألف وبها نشأ في حجر أبيه شيخ الإسلام عبد القادر وقرأ القرآن وحفظه وهو ابن سبع سنين بالموحدة وجود السبعة في أقرب مدة ثم أخذ في العلم على طريق المشاركة لا يفوته فن إلا تداركه فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب كأبيه عبد القادر بن علي وعمه الشيخ الحافظ أحمد بن علي وابن عم أبيه الشيخ الحافظ أبي القاسم محمد بن أحمد ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف والشيخ الحافظ حمدون الابار وقاضي الجماعة أحمد بن محمد الزموري وأبي عبد الله محمد بن محمد بوعنان الشريف والشيخ أبي الضياء محمد ميارة والشيخ الأستاذ أبي زيد عبد الرحمان ابن القاضي وقاضي الجماعة الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي القاسم ابن سودة المري وابن عم أبيه أيضا الشيخ أبي نصر عبد الوهاب بن أبي حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف والشيخ الحكيم أحمد بن محمد القلصادى والشيخ الحيسوبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الصباغ والشيخ الميقاتي أبي محمد عبد القادر بن على الطليطى الأندلسي واجازه من مشايخ المشرق جماعة كالشيخين الأخوين زين الدين الطبري الحسيني وأبي الحسن علي والشيخ عيسى التعالبي والشيخ ياسين بن غرس الدين والشيخ ابراهيم الخياري والشيخ عمر بن عبد القادر المشرقي والشيخ خير الدين الحنفي والشيخ ابراهيم الميموني والشيخ محمد بن علاء الدين التابلي ولقي جماعة من الأولياء

من أشياخ أبيه وغيرهم فتبرك بهم وانتفع عنهم وخدم أباه شيخ الإسلام عبد القادر وانتفع بخدمته وظهرت آثار عنايته به على غرته. فاتسعت مشاركته في العلوم وشاعت براعته في المنثور والمنظوم. مع الحفظ العظيم «والدوق السليم والفتح العميم، والغوص على الدقائق، والإهتداء للطائف الرقائق، يأتي بعجائب، ويحيط بما يدنيه من الغرائب، كثير التقييد، متبع لكل مفيد، مغرب مكثار، شامخ العز والمقدار، قد فاق أهل عصره بحسن خلقه وتواضعه وانصافه، كان متجلدا في الحق، لا يخفي شيئا مما أطلع عليه ولو خالفه جميع الخلق، لا يحابى مريبا ولو كان قريبا، وانفرد بحفظ الغرائب وتتبع العجائب، واتسعت عارضته في الإطلاع، والرسوخ في ملكة العلم وقوة الباع أتى في كتابه الاقنوم، بنحو مائة وخمسين علما وأزيد، واستوفى حدودها بأوجز عبارة وافيدها، ولم يكن له مشارك في العلوم الفلسفية، وما في معناها من سائر المنقولات الكيفية، لو أدركه أفلاطون الحكيم، لاقتفى أثره في طريق التعليم، وكم ألف من كتاب، تحار في أمره الألباب، كهذا الأقنوم».

وقد ذكر له عناوين عدة من مؤلفاته، أما كتاب الأقنوم المشار إليه في نص السلطان المولى سليمان فاسمه الكامل الاقنوم في مناهج العلوم ويقال في بعض النسخ «في مبادئ العلوم وهو موسوعة فريدة وهي منظومة في جزأين لا زالت لم تطبع وتوجد في عدة خزانات وعندي منها نسخة متقنة وتحتوي على 281 علم وقد اختلف المؤلفون في عدد هذه العلوم ونسب الشيخ ابن جعفر الكتاني في كتابه سلوة الأنفاس في من أقبر من العلماء والصلحاء بفاس سبب هذا الاختلاف يرجع لتنوع النسخ المخطوطة حيث يكتفي أحيانا ببعض الفصول ولاكن النسخة الكاملة تضم العدد المذكور

أعلاه ويظهر لي أن هناك سببا آخر لهذا الاختلاف وهو أن من المؤلفين الذين نصوا على عدد هذه العلوم لم تكن لهم طريقة واحدة في ذلك فمنهم من اعتبر مثلا علم البلاغة علما واحدا ومنهم من اعتبره ثلاثة علوم تضم البيان والمعاني والبديع ومنهم من اعتبر علم العربية علما واحدا أو منهم من اعتبره ثلاثة علوم تضم النحو والصرف والجمل وهكذا، ثم إن المؤلف لم يتم كتابه حيث اكتفى بذكر اثنين وثلاثين علما ببيت واحد يتضمن إسم ذلك العلم وتعريفه موجزا.

القائمة التامة لمؤلفات الموسوعي الكبير
أبي زيد عبد الرحمان الفاسي

ثانيا : تآليفه

أما مؤلفاته فتوجد عدة نسخ منها في أغلب خزانات المغرب وعند بعض المهتمين بجمع المخطوطات في أوربا توجد مجموعات من المخطوطات تحوي على مؤلفات أو رسائل من إنتاج أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي.

وهناك مراجع مغربية كثيرة أعطت قائمة مستفيضة لمؤلفاته وهكذا فقد ذكر منها ما يقارب الخسين أبو قاسم العميري في تعليقه على العمل

الفاسي كما أن السلطان مولاي سليمان في كتابه المذكور آنفا سرد له ستة عشر مؤلفا كما ذكر له العلامة عبد الكبير الفاسي في القرن الماضي في كتابه «تذكرة المحسنين» عددا من مؤلفات أبي زيد يفوق 175.

ويبدو لأول وهلة أن هذا العدد مبالغ فيه إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن الكثير من إنتاجه هو عبارة عن منظومات تعليمية أبدع فيها لما كانت له من موهبة في النظم في بحر الرجاز. وقد أسعدنا الحظ بالعثور في محتوى كتاب تعرض لحياة عبد الرحمان الفاسي على قائمة تامة لمؤلفاته وقد تحققنا من صحة ما ذكر عبد الكبير ووقفنا على 176 عنوان مميز للمؤلفات التي أنجزها هذا الموسوعي المغربي الكبير.

وننشر إثره هذه القائمة، وقد أخذناها من كتاب اللؤلؤ والمرجان في مناقب الشيخ عبد الرحمان، ومن إنجاز ابنه العلامة أبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمان الفاسي. (خير وارث لعبقرية أبيه) وله كذلك الفهرسة المسماة بالمنح البدية ويحتوي كتاب اللؤلؤ والمرجان على عدة مجلدات ولم يبق منها اليوم إلا المجلد الخامس الذي يحتوي على ديوان أبي زيد مع القائمة المذكورة.

تآليف أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي كما ذكرها ابنه أبو عبد الله في كتابه اللؤللؤ والمرجان.

1 - كنز السعادة في الصلاة على سيد السادة.

2 - ابتهاج الأرواح بنظم الاقتراح.

يتعلق الأمر بكتاب «الاقتراح» للسيوطي حول مبادئ النحو.

3 ـ الغرر في الجمل «وهي قصيدة».

إنها القصيدة التي وضعها ذيلا لـ «خريدة الجمل» لعم أبيه سيدي العربي الفاسي.

4 ـ قصائد عديدة (كان في كل ربيع يمدحه عليه السلام.

5 ـ شرح الطالع المشرق في المنطق.

مؤلف الكتاب المشروح هو أبو حامد الفاسي.

6 ـ المونق في المنطق.

العنوان الكامل هو : مونق اللبيب في المنطق الموضوع في التهذيب.

7 ـ شرحه

إنها أرجوزة نظمها أبو زيد سنة 1073 هـ. 1662م. أملك نسخة بخطه وشرحه.

8 ـ الملحق لمبادئ المنطق.

9 ـ الباهر في اختلاف الاشباه والنظائر.

جاء في «العناية» ص 44. اختصار بدل اختلاف.

10 ـ الغاية في علم السيارة.

11 ـ اختصارها.

12 ـ اللمعة في قراءة السبعة.

13 ـ التحصيل.

14 ـ القطف الداني في البيان والمعاني.

15 ـ شرحه.

16 ـ طالعة الغرى في نظم الصغرى.

17 ـ المحكمة في نظم المقدمة.

يتعلق الأمر بدون شك بمدخل «العقيدة الصغرى للسنوسي».

18 ـ الوصول لعلم الأصول.

19 ـ القطف المدلول في علم الأصول.

20 ـ شرحه.

21 ـ الأحكام في علم الكلام.

22 ـ المستفاد في علم الاعتقاد.

العنوان الكامل «هو» مستفاد السول في أصل الاعتقاد من المعقول «وهي منظومة تعليمية ألفها سنة 1070 هـ. 1659م (أملك نسخة بخطه وشرحه).

23 ـ شرحه.

24 ـ مستنهج الاعلام في مباحث الكلام.

25 ـ شرحه.

26 ـ منحة المسكين في أصول الدين.

27 ـ استطابة التحديث في مصطلح الحديث أنها أرجوزة.

28 ـ مسالك الخبير في مصطلح التفسير.

29 ـ الرقم في علم الرسم.

30 ـ بغية التحرير في رسم ابن كثير.

31 ـ الفائض في صنعة الفرائض.

يسميها العميري «اللج الفائض».

32 ـ الرائض في علم الجدل.

33 ـ الدر المختار في حساب الغبار.

34 ـ الحلل في علم الجدل.

حسب المخطوط بخطه وشرحه أنجز هذا العمل مباشرة بعد مؤلفه رقم 22 وفي السنة نفسها. (أملك نسخة منه).

35 ـ شرحه.

36 ـ الفتح الكافي في العروض والقوافي.

37 ـ الشماريخ في علم التاريخ.

من المرجح أنه : «زهر الشماريخ في علم التاريخ» يوجد ضمن مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، فهرس ليقي بروفنسال رقم 494، (القائمة 56) ورقم 537 (القائمة 487)، أنظر الشرفاء السابق الذكر وتوجد بالخزانة الحسنية نسخة منه تحت رقم 844 (مجموع).

38 ـ الاقتباس من القرطاس.

39 ـ كتاب في الوفيات.

40 ـ نظم وفيات النحاة.

41 ـ نهبة المسترق من علم المنطق.

42 ـ قلائد العسجد في علم العدد.

43 ـ كتاب في فرائض الدين.

44 ـ العقائد والاذكار.

45 ـ شرح عقيدة والده شيخ الإسلام أبي السعود الفاسي يوجد مخطوط لهذا المؤلف في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 496 والقائمة 13) وقد نسبت العقيدة المشروحة الواردة في المخطوط خطأ إلى السنوسي.

46 ـ شرح نظم الزكاة.

صاحب المؤلف المشروح هو سيدي العربي الفاسي.

47 ـ العجب في علم الأدب.

48 ـ معارضة قصيدة أبي شق (كذا).

49 ـ تمهيد السلاسة في علم السياسة.

أرجوزة من 92 بيتا، توجد نسخة منها في خزانة قاضي مدينة برشيد.

50 ـ دفع الخساسة عن ذوي السياسة.

51 ـ توطئة الشراسة في علم الفراسة.

أرجوزة من 106 بيت، جاءت مع سابقتها في علم النفس.

52 ـ تبيين الجمل في علم الجدول.

نفس الكتاب موجود بالخزانة العامة بالرباط، فهرس 540 (القائمة 505) تحت عنوان «تبيين معنى الجمل في علم الجدول.

53 ـ مطالع الضيا في علم السيميا.

54 ـ القطوف في إشراق الحروف.

جعل العميري أسرار عوض إشراق.

55 ـ السلاح المدسية في العلوم الهندسية.

سماه العميري «النتائج الحدسية».

56 ـ تحفة الاثير في علم التكسير.

57 ـ شرحها.

58 ـ عروس الصباحة في علم المساحة.

59 ـ النرجسة في الهندسة.

60 ـ مختصر اقليدس.

61 ـ نظم رسالة الصفا (كذا) في الاسطرلاب.

لاشك أنه يعني ابن الصفار الفلكي المعروف عوض الصفا، أنظر : زيادات. ص. 171.

62 ـ كشف الحجاب في علم الاسطرلاب.

63 ـ الجوهر المنظوم في المحتاج إليه من علم النجوم منظومة تعليمية من 264 بيت وتوجد بخزانة برلين منظومة في نفس الموضوع وبعنوان متشابه (فهرس هالقرت رقم 5887) تحت عنوان الديباج المرقوم في أصول النجوم» أنظر زيادات. ص. 182 رقم 541 فقرة 8.

64 ـ الكامل في الاستغناء عن الجداول.

65 ـ المطلب في الربع المجيَّب منه نسخة في الخزانة الحسنية. 6665 (مجموع).

66 ـ الغرة في بيت الإبرة.

أنظر إجازة. ص 220 رقم 13، زيادات ـ فقرة 6 ومنها أربع نسخ في الخزانة الحسنية أرقامها على التوالي 6662 (مجموع) ثم 6678 (مجموع) ثم 4908 ثم 5889 (مجموع).

67 ـ غريبة الأسلوب في الحساب بربع الجيوب.

68 ـ عقد الجوهر في الربع المقنطر.

موجود في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 457، 6 مكرر (لم يرد بالفهرس)،وفي برلين تحت رقم 5867، أنظر زيادات فقرة 5.

69 ـ مقرب البيوت في رفع السموت.

70 ـ الروض الموهوم في الطب بالنجوم.

71 ـ النبل في خط الرمل.

72 ـ عذبة الوالد في نصبة الموالد.

73 ـ المشارع الرحبة في أحكام النصبة.

74 ـ تهذيب المقاصد في الطب من نصبة الموالد.

75 ـ غنيمة المحتاج في ساعة العلاج.

76 ـ نظم الملاحن في الأشربة والمعاجن.

77 ـ نظم في أعمال (بياض قدر كلمة).

78 ـ التمليح في التشريح.

79 ـ شرحه.

80 ـ الرقمة في علم الحكمة.

81 ـ الشمعة في اتقان الصنعة.

82 ـ الروضة الغنا في أسماء الله الحسنى.

83 ـ تأليف في الرد على منكر علم النجوم.

84 ـ عقد المرجان في خواص القرآن.

85 ـ المناهج في استنطاق الزيارج.

86 ـ نظم في الطبيعة.

87 ـ نظم في معارضة السفسطائية.

88 ـ التحرير في علم التفسير.

89 ـ النخبة في التعبير بالنصبة.

90 ـ البنيان المنصوص في العلم المخصوص.

91 ـ اللؤلؤ المنثور في العلم المشهور.

92 ـ تحفة الشريس في العلم النفيس.

93 ـ انتهاب الفجأة في علم الهيئة.

94 ـ المشكلات في علم الميقات.

«المشكاة في علم ما يحتاج من الأوقات» هكذا جاء اسمه في فصل فهرس مخطوطات زاوية سيدي حمزة الذي نشره الدكتور رونو بمجلة هسبريس 1934». ص 91.

95 ـ الفرائد المنتقات في علم الأوقات.

96 ـ برقات المعاني في أوقات الأيام والليالي.

97 ـ الاصطلام في علاج العرض الهام.

98 ـ نظم جمع الجوامع لابن السبكي.

99 ـ نظم الحكم لمولانا الجد سيدي يوسف.

100 ـ الموفق لعلم المنطق.

101 ـ رسالة الصفيحة الزرقالية.

102 ـ الطلعة الشمسية في العلوم السنبسية (كذا).

103 ـ البحر المسجور في الخط المجرور.

104 ـ المتحف في علم الكتف.

أرجوزة من 86 بيتا، هناك نسخة منها في المجموعة الموجودة بخزانة قاضي برشيد كما سبق ذكره. كما توجد نسخة منها في الخزانة الحسنية تحت رقم 10396 باسم محرف هكذا : (المحتف المنوال ؟).

105 ـ المسالك المبلغة إلى أصول علم اللغة.

106 ـ الاتحاف في اختصار الارداف.

107 ـ الاعجاب في تسريح المنكاب.

108 - الإشارة في الشطارة.

أرجوزة من 72 بيتا، موجودة في نفس المجموعة.

109 - سلك الدرر في سير السفر.

110 - نظم في الفلاحة.

111 - المهيع في شرح إصلاح أبي مقرع.

112 - الاقنوم في مداخل العلوم.

113 - نظم الأقنوم في مناهج العلوم.

موجودة في الخزانة العامة بالرباط، فهرس رقم 284 (القائمة 90) وهي منظومة تعليمية من 281 جزء (أنظر إجازة رقم 6، الشرفاء). جعل بروكلمان نجم عوض مبادئ... أرجوزة من 281 بيت (كذا) وهذا خطأ. ومنها سبع نسخ بالخزانة الحسنية تحت هذه الأرقام 6585 و10950 و2323 و485 و1802 و11480 و9915.

114 - الانتخاب في وضع الاسطرلاب.

أرجوزة من 115 بيت في الموضوع، تحت عنوان «نخبة الطلاب في عمل الاسترلاب» موجودة في الخزانة العامة بالرباط فهرس رقم 450. القائمة 208، 3 مكرر، صحح زيادات، فقرة 2. ومنها أيضا ثلاث نسخ بالخزانة الحسنية أرقامها بالتوالي 7106 (مجموع) و1009 (مجموع) و6678.

115 - الحلة السندسية في العلوم الهندسية.

116 - جزء في عمل الحساب على مد (كذا) المعهود.

117 - جزء في عمل الجدول على غير المعروف.

118 - الدر المنثور في عمل الفرائض بالكسور.

119 ـ تأليف في صناعة الشعر.

120 ـ الجرومية في التغزل.

121 ـ اختصار السلم في المنطق.

122 ـ اختصار أرجوزة ابن سينا في الطب.

123 ـ الزراجة في علم الزيراجة.

124 ـ تلقيح الفكر بتصحيح الذكر.

125 ـ تلقيح الأرواح في أسرار النكاح.

126 ـ توجير المسهوم من أداب النجوم.

127 ـ الاستعداد في أفعال العباد.

العنوان الكامل هو : «الاستعداد لسلوك السداد في المسألة الواردة من طيبة خير البلاد في خلق أفعال العباد» وخطأ أشار كارل بركلمان إلى أن رقم 95 من فهرس الخزانة العامة بالرباط هو مطابق لهذا المؤلف، ويتعلق الأمر ببهج القصيد.

128 ـ شرح البردة بالخرج لم يكمل.

129 ـ شرح تحفة ابن عاصم.

130 ـ أخر بالنظم لم يكمل.

131 ـ الكنز السابك على ألفية ابن مالك.

132 ـ شرح آخر عليها بالنظم.

133 ـ شرح جواهر العضد.

134 ـ شرح على خطبة السنوسي على الصغرى.

135 ـ شرح خطبة مختصر السعد.

136 ـ شرح منظومة سيدي محمد بن سعيد في الجدول.

137 ـ حاشية على الكبرى.

138 ـ حاشية على خليل إلى الفوائت.

139 ـ حاشية على الجلالين إلى سورة الأحزاب.

140 ـ حاشية على مسلم.

141 ـ حاشية على الموطأ.

142 ـ حاشية على الشمائل.

143 ـ حاشية على البوخاري. ومنه نسخة بخزانة الزاوية الناصرية بتامكَروت.

144 ـ حاشية على التنوير لابن عطاء الله.

145 ـ حاشية على الاكتفاء للكلاعي لم تكمل.

146 ـ شرح المراصد لعم أبيه سيدي العربي.

أنظر إجازة رقم 146 ـ العنوان الكامل لهذا المؤلف المشروح هو : «مراشد المعتمد في مقاصد المعتقد» وعنوان الشرح هو : «بهج القصيد بشرح المراصد» وهذا الأخير موجود في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 95 (القائمة 475).

147 ـ شرح على جمل المجراد.

148 ـ تأليف في العقائد.

149 ـ تأليف في المسلسلات.

150 ـ فهاريس أسانيده.

151 ـ تأليف في تحريم طابة.

152 ـ مفتاح الشفا.
أنظر إجازة (رقم 1 السابق ذكره) هو من أحد كتب المؤلف الأكثر أهمية. توجد نسخة منه بخزانة سيدي عبد الله الفاسي، الوزير السابق بفاس.

153 ـ في الصلاة على حياة الأرواح.

154 ـ مفتاح الرحمة في الصلاة على سيد الأمة.

155 ـ ابتهاج القلوب في مناقب الشيخ أبي المحاسن وشيخه سيدي عبد الرحمان المجدوب أنظر إجازة رقم 9. موجودة في الخزانة العامة بالرباط فهرس 522 (القائمة 510). وتوجد منه ست نسخ تحمل الأرقام التالية 2627 ـ 6145 ـ 1222 ـ 1449 3582 ـ 3306.

156 ـ أزهار البستان في مناقب الشيخ عبد الرحمان (يعني العارف) أنظر إجازة 7 و8، (أملك نسخة مخطوطة له) وبالخزانة الحسنية نسخة تحت رقم 583. وتوجد كذلك نسخة منه بالخزانة الفاسية.

157 ـ تأليف في فضائل سيدي محمد بن عبد الله لعله هو الذي أشار إليه في أول كتابه تحفة الأكابر حيث سماه : عوارف المنة في ترجمة سيدي محمد عبد الله محي السنة. أملك نسخة منه. كما توجد نسخة منه بالخزانة العامة.

158 ـ تحفة الأكابر في أخبار الشيخ عبد القادر.
أنظر إجازة 7 و8، (أملك نسخة مخطوطة منه. وبالخزانة الحسنية نسختان الأولى تحت رقم 707 والثانية تحت رقم 643.

159 ـ قصيدة في كرامات أبي المحاسن.

160 ـ قصيدة بائية في صلحاء أهل فاس عارض بها سينية ابن بادس في أهل بغداد.

161 ـ نظم في علم الوثائق.

162 ـ نظم ما جرى به العمل في فاس.

غالبا ما يسمى : «العمل الفاسي» أو «العمليات الفاسية» أنظر إجازة رقم 15 (الشرفاء السابق ذكره) طبعة حجرية بفاس سنة 1310 هـ. 93 ـ 1892م. وانظر ابن شنب وليقي بروفانصال، المجلة الافريقية 1921 فقرة 78 وما يتبعها، فقرة 356 وقد أصدره الدكتور «لوبينياك» في مجموعاته (هسبريس عدد 26 سنة 1939) دراسة مع ترجمة للفصل المتعلق بالشفعة.

163 ـ شرحه.

164 ـ شرح المرجاني في المخمس الخالي الوسط.

165 ـ نظم في الدعاء على الظالم بأهل بدر.

166 ـ نظم أخر في أهل بدر في التوسل بهم في سعة الرزق.

167 ـ نظم الطائفة الجزولية والزروقية.

168 ـ نظم سينية ابن بادس.

169 ـ نظم في التوسل بالصالحين المتقدمين والتأخرين.

170 ـ نظم رجال الحلية.

171 ـ نظم في التوسل بالمحدثين.

172 ـ قصائد كثيرة ومقطعات في أمداح نبوية وغيرها.

173 ـ شرح الجمهرة لابن حزم.

174 ـ تحفة البصائر.

175 ـ الاغتباط بشرح الانبساط.

موجودة في الخزانة العامة بالرباط، فهرس 478 (القائمة 491) العنوان الكامل هو «الاغتباط بشرح نزهة الاستنباط» لعبد المومن بن عبد الله الهرغاوي. وتوجد منها نسخة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5819 ونزهة الاستنباط عنده منسوبة للمرجاني.

176 ـ تأليف في بيوتات أهل فاس.

أبيد، فهرس 5/3 (القائمة 269) تحت عنوان «ذكر بعض مشاهر فاس في القديم». وتوجد نسخة منه في الخزانة الحسنية تحت رقم 7248 (مجموع) وهو بعنوان «ذكر بعض مشاهر فاس في القديم». وتوجد منه نسخة أيضا في الخزانة الأحمدية (السودية) بفاس وعندي نسخة منه.

177 ـ أنيسة المساكين في أبناء أبي المحاسن.

هي من مراجع الصفوة، أنظر ص 222 والشرفاء السابق ذكره.

178 ـ بستان الازاهر في أخبار الشيخ عبد القادر.

179 ـ ابتهاج البصائر في من قرأ على الشيخ عبد القادر.

180 ـ غاية الوطر في علم السير.

أرجوزة من 1000 بيت، جاءت في «العناية». ص 44 كما ذكرها العميري.

181 ـ استنزال السكينة في تحديث أهل المدينة هي إجازة ذكرها الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس فاس 1346 ـ 1927/47، 133/2/2. وتوجد نسخة منه بالخزانة الفاسية وذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب أنه توجد منه عدة نسخ بخزائن فاس.

182 ـ اللمحة في تاريخ دولة الشرفاء بالمغرب.

أنظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى. ص 170 عدد 431.

183 ـ الاغراق في بحر الأوفاق.

أبيد، فهرس 540 (القائمة 505) ذكره العميري.

184 ـ المطلب الاكيد فيما يتعلق بقصيدة الشيخ ابن سعيد أبيد، فهرس 52 (القائمة 138).

185 ـ وافية المطلوب في ربع الجيوب.

أنظر إجازة رقم 4 ـ زيادات فقرة 4.

186 ـ رجز في الطب.

أنظر إجازة رقم 5 (بدون عنوان) «يبدو أن الأمر يتعلق بالأرجوزة ذات 92 بيتا في الداء الفرنجي وكيفية علاجه التي ترجمها ونشرها الدكتور رونو وكولان في وثائقهما المغربية للتمهيد لقصة «الداء للفرنجي»، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية مجلد 27 باريس لاروز 1935.

187 ـ التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتسيير.

أنظر إجازة رقم 10، وقد جاء ابن شنب بترجمة لها تحت عنوان «المغارسة» الجزائر 1895. ومنه نسخة بخزانة الزاوية الناصرية بتامكروت تحت رقم 1868 منسوبة لعبد الرحمان بن عبد القادر المجاجي.

188 ـ رسالة في أعمار العقاقير.

موجودة بخزانة خاصة بالرباط، أرجوزة من 28 بيتا.

189 ـ نظم مختصر في أصول الفقه.

نظمت سنة 1069 هـ 1659م (أملك نسخة بخطه وشرحه).

190 ـ شرحه.

191 ـ أرجوزة في أصول الفقه.

أرجوزة من 53 بيتا نظمت سنة 1063 هـ. 1653م وصاحبها آنذاك يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، (أملك نسخة بخط يده).

192 ـ لقط الدرر في بسط الغرر.

ذكرها العميري بعد مؤلفه «الغرر» (رقم 3 من القائمة الواردة هنا).

193 ـ ذات الحلل في نظم الجمل.

وردت كذلك في لائحة العميري.

194 ـ القواعد الفقهية.

ذكر لي سيدي عبد الحافظ الفاسي، قاضي سيدي بنور أن لديه نسخة من هذا المؤلف والجدير بالذكر أنه لم يشر إلى هذا المؤلف أي كاتب.

195 ـ تقييد في الموازين والموزون وتحقيقهما موجودة في الخزانة العامة بالرباط، فهرس 508 (القائمة 194).

196 ـ الجموع في علم الموسيقى والطبوع.

أنظر إجازة رقم 14 وتاريخ الأدب العربي برلين : رقم 5521 نشر «فارمر» منه طرفا في مجموعة الكتاب الشرقيين عن الموسيقى وترجمه إلى الإنكليزية في الكتاب نفسه، وتوجد منه كذلك نسختان بخزانة الأزهر تحت الأرقام (1) 18879 أ ـ (13) أباظه 7208.

197 - تقييد في حوادث المائة الثانية عشرة (ذكره في نشر المثاني ج 2. ص 92) قائلا : «وما نقلناه في بعض الحوادث ممن لم نعرفه ولم نعثر عليه فهو من تقييده من أول الكتاب إلى هذا المحل».

198 - ذيل على ذيل نظم الوفيات لابن القنفذ للمكلاتي الذي ذيل على نظم أبي عبد الله الفشتالي (كما ذكره القادري في النشر - وهذا الذيل عند سيدي العابد الفاسي كما ذكر لي).

199 - شرح لخريدة الجمل لعم أبيه سيدي العربي (ومنه نسخة بخط سيدي عبد الملك بن أحمد ابن عبد الملك الفاسي عند ابن عمنا سيدي علال الفاسي).

200 - تفسير الأعشاب.

وقد ذكره العلمي صاحب ضياء النبراس مرارا ونقل عنه عدة تحقيقات في أسامي النباتات. وهو في الغالب يقول : «قال سيدي عبد الرحمن الفاسي وأحيانا قال صاحب تفسير الأعشاب». وفي مادة مازريون (ص.100) أورد النقل عنه هكذا : «قاله سيدي عبد الرحمن الفاسي في تفسير الأعشاب له».

201 - المرقوم.

وهو منظومة رجزية في الأحكام النجومية على مذهب أبي معشر حسب مذهب أهل السنة توجد منها نسخة في الخزانة الملكية مسجلة تحت عدد 5573.

202 - رجز في بيت الابرة بالخزانة الحسنية نسختان منه - الأولى تحمل رقم 3964 والثانية 1638 (مجموع).

203 ـ مسالك الاخبار في علم وقت الليل والنهار 6441 (مجموع) ولعل المذكورة قبله تحت رقم 96.

204 ـ أرجوزة في التوقيت 6678 (مجموع) توجد منها نسخة في الخزانة الحسنية.

205 ـ أرجوزة في العمل بالربع المجيب توجد في الخزانة الحسنية نسخة منها تحت رقم 7416.

206 ـ تقييد في أخبار دولة الشرفاء السعديين، منه نسخة بالخزانة الأحمدية (السودية) بفاس.

207 ـ ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجدوب ـ ذكره المؤرخ عبد السلام ابن سودة في كتابه دليل مؤرخ المغرب الأقصى رقم 662 من الطبعة الثانية وقال (ويشتمل على سبعة أبواب وفيه من دقائق التاريخ المغربي مالا يوجد في الابتهاج المتعارف) يعني الابتهاج المذكور في هذه القائمة تحت رقم 155.

ثالثا : مراجع البحث

أ ـ مؤلفات عربية

ونكتفي هنا بذكر المصادر الكلاسيكية المتمثلة في المطبوعات الحجرية بفاس في بداية هذا القرن.

1) محمد العلمي ـ الانيس المطرب ـ 1315 هجرية، ص 13.

2) الافراني «صفوة من انتشر» ـ دون تاريخ ـ ص 201.

3) محمد بن جعفر الكتاني «سلوة الأنفاس». عام 1316 هـ ج 1 ص 131.

4) محمد القادري ـ نشر المثاني، 1315 هجرية جزء 2 ص 88.

ب ـ مؤلفات أوروبية

1) محمد بن أبي شنب ـ دراسة حول الشخصيات الوارد ذكرها في إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي ـ فصول من مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر ـ باريس لورو 1907 ص 220. فقرة 3 حيث ذكر خمسة وعشرين مؤلفا. ونشير إلى هذا المرجع بلفضه إجازة.

2) ليڤي بروڤانصال. مؤرخو الشرفاء، باريس لاروز 1922 ص 264 وما يليها. ونشير إليه بلفضه الشرفاء.

3) كارل بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي.
ليدن بريل 1938 جزء 2 ص 694 وما يليها حيث تمت الإشارة إلى ثمانية وعشرين مؤلفا (ولم ينشر في الطبعة الأولى إلا ثمانية جزء 2. ص 460 ـ 463) ونشير إليه باسم بروكلمان.

فيما يتعلق بالمؤلفات ذات الصبغة العلمية هـ ـ ب ـ ج ـ رونو زيادات وتصحيحات على كتاب شوتر ـ علماء الفلك والرياضيات العرب. نشر بالمجلة الدولية لتاريخ العلوم : رقم 52 (مجلد 18، 1 ـ 1932 ص 182 رقم 541 ونشير إليه بلفضة زيادات.

ونوردها هنا كما جاءت في المجموعة المذكورة مع وضعنا لأرقام متسلسلة وتنتهي هذه القائمة عند عدد 176، أما الاعداد الواحد والثلاثون الأخيرة فهي للمؤلفات التي أضفناها.

هذا وقد أبقينا تحليات العلماء المذكورين على ما كانت عليه مدة وضع هذا البحث بالفرنسية المنشور في هيسبريس.

وأملنا أن يساهم هذا العمل على مساعدة البحث في الإنتاج المغربي العلمي والأدبي.

وفي الأخير فإنني أعقد الأمل على أن يقوم الاختصاصيون في المواد التي تعرضت لها مؤلفات عبد الرحمان الفاسي كل بدراسة في اختصاصه مع إبداء آرائهم في قيمتها وإضافة ما يرونه مناسبا إن اقتضت الضرورة. وعمل مثل هذا يعتبر أحسن مظهر للمعلومات المغربية في القرن السابع عشر.

الرباط : **محمد الفاسي**

تحقيقات لغوية:

في ضبط "ابن سيدة"

د. عبد العلي الودغيري

يعرف الناس لغويا أندلسيا مشهورا هو علي بن إسماعيل - وقيل علي ابن أحمد - المرسي المعروف بابن سيدة (ت 458 هـ)، صاحب (المخصص) و(المحكم) في اللغة، وقد تعرضت له في جملة من أبحاثي ودراساتي فوجدت قوما يعيبون علي أن أكتب لفظ (سيدة) الذي لقب به أحد أجداده بالتاء المربوطة، ويقولون : الصواب أن يكتب بالهاء الساكنة في جميع الأحوال. ولكنهم لم يقدموا على دعواهم حجة ولا دليلاً يتمسك بها سوى القول إن جل مترجمي هذا اللغوي ودارسيه يكتبون (سيدة) بالهاء الساكنة هكذا : (سِيدَهْ)، فوجب اتباعهم.

وعندي أن هذا الأمر لا يقتضي التقليد والاتباع، وإنما يجب أن يبحث فيه عن وجه الصواب، ووجه الصواب هو أن يكتب (سيدة) بالتاء لا بالهاء، والحجة على ذلك ما يلي :

أولا : لأن التاء في (سيدة) هي تاء تأنيث، فالسيدة أنثى السيد، والسيد هو الذئب، وقد يطلق على الأسد، وبه سمي جد اللغوي الأندلسي المشهور أيضا وهو أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (ت 521 هـ). وهذا المعنى منصوص عليه في سائر القواميس العربية، ثم زاده الدميري في (حياة الحيوان الكبرى) وضوحا وتأكيدا حين ترجم لكل من ابن السيد وابن سيدة في حرف السين، فقال : «...السيد (...) من أسماء الذئب وبه سمي جد أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي اللغوي...». وقال : «..السيدة : بكسر السين والدال المهملتين (...) : الذئبة، وإليها ينسب الإمام العلامة الحافظ النحوي اللغوي المحقق أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي...»».

ومتى علم أن لفظ (سيدة) هو لفظ عربي مختوم بتاء التأنيث لم يكن ثمة وجه لكتابة هذه التاء هاء ساكنة، نعم يجب حين الوقوف عليه في مواضع الوقف المعروفة، أن تتحول هذه التاء إلى هاء ساكنة في النطق وحده لا في الرسم والكتابة، أما في غير الوقف فتظل التاء تاء نطقا ورسما.

ثانيا : أن الكتابة التي شاعت في جل الكتب المطبوعة وفي مقدمتها كتب التراجم والتواريخ، برسم لفظ (سيدة) بالهاء الساكنة في الوقف وغير الوقف، إنما هي نتيجة خطأ أرى أن الأصل فيه هو نص ابن خلكان الذي قال في وفياته[1] حين ترجم لهذا اللغوي المتحدث عنه : «وسيدة : بكسر السين المهملة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الدال المهملة، **وبعدها**

1) وفيات الأعيان : 331/3 تحقيق إحسان عباس.

هاء ساكنة». فقد أخذ أغلب من نقل عن ابن خلكان أو نظر في كتابه من المحدثين المشتغلين بنشر التراث وتحقيقه ودراسته، هذه العبارة الأخيرة التي ختم بها وهي قوله : «وبعدها هاء ساكنة» أخذاً أحرفيا، وفهموا أنها أمر بكتابة لفظ (سيدة) بالهاء الساكنة في جميع الأحوال. وذلك من غير تدبر. ولو تدبروا قليلا لوجدوا أن القدماء ـ ومنهم ابن خلكان ـ كانوا يعبرون عن التاء المربوطة الموقوف عليها بالهاء الساكنة، فأنت لو قلت : (جاء معاوية) ووقفت، لاضطررت لنطق التاء في (معاوية) هاء ساكنة، وعلى هذا تقرأ قوله تعالى في سورة القارعة : ﴿**القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة**﴾. وقوله : ﴿**في عيشة راضية**﴾. وقوله : ﴿**فأمه هاوية**﴾. وقوله : ﴿**نار حامية**﴾ بالهاء الساكنة في النطق. والنطق قد يخالف الرسم في بعض الأحوال وعند ضرورة من الضرورات.

وأما في غير الوقف، فلا يباح لك أن تنطق أو ترسم هذه التاء هاء، لأنه لا يباح لك أن تقول : (جاء معاويهْ راكباً) أو (جاء معاويهْ الخليفة). ولذلك فإن الذي يتحدث عن ابن سيدة ويقول : (كان ابن سيدهْ لغويا) أو يقول : (كان ابن سيدهْ المرسي لغويا مشهورا) بالهاء الساكنة، فهو لاشك يرتكب محظورا لا يبيحه اللسان العربي إطلاقا، ولا سيا إذا التقى الساكنان كا في الجملة الأخيرة، إذ التلقى فيها ساكن الهاء بساكن اللام. ولا سبيل هنا لكسر الساكن الأول لأنك لا تقول : (ابن سيدَهِ المرسي) بكسر الهاء.

ولو عدنا لكتاب ابن خلكان نفسه وتتبعناه في مواضع كثيرة، لوجدنا أنه عادة ما يستعمل عبارة (هاء ساكنة) وهو يريد تاء مربوطة موقوفا عليها.

فحين ترجم لابن بانة (عمرو بن محمد) قال في ضبط (بانة) : «وبانة : بفتح الباء الموحدة، وبعد الألف نون مفتوحة، ثم هاء ساكنة، وهو اسم أمه»[2].

وحين ترجم لابن لهيعة (عبد الله بن لهيعة)، ضبط هذا اللفظ الأخير بقوله : «ولهيعة : بفتح اللام وكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح العين المهملة وبعدها هاء ساكنة»[3].

وترجم لابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) فقال : «وقتيبة : بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها هاء ساكنة»[4].

وترجم لابن نباتة فقال : «وبعد الألف تاء مثناة من فوقها مفتوحة، ثم هاء ساكنة»[5].

وترجم لشيذلة (أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور) فقال : «...وفتح الذال المعجمة واللام، وبعدها هاء ساكنة» [6].

وهناك تراجم أخرى كثيرة غير هذه.

فتبين بكل وضوح ـ وإن كان الأمر لا يحتاج لكل هذا ـ أن مقصود ابن خلكان بالهاء الساكنة ـ في مثل : بانة ـ ولهيعة ـ وقتيبة ـ ونباتة ـ

2) نفسه : 479/3.
3) نفسه : 39/3.
4) نفسه : 43/3.
5) نفسه : 158/3.
6) نفسه : 260/3.

وشيذلة ـ وسيدة ـ... هو التاء التي ترسم مربوطة في آخر الكلمة وتتحول حين الوقف عليها إلى هاء ساكنة في النطق لا في الرسم[7]. والغريب في الأمر هو أن نجد من المطبوع في (وفيات الأعيان) لابن خلكان، كل الكلمات السابقة وهي : بانة ـ ولهيعة ـ وقتيبة ـ ونباتة ـ وشيذلة، قد رسمت بالتاء المربوطة الا لفظ (سيدة) الذي رسم وحده بالهاء الساكنة مع أننا رأينا ابن خلكان يستعمل في ضبطها جميعا عبارة واحدة.

وعلى كل حال، فإن كتابة (ابن سيدة) بالهاء الساكنة مهما كان موقعها في الكلام، خطأ أشاعه عدد من ناشري كتب التراث والتراجم بسبب الفهم السقيم لعبارة ابن خلكان، وعن هذه الكتب نقل من نقل حتى استشرى الداء وعم ولم يسلم منه إلا القليلون[8]. ولكن الخطأ متى عرف وعرف مصدره لم تبق لنا حجة في اتباعه.

---

7) وهذا يقودنا إلى معرفة السبب الذي من أجله تكتب التاء الأخيرة في العربية تارة مبسوطة وتارة مربوطة، فلذلك حكمة، وهي أنه في كتابتها مبسوطة علامة على أنه لا يصح عند الوقوف عليها أن تحول إلى هاء سكت مثل : (كانت ـ تكلمت ـ مباريات ـ كتابات..الخ). وأما كتابتها مربوطة على شاكلة الهاء فهي علامة على أن يصح عند الوقوف عليها أن تنطق هاء مثل : مباراة ـ كلمة ـ مكة..الخ. وهذا من أبسط قواعد الإملاء المعروفة.

8) تجد هذا الخطأ مثلا عند ناشري الكتب التالية :
المخصص والمحكم لابن سيدة ـ الوفيات لابن خلكان (طبعة إحسان عباس) ـ جذوة المقتبس للحميدي ـ انباه الرواة للقفطي ـ المغرب لابن سعيد ـ البداية والنهاية لابن الأثير ـ مصحح الأنفس لابن خاقان ـ بغية الوعاة ثم المزهر للسيوطي ـ البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز بادي ـ معجم الأدباء لياقوت ـ الديباج المذهب لابن فرحون ـ مفتاح السعادة لطاش كبري زادة ـ شذرات الذهب لابن العماد ـ كما تجده عند فريق من الدارسين والمؤرخين مثل : الزركلي في (الأعلام) وكحالة في (معجم المؤلفين) ومحمد بن شنب في (دائرة المعارف الإسلامية)، وبروكلمان في (تاريخ الأدب العربي)، وجرجي زيدان في (تاريخ أداب اللغة العربية)، ومحمود مصطفى في (إعجام الأعلام)، وعبد الحميد الشلقاني في (مصادر اللغة) وسواهم.

ثالثا : أنه خوفا من أن تلتبس كلمة (سيدة) التي هي مؤنث (سيد) ـ بكسر السين وسكون الياء ـ وعلم على شخص، بكلمة أخرى بعيدة عنها في المعنى، وهي كلمة (سَيِّدهِ) المركبة من (سَيِّد) ـ بفتح السين والياء المشددة المكسورة ـ ثم ضمير الغائب، وجب أن تكتب الكلمة الأولى بالتاء في الحالين معا : حال الوقف وغير الوقف، ولطالما سمعت بالفعل أناسا يتحدثون عن اللغوي الأندلسي صاحب (المخصص) فيقولون : «قال ابن سَيِّدِه»، فيضيفون (سيد) إلى الهاء، وهذا محتمل الوقوع جدا لمن يقرأ في كتاب غير مشكول.

لم يبق بعد هذا موضع يباح فيه كتابة (ابن سيدة) بالهاء ساكنة، إلا موضعا واحدا هو الذي يؤمن فيه اللبس تماما. ومثل ذلك لا يقع في نظري إلا في قافية شعرية، كأن تقول :

وأسرة عريقةٍ مَجيدَه   شهيرةٍ كأسرة ابن سِيدَهْ

فالقافية والوزن الشعري يوجهانك لا محالة إلى النطق بالياء ساكنة وبالدال مفتوحة خفيفة وبالهاء ساكنة في (سيده).

الرباط   د. عبد العلي الودغيري

أزمّور مَولايْ بوشعَيبْ
من خلال التاريخ المحَلي والدولي للمغربْ

د. عبد الهادي التازي

إذا أردت أن تجد لك مدينة في المغرب ضربت بسمعتها وصيتها في جذور التاريخ فدونك المدينة التي تحمل اليوم إسم «أزمور مولاي بوشعيب»...

لقد عرف بقدرها أبناء البلاد الذين قدر لهم أن يعيشوا على أرضها الطيبة المعطاءة...

وقد أغرت أزمور بما تحتضنه من كنوز وثروات، أغرت الفينيقيين والقرطاجيين وحاولوا - فيما أعتقد - أن يجدوا لهم بها مكانا، لكن غيرة الأزموريين على بلادهم أفشلت كل المحاولات بالرغم بما نعرفه عن أولئك من ذكاء ودهاء.

واستمرت آزمور - وهي تعرف مكانتها - تصول وتجول في الأحقاب التالية فاستعصت حتى على الرومان الذين تركوها ليس زهدا فيها ولكن اتقاء لشراسة دفاعها على أرضها وموقعها[1]...

وظهر الإسلام فتناهت إليها تعليماته وراحت تبحث عن طريقها نحو الإعتصام بحبله، لكن سلوك بعض الولاة الواردين لم يلبث أن جعلها تنطوي على نفسها فتؤسس إمارة مستقلة عن الخلافة بالمشرق على نحو الإمارات المحلية الأخرى التي ظهرت بالمغرب من أمثال إمارة **بني صالح** في نكور **وبني عصام** في سبتة، **وبني مدرار** في سلجماسة **وبني إدريس في فاس.**

وهكذا وجدنا أنفسنا أمام إمارة تحمل إسم برغواطة، تمتد جنوبا من سلا وواديها الذي يحمل إسم أبي رقراق إلى أزمور أم الربيع عبر فضالة وهو الساحل الذي نسبه البكري إلى تامسنا : بلد برغواطة.

وقد ورد في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (تـ 380 = 990) أن على وادي سلا توجد المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعني شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها، وقد اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان، يزيدون وينقصون، ورباطهم على برغواطة، وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي **شقت** عمارة بلد الإسلام، إليها يعزون وينسبون، وذلك أن رجلا بربريا كان يعرف بصالح بن عبد الله دخل العراق ودرس شيئاً من النجوم

---

1) Tissot : mouritanie Tingitance P. 101 – Besnier : Arch. mar Vol.I P.340-Michaux-Billaire : Les Doukkala.

وصلحت منزلته فيها إلى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه، وكان له حظ حسن، وفهم بأطراف من العلم، وعاد فنزل بينهم وكان بربري الأصل، مغربي المولد مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم، وقد دعاهم إلى الإيمان به وذكر أنه نبي ورسول مبعوث إليهم بلغة البربر واحتج بقوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه... وأن محمدا عليه السلام عربي اللسان، مبعوث إلى قومه وإلى العرب كافة، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام**﴾... ويضيف صالح بن عبد الله هذا أن القرآن الكريم يقصده هو عندما يقول : ﴿**وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾ ووعدهم بأن لا تكسف الشمس فتحقق ذلك ! وأنذرهم بأشياء فأدركوها ! فأفسد عقولهم وبدل معارفهم وافترض عليهم طاعته إضافة إلى سنن ابتدعها وفرائض اخترعها وأوجب عليهم صوم شعبان وإفطار رمضان، وعمل لهم كلاما رتله بلغتهم، وشرع فيه محابه على نحلتهم، فهم يتدارسونه ويعظمونه ويصلون به... وقد مات فخلفه وصي أقامه من بعده فزاد على ما رسمه بأشياء ذكرأن له الزيادة فيها والنقصان والعقد فيما قدمه صالح لهم من الأحوال، فدعاهم إلى النسك وترك الدنيا والإقبال على الزهد، وتناهى هو في ذلك إلى أن حفظ عليه صبره عن الغذاء خمس ليال وسبعا وتسعا، وهو في جميع ذلك يذكر أنه يوحى إليه، وأن الملائكة تأتيه بما يأتي ويذر ويحله ويعقده، وكان صالح يحل لهم الطيبات ولا يحميهم من المحظورات ويبيح لهم الملذات، وفيهم من يقرأ القرآن ويحفظ منه السور إلى الآن ويتأول أياته على موافقته لكتابهم وقراءتهم... وكان أهل البصرة (المغربية الإدريسية) ومدينة فاس يغزونهم في بعض الأوقات ويسالمونهم،

ويتاجرونهم ويجلبون لهم التجارات في أخرى، وفيهم أمانة وبذل للطعام وتجنب لأكثر الحرام والمحظورات من الآثام، وقد يصل إليهم أهل أغمات والسوس الأقصى أيضا بالتجارة وكذلك قوم من أهل سجلماسة. وكنت - يقول ابن حوقل - آلفيت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله (صاحب سلجماسة)، كان يدعو إلى غزوهم في سنة (347 = 958 - 9) وأظنه هلك، لم يبلغ محابه لقلة إجابة من دعاه إلى غزوهم من البربر وخوفهم من أطراد حيلة لمحمد بن الفتح عليهم في ذلك.

هذا ما يقوله ابن حوقل عن برغواطة... ونحوه قرأناه في كتاب (المغرب) لأبي عبيد البكري (478 = 1085) الذي قدم إلينا معلومات هامة عن الصلات الدبلوماسية التي كانت لإمارة برغواطة مع الخلافة الأموية بالأندلس، ومعلوم أن البكري كان ينقل هذه المعلومات من أرشيف قرطبة الذي كان يزخر بالمعلومات المتصلة بإفريقيا مما يحتاج إليه الخلفاء هناك...

لقد تحدث البكري عن وفادة وردت من البرغواطيين تكشف عن سياستهم في البحر المتوسط وقد كانت برئاسة سفير يحمل بالصدفة إسم **زمور** الأمر الذي يستوقف الباحث الذي يهمه أن يتحدث عن أزمور.. وهل هناك صلة بين الأسماء ؟! يقول البكري :

أخبر أبو صالح زمور بن موسى.. البرغواطي - وكان صاحب صلاتهم - حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف... وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة 352 = 963 (خمس سنوات بعدما حكاه ابن حوقل عن غزو الشاكر بالله للبرغواطيين)..

وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين المسطاسي من أهل شالة، مسلم من بيت خيرون ابن خير، فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق، **وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري المعروف بالخفير..** فلما قفل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريفٌ ببلد تامسنا... فقدمه البربر على أنفسهم وولى أمرهم، وكان على ديانة الإسلام إلى أن هلك هنالك وتخلف من الولد أربعة فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور : وكان موت صالح بعد موت النبي ﷺ بمائة عام سواء. قال وحضر مع أبيه حروب ميسرة الخفير وهو صغير، قال : وكان من أهل العلم والخير فتنبأ فيهم وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم... وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلمه وشرائعه... وأمره بموالاة أمير الأندلس... وخرج صالح إلى المشرق، ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه «المهدي الأكبر» الذي يخرج في آخر الزمان، فتولى إلياس الأمر من بعد خروج ابنه، يظهر ديانة الإسلام ويسر الذي عهد إليه به أبوه خوفا وتقية... وتولى بعده ابنه يونس... وقتل من لم يدخل في ديانته حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة !... قال زمور : ورحل يونس إلى المشرق وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده... وانتقل الأمر عن بنيه بقيام أبي غفير الذي اشتدت شوكته وكانت له وقائع كثيرة في البربر قبل أن يتوفي سنة 300 = 912 ـ 13 وولى بعده من بنيه أبو منصور عيسى سنة 341 = 952 ـ 53 فعظم سلطانه.. **وكان أبوه قد وصاه بموالاة صاحب الأندلس**، وكذلك يوصي جميعهم المرشح للملك بعده...

ويضيف السفير زمور إلى هذه الوصية أن عبد الله أبا الأنصار قال لابنه أبي منصور عيسى : «يا بني أنت سابع الأمراء من أهل بيتك وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف كما وعد».

وقد ختم المبعوث البرغواطي تقريره بهذه الإفادة عام 314 = 926 التي تقول : أن بني صالح بن طريف يركبون، وقت أخباره هذا، في ثلاثة آلاف ومائتي فارس، وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم وهم على ملتهم : جراوة - زواغة - البرانص - بنو أبي ناصر - منجصة - بنو أبي نوح - بنو واغمر - مطغرة - بنو بورغ - بنو دمر - مطماطة - بنو وزكسينت... وعددهم ينتهي إلى أكثر من عشرة آلاف فارس، وممن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل - بنو يليت - نمالته - بنو واوسينت - بنو يفرن - بنو ناغيت - بنو النعمان - بنو إفلوسة - بنو كونة - بنو يسكر - بنو أصادة - ركانة - إيزمين - منادة - ماسينة - رصانة - ترارتة - ومبلغ عددهم نحو اثنى عشر ألف فارس... قال زمور : ليس في عسكرهم طبول ولا بنود، وقد عدد زمور من أنهار بلادهم الجارية أزيد من مائة نهر، أعظمها نهر ما سنات (أم الربيع ؟) وهو يجري من القبلة إلى الجوف، وبين عنصره وموقعه في البحر مسيرة ستة أيام، ونهر وانسيفن، يقع في نهر سلة تحت الرباط[2] في البحر المحيط (بورقراق)..

قال البكري : ولم تزل برغواطة في بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرني بعد 420 هـ = 1029

---

2) يلاحظ أن الرباط لم يكن قد بني بعد، وهكذا فإن القصد إلى المكان الذي يرابط فيه المجاهدون...

فغلبهم على بلادهم وسباهم، وجلا من بقى منهم واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم.. قال البكري : وجميع بلاد برغواطة اليوم (460 = 1068 ـ 67) على ملة الإسلام».

☆

☆ ☆

لقد قصدت بإيراد هذين النصين الهامين أن أجعل تاريخ أزمور في متناول الذين لم يتوفروا على مثل تلك المؤلفات الهامة التي اهتمت بالعناصر الأولى لكتابة ذلك التاريخ...

فماذا إذن عن أزمور بعد إنشاء الدولة الإدريسية في المغرب ؟

هنا سنرجع إلى المصادر العربية التي تتحدث عما يفهم منه ظهور إسم أزمور على الساحة المغربية، منذ القرن الثالث الهجري = القرن التاسع الميلادي... أعني عندما وزع الإمام محمد بن إدريس ـ بإشارة من جدّته كنزه ـ وزع المغرب بين إخوته...

هنا سنجد أن عيسى بن إدريس كان من نصيبه إقليم شاسع شمل سلا وشالّة **وأزمور** وتامسنا... ويهمنا هنا أن نعرف أن إسم أزمور كتب بطريقة يمكن أن تقرأها (أزقور) ويمكن أن تقرأها (أزمور) !.

إن اللغة العربية في بداية ظهورها كانت دون تنقيط... وهذا مشكل من المشاكل الكبرى التي يعانيها المؤرخ من أجل أن يضبط الاعلام الجغرافية وحتى الأعلام الشخصية !!.

سوف أشير فقط إلى أن دوسلان... افترض مئات الحالات لكلمة واحدة ترد على الإنسان، ويتردد في نقطها من تحت أو فوق !!.

وفي كل يوم نصطدم بعدد من الأمثلة المحيرة... سأذكر لكم ما وقعت فيه وأنا أترجم للأمير المغربي زيري بن عطية بأني وجدة الذي نعتته نسخ ابن خلدون بأنه يلقب بالقرطاس... ثم تبيّن أنه الفرطاس وليس القرطاس..!

مهما يكن، فإن الإسم كما كتب عندي البكري هو أزقور (Onazeqqour) التي يعتقد بعض الباحثين أنها أزمور[3].

وقد عرفنا أن ابن حوقل الذي لم يهمل الحديث عن الأدارسة، أكتفي بالقول بأن سائر الأراضي التي توجد جنوب شالة ووادي سلا مسكونة من لدن البرغواطيين...

ومن المهم أن نشير إلى أن المدينة : أزمور ذكرت بصفة لا تحتمل الشك في القرن السادس الهجري = القرن الثاني عشر الميلادي.

ومن هنا أصبحنا نتوفر على معلومات جد هامة عن أزمور وخاصة عندما قرأنا باسهاب عن الترجمة الواسعة التي أوردها الزيات (تـ 627 = 1230) في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»، أوردها لأحد أقطاب الإقليم ويتعلق الأمر بالقطب المجاهد الشهير مولاي بوشعيب الذي اقترن اسمه إلى الأبد بتاريخ أزمور...

(3 FOURNEL : Les Berbers. I; p. 502

لا أرضى أن أودع الحديث عن هذا الرجل العظيم الذي أكن له الكثير من الإجلال والإكبار، دون ما أن أتناول التبرك بالإشارة إلى بعض الجوانب التي أثارت انتباهي في حياته مما - ربّما - غفل عن ذكره بعض المؤرخين...

في نظري يجب «الربط» بين حياة مولاي بوشعيب كولي صالح وبين مولاي بوشعيب كمجاهد صلد ضد البرغواطيين الذين سمعنا عنهم ما سمعنا وتركنا عنهم أكثر مما أوردنا[4] !!.

إن المغرب الذي اختار لنفسه منذ فجر الإسلام أن يكون من أنصار المذهب المالكي لم يكن يسمح بظهور أي مذهب آخر حتى ولو كان شيعيا وحتى ولو كان خارجيا، فأحرى أن يسمح بوجود كيان يختلق ديانة أخرى تعتمد على شعارات زائفة سخيفة... وأعني بذلك ما تحدث به سفير البرغواطيين لدى الحكم المستنصر !.

لا أريد هنا أن أناقش موضوع سماح الخليفة الحكم لنفسه باستقبال ممثل عن أولئك الشواذ... فإننا نعرف أن السياسة عند الأمويين بالأندلس كانت تتيح كلَّ الوسائل للوصول إلى هدفها المتلخص في التمكن من المغرب !.

---

4) كانوا - حتى يخالفوا المجموعة - يأمرون بصوم رجب عوض رمضان أو يضحون يوم 11 محرم. ويسجدون ثلاث سجدات متواصلة، ويتزوجون من النساء ما يستطيعون، ويقتلون السارق، وينفون الكاذب، ويحرمون أكل رأس الحيوان ولا يأكلون الحوت حتى يذكى، ويقدسون الديك ولا يذبحونه لأنه يعلم الوقت، وضع لهم صالح بن طريف قرآنا فيه 80 سورة، سورة هاروت، وسورة الديك والجراد، ومن عباراته : «هو الذي يبين لهم به أخباره» !!.

ولكني أريد التأكيد هنا على أن المغرب، وبالذات دولة المرابطين ثم دولة الموحدين لم يكن في وسعهم جميعا أن يغضوا الطرف عن أولئك المبتدعة، ولم يكن في استطاعتهم أن يعايشوهم، ولذلك وجدناهم في صدام مستمر مع أولئك...

وهنا يجب أن نعرف أسرار دخول مولاي بوشعيب إلى مراكش عام (541 = 1146) أي في نفس السنة التي دخلها الخليفة عبد المؤمن بمعية الشيخ أبي حفص بعد أن قام هذا الأخير بالاجهاز النهائي على البرغواطيين الذين كانت تراودهم ـ بين الفينة والأخرى ـ العودة إلى سالف ديانتهم الضالة..!

أريد القول إن مولاي بوشعيب لم يكن بعيدا أبدا عن مساندة الدولة الموحدية في جهاده من أجل الوحدة المذهبية للبلاد، لقد كانت هذه الوحدة، أعني الوحدة المذهبية، على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للحكام، ولم تكن تقل في الأهمية عن الوحدة الترابية.!

ومن هنا فإنني لا أشاطر في الرأي أولئك الذين يترجمون لمولاي بوشعيب وكأنهم لا يعنيهم إلا أن يقولوا : إنه «يطير في الهواء» أو «يمشي على الماء» أو «يساعد المشتكين من الروماتيزم» أو... أو..! لست من الذين ينكرون كرامات الأولياء أو يتشككون في مقامات الرجال... إني على العكس من ذلك ممن يجلون أولئك الأقطاب ويقفون أمامهم موقف التعظيم والتسليم... ولكني أؤكد على أنّ ولاية مولاي بوشعيب جاءت من أنه كان وليا لله أي إنه ناصر لدين الله، أي إنه كان مع الجماعة الإسلامية، وكان مع الخلافة الموحدية في مقاومتها لجيوب البرغواطيين أعداء الله..!

سأذكر بعض القول مما رواه صاحب التشوف مما يدل على صلة الرجل بمجتمعه، بمن يرد عليه من الأندلس وعلى رجال الدولة، وبمن يرد عليه من تجار مالقة مثلا...

وهكذا نقرأ الحديث عن ابن صاحب الصّلاة الذي ورد أواسط سنة (560 = 1165) على مراكش العاصمة ليرفع شكواه ضد القراصلة[5] الروم الذين اختطفوا أهله... إن هذا الوافد الذي ورد على بلادنا من أجل تسوية هذا المشكل السياسي لم يفته - وهو بمراكش - أن يفكر في زيارة مولاي بوشعيب الذي كان له ذكر طيب في العاصمة، يزوره في أزمور ليلتمس منه الدعاء على حل المشكل... إن استقبال مولاي بوشعيب لابن صاحب الصلاة الذي ورد أصلا على رجال الدولة، كان يعني أنه أي مولاي بوشعيب أحد العاملين في نطاق الدولة...

أكثر من هذا روى صاحب التشوف أن تاجرا من مالقة وصل بتجارته إلى أزمور فمرض ولم يطق السفر لا في البر ولا في البحر وعنده خمسمائة دينار... وهنا فكر في أن يقصد مولاي بوشعيب ليدله على شخص يقارضه بها، قدر ما يستقل من مرضه... ورأينا مولاي بوشعيب يعهد إلى أحد رواده بالمهمة ويدفع له المال ويطلب إليه أن يذهب إلى المرسى فيشتري السلعة التي يجدها هناك ويسافر بها إلى الأندلس حيث وجدنا هذا «الرائد» يعود وقد شحن مركبه بتين مالقة :

مالقة حييت ياتينها   والناس من أجلك ياتينها !

5) أصبحت أفضل كتابة القرصلة باللام دون النون لأن أصلها الإطالي كذلك ولأن مصادرنا الدبلوماسية القديمة تكتبها باللام.

وتعود السفينة إلى مرسى أزمور ويجيء المكلف بالمهمة، بالمال إلى أبي شعيب الذي وجدناه يحاسب تلميذه حسابا دقيقا بالأرقام على الفوائد والعوائد !!.

إن مثل هذه الإفادة تقدم لنا مولاي بوشعيب على أنه لم يكن كما يراد أن يقال لنا : رجل الإنقطاع عن الدنيا، ولكنه كان رجلا يعيش في قلب الدنيا ومع أهل الدنيا... والإسلام دين ودنيا !..

لقد اشتهر مولاي بوشعيب بأنه أيوب **السارية**، لأنه عندما كان يقوم للصلاة ينتصب كالسارية لا يبدي حراكا ذات اليمين وذات اليسار على نحو ما يأمرنا به الإسلام عندما يطلب إلينا أن نعتدل في الوقوف والصفوف.

إن حديث «السارية» يذكرنا فيما كتبه حديثا بعض الأطباء المغاربة عن المدخل إلى الكمال الجسدي والروحي انطلاقا من علم الوعي أو «السفرولوجيا»[6]... ولكن أيوب السارية لا يلبث أن يتحرك لخير المواطنين ولصالح المسلمين...

كذلك لقنه شيوخه من أمثال أبي علي منصور المسطاسي... وكذلك يلقن هو تلامذته من أمثال مولاي بوعزة دفين تاغيا...

إن دور مولاي بوشعيب في تصفية نفوس هذا الإقليم لا يقل أهمية عن دور كبار المصلحين وكبار الدعاة، وقد كان في صدر الذين أنجزوا المهمة واستشهد من أجلها في كريفلة عبد الله بن ياسين...

---

6) القصد إلى الدكتور عبد السلام أحمد البقالي في كتابه (مدخل إلى الكمال الجسدي والروحي) دار قرطبة للطباعة والنشر البيضاء 1986.

إن مولاي بوشعيب سيظل معلمة تاريخية للذين يبحثون عن مراحل النضال التي عرفتها هذه المنطقة... وسيظل على رأس القائمة الطويلة لرجال الفضل ورجال الخير ورجال العمل ممن نعتز بهم.

لقد كان المغاربة بارين برجالهم عندما أعطوا إسم (بوشعيب) لأبنائهم وفلذات أكبادهم، إن مولاي بوشعيب أزمور يستحق مثل ذلك التكريم من بني قومه !!.

☆

☆ ☆

وما دمنا على مقتربة من تربة مولاي بوشعيب فإننا سنذكر لزوما أحد الخلفاء الموحدين من الذين نعتز بهم في تاريخنا الدولي. ويتعلق الأمر بالخليفة أبي حفص عمر المرتضى الذي يحتفظ له أرشيف حاضرة الفاتيكان بعدد من الوثائق يوجد على رأسها خطابه إلى البابا على ذلك العهد إينوصانت الرابع عام 648 = 1250 يطلب إليه أن يتخير سفراءه إلى المغرب «من أهل العقل الراجح والسمت الحسن وممن يسلك في النزاهة على واضح السنن وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن».

هذا الخليفة الجليل القدر هو الذي نراه ـ بعد أن تئامر عليه أحد أقربائه ـ يقصد أزمور حيث كان صهره أبو فارس عبد العزيز بن عطوش واليا على المدينة من قبله بعد أن فداه من طلائع بني مرين بمال كثير.

ولما وصل إلى أزمور عام 665 = 1266 قصد، كما يقول ابن عذاري، إلى قبر الشيخ الصالح المبارك أبي شعيب... يرسم الدعاء والتبرك... إلى آخر القصة الحزينة التي تنتهي بمصرع الخليفة في مكان يعرف بفرزغون يوم الثلاثاء 22 صفر 665 = 22 نونبر 1266.

وإذا كان عهد الموحدين قد ظل صامتا عن النص الصريح على تزويد المدينة بما كانت تحتاج إليه من معاهد علمية، فإن العهد المريني عرف تئاليف أشادت بصنيع السلطان أبي الحسن علي بن أبي سعيد الذي رأيناه، على ما يذكره الخطيب ابن مرزوق في مسنده، يزود مدينة أزمور بمدرسة علمية على نحو ما أنشأه بمدينة فاس من مدارس وقام بمثل ذلك في معظم قواعد المغرب... في صدر هذه القواعد كانت بدون شك مدينة أزمور... التي لم تختلف مدرستها عن مثيلاتها من المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والإحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع، والرخام المجزَّع، والخشب المحكم النقش والمياه النميرة، مع ما ينضم إلى ذلك من الأحباس التي تقام بها ويحفظ بها الوضع مما يصلح به ويبني ويجرى في المرتبات على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والناضر والشهود والخدام ويوفر من ذلك... هذا مع ما حبس عليها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات العديدة، فلا جرم أن يكثر بذلك طلب العلم وعدد أهله...

لقد تعمدت إيراد نص ابن مرزوق لنعرف القيمة الحضارية والثقافية التي كانت تنعم بها أزمور على ذلك العهد...

لقد غدت أزمور فعلا مزارة لكل الذين يقصدون ديار المغرب، وهكذا نجد أحد اللاجئين السياسيين ببلادنا في أواسط القرن الثامن = الرابع عشر الميلادي، يحصل من العاهل المغربي على الإذن بزيارة الجنوب المغربي.

ويتعلق الأمر بذي الوزارتين وذي الرئاستين وذي العمرين لسان الدين ابن الخطيب الذي يتحدث عن أزمور حديثا طريفا وعاليا لا يمكن أن يقال إلا عن عاصمة من العواصم الكبرى :

قال في معيار الإختيار :

«قلت : فأزمور ؟ قال : جار واد رديف، وعروس ربيع وخريف، وذو وضع شريف، أطلت على واديه المنازه والمراقب، كأنها النجوم الثواقب، وجلت من خصبه المناقب، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب، بلد يخزن الأقوات، ويملأ اللهوات، باطنه الخير، وإدامه السمك والطير، وساكنه رفيه، **ولباسه يتخذ فيه**، ومسكنه نبيه، وحوت الشابل ليس له شبيه، وقد مدح ابن الخطيب أهلها بأنهم لا يعتمدون على وظيف وإنما يعتمدون على مجهودهم الشخصي، قال : لكن أهله - إنما حرثهم وحصادهم - اقتصادهم فلا يعرفون إرضاخا، ولا وردا نضاخا، يترامون على حبة الخردل بالجندل، ويتضاربون على الأثمان الزيوف، بالسيوف، بربري لسانهم، كثير حصانهم، قليل إحسانهم، يكثر بينهم بالعرض الافتخار، ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار...».

ولم تكن هذه الكلمات الأولى والأخيرة التي قالها ابن الخطيب في أزمور فقد عاد إلى بلاد الصنهاجة كما يخبرنا في كتابه نفاضة الجراب - فتلقاه بها أصناف الفضلاء مصحرين، ولوظائف البر متممين، وقاهم الله معرات السنين، وكرم وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يوم العرض والدين.

وقـد برز إلينـا ـ يقـول ابن الخطيب ـ الحسن بن يحيى بن حسـون (الصبيحي) فتي الفتيان بالمغرب وغاية السرو وآيـة المروءة والمثل البعيـد في الايثار على الخصاصـة، ومخجل الضيف وريحانـة التلطف فـأربى الحبر على الخبر إلى آخر الحديث الذي اختتمه ابن الخطيب بقصيدة نونية قالها في حاكم أزمور المذكور كان منها :

أثرت بكـم كف أزمـور دياركـم   فأي در بصـون المجـد مكنـون

إلى آخر القصيدة[7]...

ولعل من الـواجب علي أن أنبـه هنـا إلى بعض مـا ورد في مـذكرات لسان الدين ابن الخطيب وكذلك ما كتبـه الحسن الوزان (ليون الافريقي) عن أزمور مما اعتبره بعض الزملاء ثلبا في المدينة..! إني أعتقـد أن مـا ذكره ابن الخطيب والوزان عن المدينـة يعتبر من الشواهـد على أنهـا فعلا عـاصمـة وقـاعـدة كبرى ومن المعلـوم أن حـال العـواصم لا يخلـو من قـواصم !! وأي مدينة سلمت من النوازع البشرية ؟ خذ لك مدينة الرسول ﷺ... لو كان كل مـا يجري فيهـا على مقتضى الأصول لمـا كانت هنـاك حـاجـة إلى نـزول الأيات الشريفة التي تتحدث عن بعض المنحرفين والمضللين..! لكن الملاحظ حقا على ابن الخطيب أنـه ـ زار في تنقلاتـه قبر المعتمـد ابن عبـاد وزوجتـه اعتماد وذكر أضرحة الحكام المرينيين... لكنه وقـد زار أزمور لم يتحـدث عن ضريح أبي شعيب.. وهو الأمر الذي يؤكد ما قيل عن ابن الخطيب من أنه

---

7) نفاضة الجراب تحقيق د. أحمد مختار العبادي طبع القاهرة.

«كان قليل النية» !! وأن زيارته لبعض المقابر إنما كانت لأهداف سياسية وأغراض ظرفية !!.

إن الحديث عما قاله الناس عن أزمور وعن رجال أزمور غدا يتكاثر مع مرور الزمن، فقد تنبهوا إلى مركزها ومكانتها، وهكذا فبعد ابن قنفذ (تـ 810 = 1407) في كتابه أنس الفقير، نقف على معلومات جد قيمة لدى الحسن ابن الوزان المعروف في أوربا بليون الافريقي (تـ 959 = 1552) الذي كان يعاصر **فترة الاحتلال البرتغالي لأزمور...**

وهنا سنحاول أن نعرف ـ باختصار ـ عن الثمان والعشرين سنة التي قضاها البرتغال في أزمور والتي أتت على كل المعالم الحضارية للمدينة... لقد بقي عليهم فقط ـ لو كانوا يستطيعون ـ أن يحولوا مصب نهر أم الربيع في المحيط الأطلسي !!.

فماذا عن فترة الاستعمار تلك ؟.

إن ما كتب عنها في الوثائق الأوربية من خطابات وتقارير ومحاضر وخرائط ورسوم يفوق بكثير ما يمكن أن يتخيله الإنسان...

لقد وقفت مشدوها في الارشيف الوطني : طوري دو طومبو(TORRE DO TOMBO) بليشبونة... وورمت قدماي من كثرة الطوفان والتنقل من زاوية إلى زاوية، ومن رف إلى رف..

كانت أزمور تمثل أمام عيني عظمية كبيرة جليلة بما قاومت به التدخل الأجنبي، إن على الصعيد الدبلوماسي أو على الصعيد العسكري، كانت أزمور مفخرة بديوانها وبرجالها، مفخرة للإنسان المغربي أينما وجد هذا الإنسان...

لقد يخطئ بعض الناس عندما يتوهمون أن الأزموريين مثلا كانوا يستقبلون المستعمرين بالورود والزهور !! أن الأمر على العكس من ذلك، فقد شهدت كل الثغور المغربية ملاحم رائعة في البطولة، فريدة في التضحية، معارك مستمرة لم تفتر طيلة أيام الاحتلال، لقد خبر البرتغال في المغاربة طائفة من المفاجآت ومن الخدع الجريئة... تلقوا أحيانا وابلا من القذائف التي كانت عبارة عن أكياس محشوة بالعقارب !. وأحيانا بكتل من النحل انهالت عليهم باللسع واللدغ فانتفخت وجوههم واغمضت عيونهم واقعدتهم إلى الأرض..!

وكما قهرهم المغاربة بالأمس عام 894 = 1489 في وقعة وادي المخازن الصغرى بسد من قصب[8] ! فقد رأيناهم اليوم يتلقون هجومات نهرية وبحرية ليست عن طريق الزوارق المبثوثة، ولكن عن طريق القرب المنفوخة !!

كثيرا ما تكون نقمة المرء في نعمته والعكس صحيح... هنا في أزمور... اشتهرت منذ التاريخ القديم بسمكها الذي يحمل إسم (الشابل)... وهنا كانت الكارثة بالنسبة لأهل أزمور، وكأنما حسدهم الآخرون على هذه الثروة، كما حسدونا في جهات أخرى على ثروات أخرى...

وهكذا مباشرة بعد نكبات المسلمين في الجزيرة الايبيرية أشهرت علينا حرب ضروس تجلت أولا في الغارات المتوالية وعمليات القرصنة التي

8) د. التازي : معركة وادي المخازن الصغرى، مجلة المناهل، العدد 33 ربيع الثاني 1406 = دجنبر 1985.

كانت تستهدف السواحل المغربية والتي كانت تتنافس عليها ضد المغرب عناصر برتغالية وإسبانية.

وقد كان في صدر الثغور التي تعرضت لذلك العدوان «أزمور مولاي بوشعيب» الأمر الذي اضطر معه السكان إلى تليين مواقفهم...

وقد جاءت اتفاقية الكاصوفاس (ALÇACOVAS) عام 1479 بما تبعها من تعديلات، جاءت لتصالح بين إسبانيا والبرتغال ولتحدد مناطق النفوذ بينهما في غيبة أصحاب الأرض !!...

وهكذا فبعد أن ارتبطت أزمور باتفاقية مع ملك البرتغال جان الثاني (1481 ـ 1495)، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية تعد في عداد الاتفاقيات التي تعرف في القانون الدولي بالاتفاقيات السبعية (Pacte Lionin) التي تقصد إلى «أن تكون أمة أربى من أمة» على حد تعبير القرآن الكريم، بالرغم من ذلك فإن الأزموريين قبلوا نصوصها جنوحا للسلم وأملا في وفاء الطرف الآخر.

أكثر من هذا جدد الديوان الأزموري الاتفاقية بعيد ذلك... لكن الاستعمار لم يقنع بكل ذلك وهكذا أخذ يدس في أوساط الزعماء والرؤساء الذين بيدهم زمام الأمر... حيث وجدنا أن بعض هؤلاء يغري البرتغال بالاستيلاء على المدينة بصفة نهائية !!

وهنا رأينا الملك ايمانوبل الملقب بالمحظوظ (1495 ـ 1521) يقوم في غشت من عام 1508 = 913 بمحاولته للاستحواذ على المدينة، غير أن مقاومة الوطنيين أفشلت المحاولة، حيث وقعت القوات البرتغالية في كمين

(Guet apens) وأغرقت جل قطع أسطوله وعددها خمس وسبعون قطعة ! على ما يذكره ليون الافريقي.

وهنا رأينا التاج البرتغالي يستعد ليجدد العملية في بداية شتنبر 1513 = 919، تحت قيادة الدوك دي براكانص (De Bragance)... 500 قطعة من أسطول تحمل أكثر من 2000 فارس و13000 من المشاة، معززون بالمدفعية في وقت نعرف فيه أن المجاهدين المغاربة لم يكونوا يتوفرون على أكثر من السيوف والنبال والمقالع التي ترمي بالأحجار !.

وعبثا كانت مقاومة المواطنين ونجدة مولاي الناصر أخي السلطان محمد الملقب بالبرتغالي، فقد تم احتلال المدينة، حيث كانت بداية الثمان والعشرين سنة التي أشرت إليها...

لقد كان أول ما استفز البرتغاليين وهم يدخلون المسجد الأعظم أنهم عثروا في سقفه على ثريتين كبيرتين كانتا في الأصل عبارة عن ناقوسين ضخمين كان المجاهدون اقتلعوهما من كنائس بالجزيرة الايبيرية جوابا على إحراق المتطرفين المسيحيين لمنابر مساجد المسلمين..!

إن ظاهرة وجود النواقيس في المساجد العتيقة بكبريات المدن كانت عادة جارية وما يزال إلى الآن في استطاعتنا أن نرى هذه الأجراس في البلاط الأوسط من جامع القرويين بفاس وبباب الشماعين من المسجد كذلك... **لقد تحول** المسجد بأزمور إلى كنيسة أهديت للروح القدس وأعملت المعاول في مدرسة السلطان أبي الحسن... وما أشبه المدرسة من زوايا ومعاهد..!

وأمـام عنف وشراسـة المحتـل لم يسـع السكان إلا أن يضطروا لمغـادرة المـدينـة التي أصبحت خـاليـة إلا من العتـاة الـذين كانوا غـارقين في نشـوة النصر..

إن المدينة كلها انتقلت إلى خارج أزمور فكان منها مل اختـار المقـام بسلا... لكن منها من تقدمت به الخطى نحو فاس، لقد تحولت أزمور كلهـا إلى سلا وفاس فرارا من الاسر والرق والعبودية...

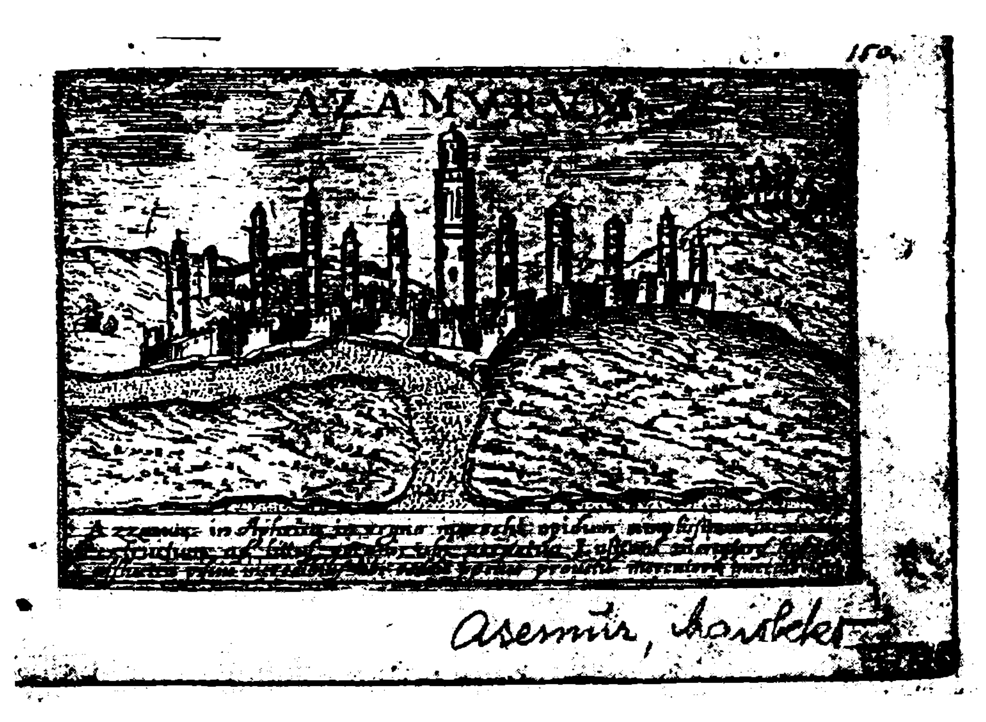
لكن العظيم يظل عظيما دائما:.. وإن الأقزام تظل دائما أقزاما
إن الجواهـر فـي التـــراب جواهـــــــر
والأسـد فـي قفــص الأســود أســــــود !

لقد أخذ أحـد الأسرى المغـاربـة إلى لشبونـة ومنهـا صحب سيـده إلى أمريكا الجنوبية وهنا كانت الأسطورة التي رددها التاريخ الـدولي، أسطورة ليست أغلوطة، ولكنها أمثولة رددت صداها الوثائق المغربية[9].

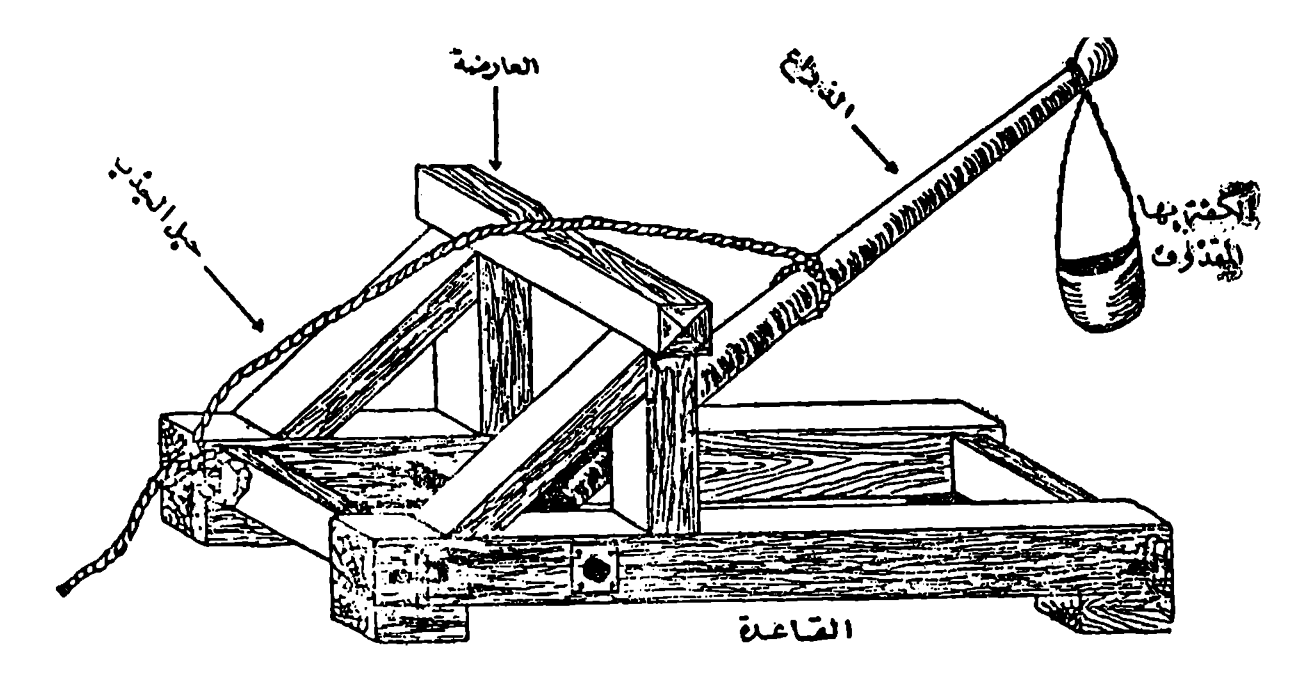
حـديث المكسيـك في بـدايـة القرن السـادس عشر عن العسل والشمع الذي يقتنى من أزمور على أنها أرفع مادة عرفتها تلك البلاد...

لقــد جــاء على لســان أحــد المبشرين الفرانسيسكان مــوطــولينــا (Motolina) أن المكسيك كانت على ذلـك العهـدتعيش مع أخبـار المغرب... وبالإضافة إلى المكسيك نرى أن الايكواتور هي بدورهـا تشهـد مقـام عـدد من الأزموريين !! لا نقول هذا جزافا، إن هناك إلى الآن قوما يحملون إسم .AZAMORAS)

9) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مجلد 2، ص 11، مطبعة فضالة المحمديـة 1406 = 1986.



عن كتاب : التاريخ الدبلوماسي للمغرب
تأليف : د. عبد الهادي التازي
مطبعة فضالة (المحمدية) 1406 = 1986.



المنجنيـــــق

عن كتاب : التاريخ الدبلوماسي للمغرب
تأليف : د. عبد الهادي التازي
مطبعة فضالة (المحمدية) 1406 = 1986.

وهناك في المكسيك مدينـة تحمل اسم زامورا (AZMORA)... أطرف من هذا وأهم وأكثر أن نسمع أنه بمساعدة أحـد أبنـاء أزمور تم فتح فلوريـدا وتم اكتشـاف شمال المكسيـك أو بـالحرى المـدن السبـع التي تتحــدث عنهـا المصادر الإيبيرية[10]...!!

إن الأمر يتعلــق بمــواطن مغربي من أزمــور يحمــل إسم (ESTEBANICO) يمكن سعيـد بن يـونس أو بن حـدو ؟... المهم أن هــذا الرائد قام عام 1539 = 946، بـالضبـط قبل سنتين من إجلاء البرتغـال عن أزمـور، بتقـديم المسـاعـدة للبرتغـالي دون انطـونيـو دي مينـدوزا (D.A. de Mendoza) سـاعـده اليوم على فتح المكسيـك، ولا شـك أن لهـذا الـزمـوري اشباها ونظائر... وهكذا نجـد أن الـدمـار الـذي لحق أزمور أثنـاء 28 سنـة أفرز عددا من القضايا التي تحتاج إلى المزيد من الدرس...

لقـد طوق الاحتـلال البرتغـالي بـلادنـا وضرب الحصـار في البحر على بعض ما تبقى من قطع الأسطول... فكانت قراصنتـه تستولي على بحريتنـا من دون موجب...

إن المهتمين منـا بقراءة التـاريخ سيجـدون في كتـاب الاستقصـا (ج 4 ص 63 ـ 64) صـدى لبعض الرســائـل التي بعث بهـا ملــك المغرب محمـد البرتغـالي إلى ملـك البرتغـال دون ايمـانـويـل يطلب إليـه فيهـا أن يكف قراصنتـه عن التعرض للسفن المغربيـة التي كانت تقصـد الجـزائر وتـونس...

---

10) د. التازي : الوّجود المغربي في أمريكا اللاتينية، محاضرة بمهرجان أصيلا ـ جـامعـة المعتمـد بن عباد الصيفية 1985.

كانت أحدهذه الرسائل بتاريخ 23 جمادى عام 920 = 1514، وكانت الأخرى بتاريخ 28 ذي القعدة من نفس العام...

لقد تنفس المغاربة الصعداء في إثر المقاومة العنيفة والهجمة الشرسة التي قام بها أبو عبد الله محمد الشيخ ضد الوجود البرتغالي في أكادير ايغير عام 947 = 1541، إذ ذاك تساقطت أوراق الاستعمار الواحدة تتلوها الأخرى...

وكان الفضل في هذه المرة إلى مادة هامة وصل المغاربة بفضلها إلى شراء الأسلحة النارية، حيث قابلوا البرتغال بنفس السلاح الذي كان يستعمله، وكان يعتقد أن أحدا لن يصل إليه...

إن تلك المادة الهامة التي أشرنا إليها... هي التي كانت أيضا وراء انتصار السعديين في وقعة وادي المخازن... وكذلك وراء تمكنهم من عبور الصحراء على طولها للقضاء على امبراطورية سنغاي التي كان تحاول تطويق المغرب من الجنوب بمساعدة دولة أجنبية عن افريقيا..!!

ولعلنا نتساءل عن تلك «المادة الهامة» التي لم تكن غير السكر المغربي الذي كان على ذلك العهد بمثابة البترول قبل أن تنزل أسعاره..!

وان التاريخ الدولي للمغرب ليسجل لقطات في مساره تعتبر من أروع اللقطات التي عرفتها أمة من الأمم...

إنه يسجل تلاحم النضال ـ ضد البرتغال بين أطراف المحيط الأطلسي وأطراف الخليج العربي هذا التلاحم الذي يعبر عنه الشعر الذي هنئ به

الحمد لله وحده

السلطان كبير الحكم والعظيم في قومه ودولته والعالي في زمانه أمير المؤمنين
دون نجير سلطان برتكال وما انطاق إليهما من البلاد ودولا وهداه الله ووفقه
بما يحبه ويرضاه السلام على من اتبع الهدى ورحمة الله أما بعد فنحن
على ما تعلمونه من الصفا وحسن الاعتقاد وغرضنا أن تكون الكتابة بيننا
مترددة والحوائج متأكدة وإن بيانه عنا مما عندنا لا ما يسوءكم ويرضيكم كما
يعرفكم خديمكم سبستيان ومما نعرفكم به أن عزمنا على إرسال جيوش من أجفاننا
بالبسا من الجزائر ومن هناك لتونس فتريدون أن تأمروا أن جراقيم لا يتعرضوا
عليه برا وبحرا حيث ظهر من بلاد الشرقية هذا غرضنا وإن كانت حوائجنا
عندكم وأتونا بالجواب مع خديمكم وخديمنا الواصل إليكم والسلام على
من اتبع الهدى كتب في 23 من جمادى عام 920 للهجرة

أطال الله [illegible]

عن كتاب : التاريخ الدبلوماسي للمغرب
تأليف : د. عبد الهادي التازي
مطبعة فضالة (المحمدية) 1406 = 1986.

الحمد لله وحده السلطان الكبير في قومه ودولته

في زمانه وأهل ملته الكنك دانمرك عظيم سلطان بجزيرته

وما انضاف إليها من البلاد والأوطان هداه الله ووفقه لما يحبه

ويرضاه سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله أما بعد

فإنا على ما تعلمونه من الصلح وحسن الاعتقاد وغرضنا أن يكون

الكتاب بيننا مستمرا وقطاع الخوارج منا ليس وإن سألتم عن

جماعة عندنا مما ... من أسركم ... كما تعلمون

إنما هم ... على جنس من الجمانت

... من البلاد الغربية ... تونس وغرضنا منك

أن تصرف لنا أمانكم وأمان ... وخلا منا

أن ... على ... برا وبحرا حيث

... من البلاد المشرقية ... غرضنا وأكد علينا عشرة

... الموافق لكم ... والسلام

على من اتبع الهدى ...

أعظم الله

محمد ...

... شوال ...

العاهل المغربي في أعقاب معركة وادي المخازن :

فكم هنأت أرض الفرات بك العلا
وطارت بك البشرى لأرض عمان !

بل إني لأتسائل عن السر في وجود بعض البيوت هناك مما يوجد لها أصول هنا على نحو ما نرى في أسرة الهنائي التي كانت بارزة أيام الاحتلال البرتغالي لأزمور...

أسئلة تنتصب أمامنا لا بد أن نبحث عن جوابها من خلال ما كان يجمعنا أيام محنة البرتغال... إن الذين يكتبون تاريخ عمان وتاريخ البحرين لا بد لهم أن يرجعوا لقراءة تاريخ أزمور، أو بالحرى تاريخ الوجود البرتغالي ببلادنا والعكس صحيح، على المغاربة أن لا يحاولوا كتابة تاريخ هذه الحقبة دون أن يبحثوا عن انعكاساتها في منطقة الخليج.

ومن ثمة وجدناهم ـ بعد الجلاء ـ يبرمون اتفاقية أيام السلطان عبد الله الغالب بالله عام 969 = 1562، مع قائد أزمور تقضي بتقديم عشرين ألف شابلة من وادي أم الربيع ! ينبغي أن نتصوروا ماذا يعنيه هذا العدد الوافر من الشابل... سواء من حيث التقنية المغربية في باب الصيد، أو من حيث الثروة السمكية التي كان ينعم بها المغرب...

لقد وقف الكونت هنري دوكا ستري بإمعان أمام مثل هذه الاتفاقيات على نحو ما استوقفته مفاوضات أخرى بين الملك هنري الثالث، وبين السلطان أحمد المنصور عام 1579 حول تسليم فرنسا أربعين ألف قنطار من النحاس في مقابلة مبالغ سخية من المال !!.

وإنـه عن طريـق هـذه الأمـوال أخـذت أزمـور تسترجـع سحنتهـا الإسلاميـة التي ضيعتهـا أيـام الاحتلال حيث رأينـا أن الكنيسـة تعـود إلى سابق العهـد فتمسى مسجـدا عتيقـا وحيث رأينـا أن القصبـة عـادت إلى مـا كانت عليه...

وأخـذ المواطنون العبرة من المـاضي فكانـوا يحتـاطـون بـالرغم ممـا كان يفاجئهم بين الفينة والأخرى من عمليات قرصنة أو سلب أو نهب !.

لقـد كان من عمليـات السطو التي شهـدتهـا أزمور مـولاي بـوشعيب ـ ومعاهدات الصلح بين الطرفين قائمة ـ أن طـائفـة من المرابطين بهـا تعرضوا لعملية قرصلة وأخذ أبناؤهم رهائن إلى أن تسلموا الفداء المفروض !!.

ويتعلق الأمر بالشيخ أبي محمد عبد اللـه الكوش والشيخ أبي محمـد ابن ساسي والشيخ أبي عبد اللـه محمـد كانون... الـذين اختطفوا من قبل كتيبـة يقودها لويس دي لورير و(Louis de lorero) الذي طالب بألفي دكة !.

بالمناسبة أذكر أن أحد هؤلاء الأسرى وهو عبد اللـه الكوش عـاد من الأسر وهو يحمل معه مخطوطة سلمتها لـه المرأة البرتغـاليـة التي كان محجوزا عندها : ويتعلق الأمر بكتاب «تنبيه الأيـام» الـذي دخل الخزائن المغربيـة لأول مرة عن طريق هذا الأسير الأزموري[11]...

الطريف في الحديث عن ذلك النضال المرير والمتواصل أنه كان يدفع بالمواطنين في هـذه المنطقـة إلى ممـارسـة مختلف أنواع الريـاضـة فهنـا عرف القنص بالصقر فترات ازدهـاره، حيث رأينـا العـاهل المغربي محمـد البرتغـالي

---

11) استعصى علينا الوقوف على هذا المخطوط في الخزائن المغربية سواء منها العامة أو الخاصة.

يقوم برحلات صيد بالطير الحر مع عدد من الفقهاء والعلماء... أثناء تحركه في المنطقة لتحريرها من البرتغال على ما يذكره الحسن الوزان... أي قبل ولوع دول الخليج بهذه الهواية بعدد من القرون.

وهنا أنواع المصارعة حيث كانت تنظم مباريات بين الأبطال المغاربة وبين الأبطال البرتغاليين على الحدود، وما أظن أن المباراة التي جرت بين الشاب الأزموري مولاي حدو عشيق إحدى حسناوات أزمور وبين[12] منافسه البرتغالي ببعيدة عنكم، سيما وهي تحكي عن إسهام السيدة الأزمورية في قضايا النضال الوطني[13]...

وهنا أنواع لعب الكرة، أقول أنواع لعب الكرة وأنا أعني ما أقول... وحسبنا أن نرجع لما كتبه الأجانب الذين زاروا هذه المنطقة في الماضي من أمثال (دوأمسيس E. de Amicis) ودوطي (Doutté).

ولابد أن نشير إلى أن المغاربة عرفوا بالتأليف حول لعبة الكرة منذ القدم، ألفوا عنها بالنظم والنثر، وكأنهم كانوا يتوقعون ما عرفته بعض ساحات لعب الكرة في أوربا من ضرب وعنف، حيث نرى أحدهم يقول :

ولعب الكرة ليس مذهبي   إذ فيه للقتال أقوى سبب
يدنس المروءة الحصينة   ويطرد الوقار والسكينة
فما رأيت فيه شيئا يحمد   فترك فعله لدي أحمد !

---

12) يتساءل هل لضريح سيدي أوحادو بين أزمور والبحر صلة بالبطل الذي شارك في تلك المباراة.

13) د. التازي : البحر المتوسط كقاعدة للإخاء والسلام، الدورة التاسعة لألعاب البحر الأبيض المتوسط ـ الدار البيضاء 1983.

لا أدري كيف أن أزمور كانت مهوى الأفئدة حتى من الذين لا ينتسبون لدين مولاي بوشعيب ! حيث نقرأ أنها ما انفكت عبر التاريخ وفي أيام استقلالها على الخصوص ـ تحتضن عددا من اليهود والمسيحيين كانوا يجدون فيها الملاذ الذي يوفر لهم الراحة والاطمئنان إلى جانب المتعة والنزهة، ولا بد أن نتساءل عن تاريخ وجود ربي ابراهام مول نيس : (Rbi Abraham Moul Niss) ؟ ؟.

لقد عاشت أزمور طوال التاريخ مطلوبة لا طالبة، مرغوبة لا راغبة وذلك يدل على مركزها ومكانتها، ومن تمث وجدنا أن الملوك والاشراف سواء كانوا على العهد السعدي أو العلوي ما انفكوا يعتبرونها مصنعا للرجال والأبطال، ويعتبرونها موردا نظيفا للرزق الحلال !.

وبالرغم من أن استرجاع مدينة الجديدة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1769 قد أثر بعض الشيء على تاريخ أزمور إلا أن ملامح السيدة الجميلة تظل ملامح ناطقة بالفتنة والجمال بالرغم من تقدم العمر وعوادي الزمن... وهكذا فلم تحجب العيون عن أزمور، ولم يغب ذكرها عن الأسماع، وحسبنا دليلا على ذلك أن الشفرة المغربية التي استعملها المخزن منذ القرن الماضي جعلت لها رقمها الخاص الذي هو 240 فلم يبلعها رقم الجديدة الذي هو 239 ولا حتى رقم الدار البيضاء الذي هو 241.. لقد ظلت وسطا بينهما وخير الأمور الوسط كما يقولون...

لقد ظلت أزمور يقظة واعية بسبب ما مر بها ولو أنه لم يطل ومن ثمت وجدنا أحد الأروبيين العارفين، وهو دوطى، (Doutté) الذي زار أزمور

في بداية هذا القرن يحكي ـ أنه كان يسمع بأذنيه كل ما مر بزقاق من أزقتها وراه أزموري أو أزمورية، كان يسمع أنهم يقولون : «ينعل بوك» !.

إن الإحتلال الأجنبي خلف فيهم حساسية ضد كل دخيل، ولم تفارقهم تلك الحساسية إلا عندما استرجع المغرب جميعه استقلاله على عهد المغفور له جلالة الملك محمد الخامس رضوان الله عليه وأصبحوا يشعرون أنهم يعيشون أحرارا في وطن حر... بل أن بلدتهم أزمور ظلت وتظل شاخصة في الذاكرة... ذاكرة القاعدة بل وذاكرة القمة !

لقد شعرت بأن قلوب الأزموريين كانت تخفق قبل أربعة أشهر وهم يستمعون إلى العاهل الكريم جلالة الملك الحسن الثاني يشيد ببلدتهم على مرأى ومسمع من المهندسين المعماريين المغاربة، يشيد باحتفاظها بطابعها الأصيل الجميل... :

«إن المرء ـ يقول جلالة الملك ـ لا يمكنه أن يتيه إذا ما وضعناه في أزمور، يكفي أن يرى وادي أم الربيع والأسواق العتيقة ليعرف بأنه في المغرب، وليدرك أنها من المدن الشاطئية التي كانت بها قصبات بناها الملوك المغاربة...».

إن هذه الكلمات النيرات من جلالته هي التي كانت وراء المقارنات والمفارقات بين آزمور الأمس وأزمور اليوم... وهي بالتالي التي جعلتني أسعى في إثراء ملفي حول المنطقة سواء على الصعيد المحلي أو الصعيد الخارجي...

وإن على أبناء أزمور تقع تبعة جمع أطراف ذلك التاريخ المجيد لا لمجرد المؤانسة والمتعة ولكن للإستفادة منه لبناء المستقبل الذي ينتظر بلادهم...

لقد كانت أزمور بالنسبة إلي ظاهرة تستحق الوقوف عندها بما يضمه تاريخها من تنوع وتجدد فهي مدينة الإبتكار والخلق، وهي مدينة التجارة والصناعة، وهي مدينة العلم والمعرفة، ومدينة الجمال والحب، ومدينة الصلاح والتقى، ومدينة المجاهدين والمرابطين.

لقد كانوا يقولون : لكل مكان من اسمه نصيب، وقياسا على ذلك، فإننا نعتقد أن أزمور ستظل غصن الزيتون الذي يحمل معه الأمن والسلام وستظل رباطا ينجب المجتهدين والمجتهدات الذين يحلقون كما حلق لهم أجداد من قبل ويسبحون كما سبح لهم أجداد سابقون من قبل ليصلوا في خاتمة المطاف إلى تسليم القبس للاحقين الذين يأتون فيكونون بذلك أمتن حلقة بين البداية والنهاية.

الرباط **د. عبد الهادي التازي**

نماذج من مساهمات مكناس وناحيتها
في مبادرات الانبعاث المغربي عند مطالع العصر الحديث(*)

محمد المنوني

عرف المغرب في مطالع العصر الحديث حركة تغيير بدأت باحتلال الشواطئ على امتداد المتوسط والمحيط، وتبع ذلك وقائع نقل الحكم من الوطاسيين إلى السعديين، ثم كان من سياسة التدخل البرتغالي العمل لاستفزاز المومنين في عقيدتهم، فضلا عن محاربة الأخلاق وإضعاف الاقتصاد بتسريب المواد المخدرة، لتسلب المغاربة من أموالهم وعقولهم وشجاعتهم.

وإزاء هذا الوضع بادر المغاربة لمقارعة المد الأجنبي ورواسبه، وانتظموا في تجمعات كان معظمها يضطلع بالجهاد على المستوى الرسمي أو الشعبي، بينما تصدت جماعات للدعوة إلى تصحيح الإسلام وتثبيت العقيدة،

---

*) مساهمة الكاتب في ندوة مكناس الأولى : السبت الأحد 2 ـ 3 نونبر 1985.

إصلاحا للأخلاق، وإعدادا للجهاد[1]، وإلى ذلك هب فريق من العلماء لمقاومة بدع نبغت، دون إهمال العمل لتطوير الدراسات المعرفية، وبخاصة في مادة الرياضيات والفلك والتاريخ.

فهي أربع مبادرات، كنماذج من تحركات المغرب إزاء التغيير الذي واكب بدايات العصر الحديث :

- فكان الجهاد ضد الغزو الصليبي.
- ودونت رسائل وفتاوي تصديا للبدع المستجدة.
- وبرز شيوخ الدعوة والإرشاد.
- وانبعثت دراسة الرياضيات والفلك والتاريخ.

وهدف هذا التدخل تبريز مدى مساهمة منطقة مكناس في هذه المبادرات، انطلاقا من القرن الهجري العاشر حتى أواسط الحادي عشر، أو القرن 16 إلى منتصف السابع عشر، وذلك يوازي معظم العصر الوطاسي والعصر السعدي. مع ملاحظة أن المصادر التي تؤرخ لمكناس في هذه الفترة مفقودة بالمرة، والأخبار التي نسوقها يأتي أغلبها - عرضا - في مؤلفات تتناول اتجاهات تاريخية تتصل بجهات أخرى.



☆ ☆

1) من المعروف إسلاميا ارتباط النصرة في الجهاد بقوة الإيمان، وذلك ما يذكر به أحد قادة هذه الفترة وهو يحض على تصحيح العقيدة : الشيخ عبد الله الهبطي في أرجوزته «الألفية السنية..» - مخطوطة خاصة - فيخاطب المعنيين بدعوته قائلا :

«والله لم ير لكم من نصرة مادام في الفؤاد جهل بالله...»

ونصل ـ الآن ـ إلى المبادرة الأولى، فنمهد لها بقولة للناصري[2] عن مسار الجهاد بالمغرب في هذه الحقبة : «ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين، واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله، وأعملوا الخيل والرَّجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا، وكم من ولي أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا، حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون، وبلغ الله ـ تعالى ـ جميعهم من الثواب ما يرجون»، ثم سمى جماعة ممن استشهدوا، وذكر بينهم أبا الفضل فرج المكناسي.

وهكذا نتبين من فقرة الاستقصا نظرة عامة على مساهمة المغرب في المعركة المقدسة، ونحاول ـ بعد هذا ـ أن نستخرج ما حافظت عليه المصادر عن دور منطقة مكناس في ساحة الجهاد حسب خمسة نماذج :

1 ـ بدءا من مشاركة المجاهدين منها في موقعة إنقاذ حصن المعمورة (المهدية) ـ سنة 1515/921 ـ بقيادة الناصر الوطاسي، حيث مني البرتغاليون بهزيمة ساحقة سجل تفاصيلها المؤرخ الكراسي[3].

2 ـ وعن معركة وادي المخازن سنة 986/«1578» : نشير إلى رسالة من السلطان السعدي عبد الملك إلى أخيه أحمد المنصور، وكان نائبه على

---

2) «الاستقصا» دار الكتاب، الدار البيضاء 1955 : 111/4.

3) أرجوزة «عروسة المسائل، فيما لبني وطاس من الفضائل» المطبعة الملكية، الرباط 1963/1383 : ص 24.

فاس وأعمالها : (مكناس وغيرها)، وفيها يأمره بأن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ للقتال.

ثم كتب إليه في شأن تموين الجيش رسالة جاء فيها : «هذا وإنه ساعة وصوله إليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناس، وقبيلة زمور، وأولاد جلول : من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها، ويأمرهم برفعه وإبلاغه إلى مدينة سلا..[4]».

3 - ولما نادى الإمام سيدي محمد العياشي بالجهاد كان الرأي العام من سكان مكناس يقدمون له كامل المعونة، فيخاطبهم في إحدى رسائله سنة 1632/1041«...كما حمدنا الله لكم على ما اعتنيتم به من أمور الأعشار، والمسارعة إلى جمعها والبدار، والاحتياط عليها حتى تصرف مصارفها الشرعية، ويقام فيها بحقوق المسلمين، فنعم ما استغنى به الموفقون، ونعم ما تسارع إلى تأديته المتقون... ولكم من ذلك مزيد المصلحة في جمع أعشار الزرع والزيتون، وحياطتها في المكان المأمون المصون : أنكم متى توجهت عزائمكم إلى الجهاد، والتأهب له والاستعداد : وجدتم من ذلك عونا حاضرا موجودا، ووردا من التيسير موردا، ومتى اجتاز بكم جيوش المجاهدين، وكان قد طلعت عليكم طلائعها ناهضين، فحلوا بناديكم، تلقيتموهم بأموال الله التي في أيديكم..[5]».

وتشير الفقرة الأخيرة من الرسالة إلى جيوش المجاهدين مع العياشي من أحواز مكناس، لتدلل على مبلغ مشاركة المنطقة في الحركة العياشية.

---

4) «الاستقصا» 79/5.

5) «الحركة العياشية» تأليف د. عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1982 : ص 250.

4 ـ ومن الجدير بالملاحظة أن الخطباء سيكون لهم دور فعال في بث الدعوة للجهاد، وإيقاظ العزائم للدفاع، وقد توفرت المدينة ـ المنوه بها ـ في هذه الفترة على زمرة من الخطباء المرموقين :

أ ـ ويأتي في طليعتهم العالم الشهيد : أبو علي ابن حرزوز، تـ 960/«1553»، ويقول عنه ابن عسكر[6] : «لم ير بالمغرب خطيب أفصح منه، ولم يكرر خطبة قط».

ب ـ وبعد استشهاده خلفه الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بصرى، تـ 991/«1584»[7]، وهو الجد الجامع لأسرة بصري العالمة بمكناس.

ج ـ وكان الذي خلفه هو العالم محمد العربي بن محمد بن محمد الغماري، تـ 1002/«93 ـ 1594»[8].

د ـ ثم لمع إسم أبي الحسن علي البياضي، تـ 1012/«03 ـ 1604»، وكان خطيب بلدته مدينة بلش بالأندلس، ولما انتقل إلى المغرب استوطن مدينة مكناس وصار خطيبها[9] بالمسجد الأعظم.

---

6) «دوحة الناشر...» دار المغرب، الرباط 1976/1396 : ص 82.

7) ترجمته عند الفشتالي في «مناهل الصفا..» : السفر الثاني مطبعة ومكتبة عصرية بالرباط 1973 : ص 224، ونقلها الأفراني في «صفوة من انتشر..» ط.ف ص 65، وله ترجمة موسعة عند حفيده محمد العربي البصري في «منحة الجبار..» مخطوطة خ،س 11286، ثم عند ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس...» 28/4 ـ 34.

8) تعددت مصادر ترجمته : ابن القاضي في كل من «المنتقى المقصور...» مخطوط خ. ع، د 1057 : ص 300. و«درة الحجال...» نشر دار التراث بالقاهرة : رقم 692، مع «لقط الفرائد..» ضمن «ألف سنة من الوفيات» دار المغرب، الرباط 1976/1396: ص 327، ثم القادري في «نشر المثاني...» دار المغرب 1978/1398 : 41/1، وفي «الإكليل والتاج...» مخطوط خ.س 1897، وأخيرا : ابن زيدان في «اتحاف أعلام الناس...» 39/4.

9) أورده ابن القاضي في كل من «درة الحجال» رقم 1219، و«لقط الفرائد» ضمن ألف سنة من الوفيات ص 280، وهناك معلومات أخرى عن حياته سترد بالملحق الثاني.

5 ـ يضاف للمبادرات الجهادية إشارة ـ في «مناهل الصفا»[10] ـ لإسم الحاج الفلوسي من أهل مكناس، وكان يساهم في فداء الأسرى من إسبانيا، إلى أن تورط في عملية اعتقله الإسبان بإثرها في سبتة، حتى سعى في فدائه المنصور السعدي.

وستكون هذه الإشارة خامسة النماذج الدفاعية التي حافظت عليها المصادر، ومن المؤكد أن ما أغفلته يوازي أضعاف أضعاف المذكور، نظرا للفجوات الزمنية بين الوقائع المعروضة، مع العلم بأن جنود مكناس يشهد لهم الحسن الوزان[11] بالشجاعة.



☆ ☆

ومن الأحداث التي عرفتها هذه الفترة معضلة النزاع بين الوطاسيين والسعديين، فتنتدب جماعة من أهل الغيرة للدعوة إلى الصلح بين الحاكمين : أحمد الوطاسي وأحمد السعدي، ولإبرام الصلح تحضره جماعة من العلماء والصلحاء، فيهم من فاس قاضيها علي بن موسى بن هارون، ومفتيها عبد الواحد الوانشريسي، وغيرهما[12]، ويتدخل من مكناس عالمها أحمد بن محمد الحباك[13]، والشيخان أبو حفص عمر الخطاب، وأبو الرواوين، وهذه

---

10) ص 230 ـ 231، ويضاف لهذه المبادرة التي تعلق عليها إشارة أخرى عند ترجمة الشيخ عمروالحصيني في «ممتع الأسماع...» ط.ف 1305 ص 4. م8.

11) «وصف إفريقيا» : الترجمة المغربية، دار الغرب الإسلامي في بيروت 1983 216/1.

12) «نزهة الحادي...» للأفراني طبعة مدينة أنجي 1888 ص 21.

13) «درة الحجال» رقم 135، و«جذوة الاقتباس» دار المنصور ـ الرباط 1973 : رقم 72، مع «إتحاف أعلام الناس...» 316/1.

المبـادرة هي المعروفـة بـاسم «صلـح بـوعقبـــة»، حيث وقعت حـــدود سنـــة 1533/940 ـ 34[14].

☆

☆ ☆

ونتبين من هذا النموذج وسابقه مواقف دفاعيـة وسيـاسيـة من إحـدى مدن المغرب، أداء للحق المفترض في مواجهة الأزمـات التي حـاقت بـالبلاد، ونعقب بذكر تدخل المـدينـة ذاتهـا في بعض الوقـائع الاجتماعيـة التي جـدت على الساحة المغربية.

أ ـ ومنها بدعة طبقية ثـارت سنـة 1527/934، وصـارت ترمي إلى تحقير الإسلاميين حديثي الـدخول في الإسلام من أصل يهودي، حيث منعهم تجار القيسارية الكبرى بفـاس من الاعتمار بهـا، وشـايع هؤلاء بعض المفتين، غير أنـه تصـدى لنصرة الإسلاميين جمهـور العلمـاء من فـاس ومكنـاس : في فتاوي صدرت عن ثلاثة عشر فقيهـا، والرابع عشر هو محمـد بن علي الخروبي الطرابلسي زائر فـاس ءانـــذاك، وبين المفتين المنـوه بهم يـوجـد خمســة من مكناس : أحمد بن محمد الحباك، ومحمـد الوقـاد، وأبو علي بن أحمـد بن إبراهيم حرزوز، وعبد الرحمن بن أحمد الوفاد، وعبد الله ابن القاضي.

أما المجيبون من فـاس فهم عبـد الواحـد الوانشريسي، ومحمـد بن أحمـد اليسيتني، وعبد الوهاب بن محمد الزقـاق، ومحمـد القوري، وعلي بن موسى بن هارون، ومحمد بن يحيى، وأحمد التسولى، وأحمد بن محمد بن أبي جيدة الوهراني مستوطن فاس.

---

14) «ممتع الأسماع» ص 6. م 7، مع «نزهة الحادي» ص 20 ـ 21، «والاستقصا» 151/4 ـ 152.

وقـد جـاء ضمن فتـوى ابن حرزوز عن الإسـلاميين. بمكنـاس : «...وفيهم جماعـة من حماة الإسلام، ينـاضلون عن دين النبي عليـه الصلاة والسلام، ويبـذلون أمـوالهم وأنفسهم في رضى الملـك العـلام»[15]، وهي فقرة تلوح إلى مشاركة هذا الفريق من سكان مكناس في الدفاع عن البلاد.

ب ـ ومن هذه البدع انتشار مـادة التبغ، فتتعـارض فيهـا الأنظـار بين المنع والإباحة والتوقف، وتتكاثر فيها المقيدات والفتاوي، ومنهـا رسـالـة تستعرض عشرة أسماء من فريق المانعين، بينهم عالم مكناس عبـد الرحمن ابن عثمان، وبـاقي الأسماء فيهم القـاضي أبو سـالم الكـلالي، وقـاضي فـاس ابن أبي النعيم، والشيخ عبد الرحمن بن محمـد الفـاسي، ومحمـد الشريف البوعنـاني جـد مؤلف الرسالة التي عرضت هذه الأسماء وسواهـا : عبـد الواحـد بن محمـد بن محمد البوعناني، وفرغ من تأليفها بتاريخ 5 رجب 1619/1028[16].

☆

☆ ☆

ننتقل ـ بعد هذا ـ إلى نقطة مقاومة الانحراف العقائدي، وقد تصـدى لهـا شيـوخ الشـاذليـة بـالمغرب، وقبـل أن نصـل إلى دور مكنـاس : نقـدم توضيحا يشير إلى أن هذه الحقبـة شهـدت ظهور طريقـة الإمـام الجزولي : محمد بن عبد الرحمن بن سليمـان السملالي الحسني دفين مراكش، والمتوفى سنـة

---

15) التفاصيل عند محمد ميارة في «نصيحة المغترين...» مخطوط خاص، وفي الملحق الثـالث يـأتي النص الكامل لفتوى ابن حرزوز.

16) «الرسالة» ضمن مجموع مخطوط في مكتبة خاصة بمراكش.

870/«1465»[17]، وكان من تعاليه لأصحابه تعريفهم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، ولذلك جعل بين أذكارهم التي يرتلونها يوميا : تلاوة حزب الفلاح والعقيدة الجزولية، ولترسيخ هذه الأوراد صار يربي مريديه بتلقينهم التوحيد من قصيدة أبي الحجاج الضرير في مادة الاعتقادات[18]، وعلى العموم صار أتباع الشيخ الجزولي على خطته، فيقول محمد المهدي الفاسي[19] عن حزب الفلاح وإضافاته : «والحزب برمته من شعار أتباع الشيخ والمنتسبين إليه ووظائفهم وأورادهم : يقرءونه بعد صلاة الصبح».

وهذا العمل لا يزال يحافظ عليه أتباع طريقة الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى دفين مكناس سنة 26/933 ـ 1527، فيواظبون على قراءة العقيدة الجزولية وملحقاتها في سائر الزوايا على امتداد الشمال الأفريقي. مع العلم بأن ما ألصق بهذه الطريقة من بدع : مناقض لخطة شيخها، وقد كان

---

17) يصف ابن أبي محلى هذه المدرسة بـ «الطريقة النقية الجزولية الشاذلية... لم تشب منذ صفا وردها، ولم تغب قط وإن تقادم عهدها»، حسب «الإصليت» مخطوط خ.س 100 ورقة 1/9، وفي «تعبير آخر لنفس المصدر : «وعصمت شيعته من نزغات الشيطان، وحفظت طريقته من طوارق المبتدعة وسوارق الكهان» : ورقة 1/8. وفي تعبير الشيخ الجزولي نفسه : «دولتنا دولة المجتهدين، المجاهدين في سبيل الله، القاتلين أعداء الله»، ممتع الأسماع» ص 5 م 1.

18) «دوحة الناشر» ص 98، ونقله في «ممتع الأسماع»، ص 2 ـ 3.م 3، وأبو الحجاج الضرير، له أرجوزتان : صغرى وكبرى، حسب عياض في «الغنية» دار الغرب الإسلامي في بيروت : ص 226، وواحدة من الأرجوزتين من مخطوطات خ.ع، د 2123، خ ع، ج 334. أما حزب الفلاح والعقيدة الجزولية، ومضافاتها : فيوجد جميع ذلك منشورا ضمن بعض الرسائل في مناقب الشيخ محمد بن عيسى.

19) ممتع الأسماع ص 4. م 4، ونضيف قولة لمحمد العربي الفاسي عن «حزب الفلاح» للجزولي : «والتزمه أتباعه، وشاع عند غيرهم كثيرا»، «مرءاة المحاسن...» ط.ف ص 64، ونقله في «ممتع الأسماع» ص 6 ـ 7. م 4.

ـ دائمًا ـ ينادي : «السنة تجمعنا والبدعة تفرقنا»[20]، وما طرأت هذه البدع ـ فيما يظهر ـ إلا في أيام الفوضى التي أعقبت انهيار السعديين[21].

وبالأضافة إلى هذا الشيخ احتضنت منطقة مكناس مجموعة من المرشدين من مدرسة الجزولي، ويأتي ـ على رأسهم ـ تلميذه مباشرة : الشيخ أحمد بن عمر الحارثي السفياني[22]، وهو المربي لكل من الشيخ الكامل والشيخ عمرو بن مبارك الحصيني[23].

ويقال إن الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى خلف ستمائة شيخ[24]، ومنهم بمكناس : الشيخ أبو الرواوين : محمد أو أحمد بن حسين العبدلي

20) هذا مذكور في بعض رسائل مناقبه، ثم سار عليه الشيوخ من أبنائه، فيثبت الكانوني أربع رسائل صادرة عن جماعة من أبناء الشيخ محمد بن عيسى، إلى مقدم الطائفة العيساوية بمراكش وأحوازها أبي العباس أحمد بن عمارة العامري التاستاوتي السرغيني، وفيها الحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن بعض توجيهاتها : «ثم إياكم ومخالطة الأحداث والنساء، فطريق أشياخنا مبنية على السنة واتباع السلف الصالح، وترك البدعة، ومحبة الصالحين وأهل العلم، والتزام الصلاة في أوقاتها»، وجاء في ختام الرسالة الرابعة : وكما قال الشيخ : «السنة تجمعنا، والبدعة تفرقنا، والسلام، وفي أواسط ربيع النبوي سنة 1157»، «جواهر الكمال...» المطبعة العربية ـ الدار البيضاء 1356 هـ : ص 86 ـ 92 : تعليق.

21) مما يؤكد هذا أن ابن عسكر لا يذكر شيئًا من بدع هذه الطريقة عند ترجمة صاحبها في «دوحة الناشر» ص 75 ـ 76، وكذلك ابن أبي محلى في «الاصليت» ورقة 1/10.

22) ترجمته في «دوحة الناشر» ص 74 ـ 75. «ممتع الأسماع» ص 1 ـ 3. م 5. «إتحاف اعلام الناس» 322/1.

23) ترجمته بالمصادر الثلاثة ص 101، ص 3 ـ 4. م 8، 495/5 ـ 496، قال في ممتع الأسماع عن المترجم : «أخذ عن الشيخ الحارثي والشيخ التباع، ولا أدري لمن ينتسب منهما». ومن أصحابه الشيخ أبو الحسن علي اللهبي، حسب نفس المصدر ص 5 م 24 مع ص 4 م 4.

24) رسالة مخطوطة في مناقبه، مؤلفها غير مذكور، وانظر عن الزاوية العيساوية بتونس : محمد البهلي النيال، في «الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي»، نشر مكتبة النجاح بتونس 1965/1384 : ص 335 ـ 336.

السهلي[25]. وبناحيتها الشيخ محمد بن عمرو بن داود المختاري[26]، دفين وادي الكل بجروان الجنوبية، وهو عمدة الشيخ أبي عبيد محمد الشرقي[27].

ثم الشيخ محمد الشباني المختاري[28] دفين جروان الشمالية.

والشيخ موسى بن علي المختاري بأحواز مكناس، وله شهرة وأتباع[29].

ومن المعاصرين للشيخ الكامل،الشيخ الكبير الشأن : أبو عثمان سعيد بن أبي بكر المشنزائي المـاكَري القرشي المخزومي[30]، وهو شيخ أبي حفص عمرو بن محمد بن عوادة العثماني[31].

وحتى نتبين دور هذه الأسماء في الهداية والإرشاد : نعلق بارتسامات عن عدد من هؤلاء الأشياخ يسجلها ابن عسكر :

---

25) ترجمته في «دوحة الناشر» ص 79 ـ 81، مسميا له بمحمد، مع «ممتع الأسماع» ص 7 ـ 8.م 13، مع ص 3 ـ 5. م 14، مسميا له بأحمد، ثم في «إتحاف أعلام الناس» 27/24/4.

قال عنه ابن عسكر : «كان هذا الشيخ من عجائب الدهر على طريق الملامتية»، وفي هذا الصدد نحيل على تحليل ابن أبي محلي للجذب في أقسام ثلاثة، حسب نقل محمد العربي البصري في «منحة الجبار» : المخطوطة السابقة الذكر : ص 226 ـ 227، ويحدد محمد المهدي الفاسي موقع دار سكناه بمكناسة : فيما بين درب أبي علي حرزوز والمسجد الأعظم، «ممتع الأسماع» ص 4. م 14.

26) ترجمته في «دوحة الناشر» ص 83 ـ 84 «ممتع الأسماع» ص 5 ـ 6. م 14.

27) المصدر الأخير ص 8. م 16، مع «الاستقصا» 193/5.

28) أورده في «ممتع الأسماع» ص 7. م 14، وانظر عن الشبانيين أهل ناحية مكناس : «الدر البهية» لإدريس الفضيلي، ط.ف : 142/2.

29) «ممتع الأسماع» ص 6. م 14.

30) ترجمته في «دوحة الناشر» ص 77 ـ 78 «ممتع الأسماع» ص 2 ـ 5. م 13.

وهو من الآخذين عن أبي عثمان سعيد الداعي الدغوغي، عن التباع، عن الجزولي.

31) ذكره في «ممتع الأسماع» ص 4. م 19، وترجمته في إتحاف إعلام الناس 497/5.

فالشيح سيدي أحمد الحارثي : هدى الله به أمة عظيمة، ومشايخ الصوفية يعظمونه غاية التعظيم، ويئنون عليه بالثناء الجميل[32].

والشيخ سيدي محمد بن عيسى : أحد المشايخ الذين يقتدى بهم، ويهتدى بهديهم[33].

والشيخ أبو الرواوين : يدفع كل موجود له للضعفاء والمساكين[34].

والشيخ سيدي محمد بن عمرو المختاري : حسن الأخلاق، غزير المعرفة، عظيم اليقين، كثير الأدب والتواضع، وله مناقب كثيرة ينقلها المرابطون من أصحابه وغيرهم[35].

والشيخ سيدي سعيد : يطعم الطعام، ويكفل الضعفاء والأيتام[36].

☆

☆ ☆

وإلى جانب الجزولية عاصرتها الطريقة الزروقية : مدرسة الشيخ زروق : أحمد بن أحمد بن أحمد (ثلاثا) بن عيسى البرنسي ثم الفاسي، تـ 899/«1493»[37]، ومن رجالها بمكناس وضاحيتها : الشيخ ابراهيم

---

32) دوحة الناشر ص 74.

33) المصدر ص 76.

34) المصدر ص 79.

35) المصدر ص 84.

36) المصدر ص 77.

37) يصفه ابن عسكر بالشيخ العالم المحقق المتصوف، وارث المقام النبوي، ومحيي شريعته، وناصر سنته... حسب «دوحة الناشر» ص 48، ويقول عنه أحمد بابا التنبكتي : «وهو آخر أئمة الصوفية المحققين، الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة»، «نيل الابتهاج...» المنشور بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ : ص 85.

الـزرهـوني المعروف بـأفحــام تلميــذ زروق مبــاشرة[38]، ثم الشيـوخ : عمر الخطاب[39]، وعبد الله الخياط[40]، وتلميـذاه موسى بن علي[41]، وعبـد اللـه الجزار[42]، والأربعة الأولون مدفونون في جبل زرهون، والخامس بمكناس.

ويقـول ابن عسكر[43] عن عبـد اللــه الخيــاط : «كان من مشــايـخ الصوفية، وأهل التربية النبوية... وكانت له أحوال سنية، وشعائر مرضية... وله أتباع صلحت أحوالهم».

وعند مصدر آخر :[44]. تربى على يده جماعـات كثيرة من الصوفيـة، وكان يقيم بزاويته من الطلبة الدارسين ما يبلغ عـددهم الألف ونحوه، وكلهم من حفاظ القرآن الكريم.



☆ ☆

38) ذكره في «جواهر السماط» في مناقب سيـدي عبـد اللـه الخيـاط لمؤلف غير مـذكور، مخطوط خ.ع، د 1185.

39) ترجمتـه في «دوحـة النـاشر» ص 85، مـع«ممتـع الأسماع» ص 5 ـ 6. م 7، ثم «اتحــاف اعـلام الناس» 494/5 ـ 495.

40) وضع مؤلف مجهول تأليفا موسعا في ترجمته، هو «جواهر السماط» المشار له وشيكا..

41) ترجمتـه في «دوحـة النـاشر» ص 84 ـ 85، مع «ممتـع الأسماع» ص 7 ـ 8، م 15. ثم «إتحـاف أعلام الناس» 369/4 ـ 370.

42) ترجمته في «جواهر السماط»، و«اتحاف أعلام الناس» 509/4 ـ 511.

43) «دوحة الناشر» ص 83.

44) «جواهر السماط»، ونضيف هنـا فقره من مرءاة المحـاسن يقول فيهـا محمـد العربي الفـاسي عن المترجم : «وهو من كبار المشايخ الذين نفع الله بهم، وكثرت الهداية على أيديهم، وكان كثير الأتباع للسنة، ويحضر مجالس العلم، ويحض أصحابه على التعلم» نقلـه في ممتع الأسماع ص 6. م 8.

وإلى هنا نودع الاتجاه الروحي لنعايش الحقائق العلمية، وبالضبط مع حركة البعث العلمي الذي مس الرياضيات والفلك، وازدهر في فاس ومراكش، وفي مكناس لمعت الأسماء التالية :

1 - إبراهيم بن الأكحل السويدي، تـ 1597/1006، يقدمه ابن القاضي في «درة الحجال»[45] بحلية الفقيه الفرضي الحيسوبي، وحيد عصره في علم الفلك والهيئة والتعديل.

ونفس المؤلف يوسع هذه الفقرة في كتابه الأخر : «المنتقى المقصور»[46] قائلا : وأما مكناسة الزيتون : فأخذت بها الحساب والفلك على أبي سالم إبراهيم بن الأكحل السويدي، داهية الإنسان، وفيلسوف الزمان، له عقل لفهم المسائل ثاقب، وعلى الحق والصواب ناقب، له قدم راسخ في التعديل والهيئة، ما أظن أحدا في زماننا - اليوم - يصله، حدثني شيخنا المنجور أنه أخذ عليه عمله، وقال لي : كانت المسائل في فنه تشكل على محمد الصغير بن الحاج[47]، ويوجهها له ويقول : السويدي لها، أو كلاما هذا معناه».

وإذا كان السويدي لم يدون معارفه الفلكية في كتاب، فإن تلميذه ابن طاهر - آتي الذكر وشيكا - يسجل عند افتتاحية وخاتمة شرحه لروضة الأزهار، أنه درس هذه الأرجوزة على أستاذه المنوه به، وكان يدون

45) رقم 278.

46) المخطوط السابق الذكر ص 300.

47) هو الموقت الكبير، العددي، الفيلسوفي، شيخ الجماعة في ذلك، حسب تقديم تلميذه المنجور في «فهرسته»، دار المغرب بالرباط 1976/1396 : ص 76.

توضيحاته لتعقيداتها في جذاذات. كانت المصدر الأول لشرح التلميذ على روضة الأزهار.

2 ـ أحمد بن عبد القادر بن طاهر الحسني الجوطي، كان بقيد الحياة عام 25/1035 ـ 1626، وهو مؤلف شرح أرجوزة الجادري : روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار» حيث أشير له قريبا، ولا يزال مخطوطا في نسخ معدودة :

ومنها واحدة : خ.ع، د 3268 : مستقل.

وثانية خ.ع، ك 991 : أول مجموع.

ألم يذكره محمد العربي البصري[48] في فقرة قصيرة ورد فيها : «كان فقيها حيسوبيا عارفا بعلم المواقيت، شرح روضة الأزهار للجادري شرحا مبسوطا جدا... وذيله بالكلام على ذوات الذوائب...».

3 ـ محمد الكامل : من الأسرة المكناسية المعروفة، وقد جاءت الإشارة له في ظهير للسلطان الرشيد العلوي بتاريخ 17 رجب 1664/1074، وهو صادر لولد المنوه به : حسين بن محمد الكامل موقت المسجد الأعظم بمكناس، فيوصيه الظهير بالجد والاجتهاد في خطته التوقيتية، **نظير ما كان عليه والده قبله**[49].

فتفيد الفقرة الأخيرة أن والده محمد الكامل كان يتقلد نفس الخطة بالمسجد الأعظم في مكناس قبل عصر الرشيد، ومن الواضح أن هذا التقليد يستلزم معرفة متميزة بالفلك وأعماله الحسابية.

48) «منحة الجبار» : المخطوط السابق الذكر ص 164.

49) سيرد نص الظهير عند الملحق الرابع.

وإلى هـذه الأسماء الريـاضيـة الفلكيـة : هنـاك إشـارة لإتقـان مـادة التوقيت وءالاته بنفس المدينة خلال منتصف القرن الهجري العـاشر، فيقول ابن عسكر[50] أثناء ترجمة من المدينة ذاتها : «مع أن بلادهم في غاية الإتقان من التوقيت وءالاته».

☆

☆ ☆

4 ـ وإضافة إلى هـذه الفئـة المختصـة في الـدراسـات العلميـة، نـذكر بعالمين انتقلا إلى فاس : ابن غـازي : محمـد بن أحمـد بن محمـد العثمـاني نزيل فاس، ت 1513/919.

وهو ناظم أرجوزة منية الحساب، ثم شارحهـا بـاسم «بغيـة الطلاب في شرح منية الحساب» : نشر المطبعة الحجرية الفاسية سنة 1317 هـ، في قطع متوسط يشتمل على 248 ص.

وقد نظم ابن غـازى المنيـة وهو لايزال بمكنـاس، حيث يؤرخ الفراغ من أصلها بسنة 874 هـ.

5 ـ الصبـاغ : محمـد بن أحمـد بن محمـد العقيلي، أصلـه من مكنـاس ونشأ بفاس، حسب الافراني[51] الذي يصفـه بمعرفـة الحـديث والمشـاركـة في الفقـه، ويضيف : «مـاهر في علم الحسـاب والهيئـة والفرائض، سلم لـه أهـل عصره في ذلـك، ورجعوا لـه في خبـايـا تلـك العلوم، وتصـدى هو لتعليمهـا فانتفع به قوم»، وكانت وفاة الصباغ سنة 1666/1076.

---

50) «دوحة الناشر» ص 101.

51) «صفوة من انتشر» ص 145.

ـ وقد كان ابن غازي شارك في كتابة التاريخ بـ «الروض الهتون...» وفهرسته : «التعلل برسوم الإسناد...»، وهما ـ معا ـ منشوران.

ـ كما أن الفقيه محمد بن على البياني المكناسي ألف ـ خلال هذه الفترة ـ تقييدا في التعريف ببعض شيوخه، حيث أفاد منه ـ مرة واحدة ـ محمد العربي البصري في منحة الجبار[52]، ولا يعرف الأمن خلال هذه الإشارة.

ـ وثالثا : أبو الحسن الصيقال، يذكره معاصره المنجور[53] بالشيخ المسن المؤرخ أحد عدول مكناسة، ولا يعرف له ـ الآن ـ أثر مكتوب.

☆

☆ ☆

نستدرك ـ هنا ـ الإشارة إلى طبيب مكناس أواخر الفترة التي نعرضها، وقد ذكره باسم «ابن يعيش المكناسي» محمد الصغير بن عبد الرحمن الفاسي 2/53، وأبرز اسمه ضمن سنده إلى علم الطب :

«وأما الطب : فعن الوالد، عن أبي عبد الله محمد بن محمد الزوين، عن الوجدي، وأبي العباس المريد، والقائد على الطبيب، وابن يعيش المكناسي، والمعلم الحسن محروش، وأبي الفضل بن عاشر بسنده...».

ولا يعرف ـ الان ـ ابن يعيش إلا من خلال هذه الإشارة، على أنه يمكن تحديد عصره ـ على وجه التقريب ـ من تاريخ وفاة اثنين من الخمسة

---

52) ص 144.

53) الفهرست ص 44.

2/53) المنح البادية...» : مخطوطة خاصة.

المذكورين معه في نسق واحد، فثانيهم : أبو العباس المريد توفي عام 38/1048 ـ 1639، وءاخرهم : عبد الواحد ابن عاشر توفي عام 1631/1040.

☆

☆ ☆

وبعد : فهذا ما أسعفت به المصادر بصدد مساهمة، منطقة مكناس في حركة البعث التي عرفها المغرب عند مطالع العصر الحديث، وتوضيحا للموضوع نذيل عليه بأربع ملحقات.

الرباط **محمد المنوني**

الملحــق الأول

نشاط بعض شيوخ المدينة ذاتها في نشر الشاذلية خارج المغرب

والمعني بالأمر إسمان ساهما في نشر المدرسة الشاذلية ـ وضمنها الجزوليـة ـ بالبلاد المشرقية وشمال إفريقية والصحراء :

الأول : الشيخ عبـد الرحمن (الشهير بـالمحجوب) بن أحمـد بن محمـد بن أحمد الحسني الإدريسي نزيل مكة المكرمة.

مولده بمكناس سنـة 14/1023 ـ 1615، ونشـأ فيهـا مع أبيـه مرموقـا بعين الصلاح من صغره، ثم جـال في المغرب : فـاس والقصر الكبير ومـا إلى تلك البلاد، إلى أن رحل للمشرق، فدخل مصر والشام وتركيـا واليمن، وحج مرارا أولاها سنة 1634/1043، وبعـدهـا استوطن مكـة المكرمـة في حـدود 40/1050 ـ 1641، حتى توفي بها سنة 1675/1085[54].

وعن نشره للمدرسة الشاذلية بـالمشرق : نعرض أربعـة فهـارس رددت أصداء أسانيده :

1 ـ بـدءا من الفهرس الـذي يحمـل إسم «حليــة أهــل الفضــل والكمـال...» لإسماعيل العجلوني[55]، فيروي فيـه «دلائل الخيرات» بسنـده إلى

---

54) «الرحلة العياشية» ط.ف 227/2 ـ 230.

«خلاصة الأثر» للمحبي : المطبعة المصرية الوهبية 1284 هـ : 346/2 ـ 349.

55) الفهرس لا يزال مخطوطا، وهو مع مؤلفه في «فهرس الفهارس» : الطبعة الأولى 64/1 ـ 66.

النخلي، عن المترجم عبد الرحمن المحجوب، عن أبيه أحمد، عن جده محمد، عن أبي جده أحمد، عن مؤلفه الجزولي.

2 ـ «قطف الثمر...» إسم الفهرس الصغير لصالح الفلاني[56]، حيث يسند إلى نفس الكتاب من طريق كل من مولاي الشريف الولاتي والنخلي، كلاهما عن المترجم بسنده.

3 ـ «حصر الشارد...» وهو فهرس محمد عابد السندي[57]، فيذكر روايته للكتاب ذاته بسنده إلى كل من النخلي والبصري، كلاهما عن المترجم.

4 ـ «فهرس البغال : أحمد بن بكري[58]، يروي دلائل الخيرات وسائر أوضاع الجزولي : بأسانيده إلى كل من العجيمي والنخلي، كلاهما عن المترجم.

فهي أربعة أسماء من الرواة عن المترجم :

ـ مولاي الشريف : محمد بن عبد الله الولاتي[59]،تـ 1102/90 ـ 1691.

ـ العجيمي : حسن بن علي بن محمد المكي[60]، تـ 1113/1702.

---

56) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، في مدينة حيدر آباد الدكن بالهند 1328 هـ : ص 72، والفهرس مع مؤلفه في «فهرس الفهارس» 264/2 ـ 269.

57) مخطوط خ.ع،د 3506، «فهرس الفهارس» 270/1 ـ 276.

58) من مخطوطات الخزانة التيمورية رقم 49 ضمن مجموعة في مصطلح الحديث، حسب «الفهرسة» التيمورية 63/2.

59) ترجمته في «فهرس الفهارس» 400/2 ـ 402.

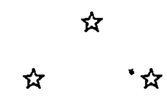
60) ترجمته في نفس المصدر 193/2 ـ 196.

ـ النخلي : أحمد بن محمد بن أحمد المكي[61]، تـ 1718/1130.

ـ البصري : عبد الله بن سالم بن محمد المكي[62]، تـ 1722/1134.

ـ يضاف لهم المغربي : محمد بن عبد الله الفاسي نزيل المدينة المنورة ودفينها[63] سنة 28/1141 ـ 1729.

ـ ثم الدهان : محمد تاج الدين بن إبراهيم[64]، كان بقيد الحياة 1714/1126.



ويبدو أن النخلي كان أكثر هؤلاء أخذا عن المترجم، فيذكر أنه أجازه بقراءة «دلائل الخيرات» عن أبيه أحمد، عن جده محمد، عن أبي جده أحمد، عن مؤلفه الجزولي.

وقرأ عليه من أول «إحياء علوم الدين» للغزالي، وكتاب الحج منه، وأجازه به وسائره.

وسمع عليه كتاب الصوم من «الفتوحات المكية» للحاتمي، وقطعا متفرقة منها، وأجازه بذلك.

---

61) «المصدر» 181/1 ـ 183.

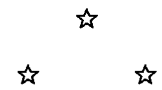
62) «المصدر» 136/1 ـ 141.

63) ترجمته في «سلك الدرر» للمرادي، المطبعة الميرية بالقاهرة 1301 هـ : 60/4، وروايته عن المترجم واردة في «فهرست» أحمد بن عبد العزيز الهلالي : في نسخة مخطوطة منها.

64) لم أهتد إلى مصدر ترجمته.

وقرأ عليه الوظيفة الزروقية، وحزب البحر للشاذلي، وأجازه بذلك وسائر أحزاب الشاذلي وبالصلاة المشيشية.

ثم أمره بالتدريس في المسجد الحرام، وبالبداءة بقراءة شيء من «إحياء علوم الدين»...[65].



الثاني : محمد بن أحمد المسطاري، من الأسرة المسطارية الأموية النابهة بمكناس، وبهذه المدينة كان مولده نحو سنة 34/1044 ـ 1635» : من أب صاحب ثروة وغنى[66]، وشيخه هو الشيخ القاسم (أبو عسرية)، بن أحمد بن عيسى بن عبد الكريم بن اللوشة السفياني[67]، دفين عمالة سيدي قاسم، والمتوفى سنة 1077/«1667».

---

65) فهرس النخلي : «بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين المعتمدين» : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في مدينة حيدر آباد الدكن بالهند 1328 هـ : ص 4 ـ 7.

66) «الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان...» تأليف حسين خوجة : المطبعة الرسمية العربية بحاضرة تونس 1908/1326. حيث توجد ترجمة المسطارى ص 188 ـ 192، وتاريخ مولده يوخذ من ترجمته في «سلك الدرر» 33/4 ـ 34، وجاء في آخرها أنه توفي عن 63 سنة، وقد كان المصدر الأخير هو معتمد ابن زيدان في ترجمة المنوه به بـ «إتحاف أعلام الناس» 55/4 ـ 56.

67) شيخ شهير تعدد المترجمون له، وبينهم الأفراني في «صفوة من انتشر» ط.ف ص 157 ـ 159، وتحدث الزبادي ـ بإسهاب ـ عن حياته ومريديه وزواياه : عند الباب السابع من «سلوك الطريق الوارية..»، مخطوط خ.س 12444، وهناك أخبار أخرى عن المترجم في «صفوة من انتشر» ص 224 ـ 225 : عند ترجمة تلميذه أحمد بن علي السوسي دفين مراكش.

أخذ عن شيخه الطريقة الشاذلية - وضمنها الجزولية والزروقية - بسنده عن شيخه سيدي محمد الشرقي العمري[68]، عن سيدي عبد الله بن ساسي، عن سيدي عبد الله الغزواني، عن سيدي عبد العزيز التباع، عن الشيخ الجزولي. بسنده إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي.

حج المترجم ودخل مصر، ثم استوطن تونس ببلدة بنزرت سنة 1083/«72 - 1673»، ودأب على نشر الطريقة الشاذلية بداره، ثم بزاويته التي بناها - برسمه - مراد باي بن محمد باشا سنة 1084/«73 - 1674»، حسب حسين خوجة[69] الذي يضيف :

وكان الشيخ - رحمه الله - سواحا جوابا في بلاد الله، وله تسع حجج، واشتهر في الحرمين الشريفين، وبلاد الشام، وحلب وحماة، والقدس الشريف، وخليل الرحمن، وكل بلاد دخلها تهرع إليه الخلق ويأخذون عنه، ويعطيهم الإذن في طريقته وسلوكه، وله في جميع هذه البلاد المذكورة زوايا عامرة، وتلامذة مقيمون على أحزابه وأوراده...»[70].

وإلى هذا المصدر يذكر المرادي[71] أن المترجم قدم دمشق في غرة جمادى الأولى سنة 1096/«1685»، ثم رحل إلى مكة المشرفة، وتوفي بها في

---

68) ترجمة حياته هي موضوع كتاب «المرقي في بعض مناقب القطب سيدي محمد الشرقي»، تأليف حفيده عبد الخالق بن محمد الشرقي العمري البجعدي : مخطوط.

69) «الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان...» ص 190 - 191.

70) بينها في «سلك الدرر» 80/1، ومن الجدير بالتنبيه أن إحدى الزجليات التي ينشدها أتباع الشيخ المطاري : تسربت - غلطا - إلى ديوان الششتري، فنشرت ضمن ملحقاته ص 445 - 446. نشر المعارف بالإسكندرية.

71) «المصدر» 33/4 - 34.

محرم - ليلة الجمعة - سنة 1107/«1695» عن ثلاث وستين سنة، ودفن بباب المعلى.

☆

☆ ☆

وهذه بعض الفهارس والمؤلفات التي نوهت بانتشار سنده الشاذلي بالمشرق وتونس :

1 - «إجازة» صادرة من محمد بن الحاج على السفر جلاني الدمشقي، إلى مصطفى بن قرقماش الحيموري البقاعي[72]، يجيزه فيها بثلاثة أحزاب للشاذلي، بروايته لها عن المترجم، وتحمل الإجازة تاريخ 7 ربيع الثاني 1118 هـ.

2 - فهرس «إضاءة النور اللامع...» لمحمد بن عمر بن عبد القادر الكفيري الدمشقي[73]، تـ 1130/«1718»، وفيه يذكر روايته للشاذلية عن المترجم، ويثبت نص إجازته بها : في أوائل جمادى الأولى 1096 هـ.

3 - «الجواهر الغوالي في بيان الأسانيد العوالي» : إسم فهرس ابن الميت : محمد بن محمد بن محمد ثلاثا بن أحمد البديري الحسيني الدمياطي[74]،

---

72) ضمن مجموعة إجازات - مخطوطة - تشتمل على 17 إجازة باسم ابن قرقماش، سابعتها إجازة السفر جلاني التي نعلق عليها.

73) الفهرس مخطوط، ومذكور مع مؤلفه في «فهرس الفهارس» 374/1 - 375.

74) مخطوط خ.ع.ك 1254 : ثالث مجموع، وللتوضيح يرجع إلى «فهرس الفهارس» 154/1 - 155.

تـ 1728/1140، نوه فيه بإجازة المترجم له بمروياتـه ومسموعـاتـه، وخصص منها أوضاع الشاذلي والجزولي وزروق.

واختصر محمد مرتضى الزبيدي من الجواهر الغوالي أسانيـد شيخـه محمـد بن سالم الحفني[75]، فساق فيها أسانيد المترجم التي أحاز بها البـديري حيث أشير لها وشيكا

وإلى البديري عن المترجم : يسند المسبعات الجزولية : الشيخ حسنين بن مصطفى الحسيني المنفلوطي، وأثبت ذلـك في طـالعـة شرحـه لصلـوات الشيخ مصطفى البكري[76].

وإلى البـديري عن المسطـاري، والنخلي عن عبـد الرحمن المحجـوب، يسند محمد شاكر بن علي بن سعد مقدم سعد العمري الـدمشقي : إلى دلائل الخيرات للجزولي[77].

4 - فهرس «السكر المصري..» لمحمـد مرتضى الزبيـدي : يسنـد فيـه إلى أحمد بن إبراهيم الشاذلي، عن المسطاري[78].

5 - فهؤلاء أربعة من الرواة عن المترجم، تضاف لهم الأسماء التالية : أحمد بن إبراهيم الجبالي الحسني العلوي الاسكندري[79]، تـ 1734/1147.

---

75) مخطوط.

76) مخطوط.

77) «عقود اللآلي في الأسانيد العوالي» : إسم الفهرس الذي ألفه - في أسانيد العمري - تلميذه محمد بن أحمد بن عابدين الدمشقي، مطبعة المعارف بسورية 1302 هـ : ص 157.

78) مخطوط.

79) «سلك الدرر» 80/1.

6 ـ خليل بن عبد الغني الجعفري العجلوني نزيل دمشق(80)، تـ 1735/1148.

7 ـ إبراهيم بن محمد بن كرامة الإسكندري(81).

8 ـ عبد الرزاق بن عبد الرحمن السفر جلاني الدمشقي(82).

☆

☆ ☆

ومن الجدير بالملاحظة أن السند الشاذلي لكل من عبد الرحمن المحجوب والمسطاري : خلت منه المصادر المغربية المختصة : «ممتع الأسماع» للفاسي وما إليه، واحتفظ به المشارقة، فوصل من جهتهم للمغرب عن طريق خمسة من الشيوخ :

1 ـ الهلالي : أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد السجلماسي، تـ 1761/1175، فيروي «دلائل الخيرات» بسنده إلى محمد بن عبد الله المغربي نزيل المدينة المنورة، عن عبد الرحمن المحجوب.

ويرويه بسنده إلى البديري عن المسطاري(83).

2 ـ ابن ياسين : محمد بن الحاج العباس بن الحسن السوسي الجزولي ثم الفاسي، كان بقيد الحياة عام 1806/1221، يروي «دلائل الخيرات» بسنده إلى النخلي عن عبد الرحمن المحجوب.

---

(80) «المصدر» 66/1.

(81) «المصدر» 80/1.

(82) «المصدر» 33/4.

(83) «فهرست» الهلالي : في نسخة مخطوطة منها.

وبسنده إلى البديري عن المسطاري[84].

3 ـ مهيرز : محمد بن عبد الكريم الحاج عبد السلام الزرهوني المكناسي المولد ثم الفاسي، تـ 1818/1233.

يرويه بالسندين الأخيرين[85].

4 ـ الكوهن : عبد القادر بن أحمد بن أبي جيدة الفاسي دفين المدينة المنورة : 1838/1254.

يرويه بنفس السندين[86].

5 ـ ابن رحمون : محمد التهامي بن المكي بن عبد السلام الفاسي، تـ 46/1263 ـ 1847.

يرويه بالسندين نفسهما[87].

---

84) فهرست ابن ياسين باسم «المواهب القدسية في أسانيد بعض المشايخ الصوفية...». خ،ع،ج 97.

85) فهرست مهيرزباسم «بغية المرام المعلوم في أسانيد الأئمة الأعلام في العلوم». مخطوط.

86) فهرست الكوهن باسم «إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد» خ.ع.ج 103.
خ.ع،ك 1254 : قطعة من آخرها سابعة مجموع : ص 441.

87) «مجموعة إجازات وأسانيد» : مخطوطة.

الملحق الثانــي

معلومات عن علي البياضي خطيب مكناس

اسمه الكامل : علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد بن محمد البيـاضي الأنصـاري، وهو ـ فيما يظهر ـ منسوب إلى بيـاضـة ـ بفتح البـاء ـ بطن من الأنصـار الخزرج، حسب السيـوطي في «اللبـاب» نشر مكتبـة القـدسي ج 1 ص 159.

أورد ذكره ابن القاضي بدرة الحجال رقم 219 في فقرة وجيزة هكـذا : «علي بن البياضي الأندلسي الفقيه الخطيب بمكناسـة، توفي سنـة 912، ودفن خـارج بـاب البردعيين بروضة الولي الصـالح الشيخ عبـد الله بن حمـد» : ط مصر.

وعبـارة نفس المؤلف في «لقـط الفرائـد» عنـد وفيــات سنــة 912 : «والخطيب بجـامع مكنـاسـة الأعظم : أبـو الحسن علي البيـاضي الأنــدلسي صاحب الخط الحسن ـ «ألف سنة من الوفيات» نشر دار المغرب ص 280.

ذلك هو المعروف ـ لحـد الآن ـ عن الترجمة المعجميـة للبيـاضي، ومن حسن الحـظ أن نتـوفر على منتسخـات بخـط المترجم، فتحتفـظ بمعلـومــات جديدة عن حياته، ويبلغ عدد هـذه المخطوطـات اثنتـا عشرة، موزعـة ـ في المغرب ـ بين الخزائن العامة والخاصة.

1 ـ «المقالة الحكمية في الأمراض الوبـائيـة»، لابن هيـدور : علي بن عبد الله بن محمـد التـادلي ثم الفـاسي : مخطوطـة خـاصـة بيـد جـامع هـذه

الشـذرات : ضمن مجموع ص 36 ـ 49، فرغ من كتـابتهـا يـوم الثـلاثـاء 20 ربيع الأول عام 861 هـ، الموافق 15 فبراير حسب توقيت البياضي.

2 ـ كتاب الأنواء : ضمن مجموع بالخزانة العـامـة بـالربـاط ك 255، فرغ منه عام 861 هـ.

3 ـ فهرس المنثوري : بالخزانة الحسنيـة أول مجموع رقم 1578، كتبـه بمدينـة بلش بـالأنـدلس، وفرغ منـه في الثلث الأول من ليلـة الإثنين 26 جمادى الأولى عام 873 هـ.

4 ـ ويوجد بنفس المجموع ـ بخطـه أيضـا ـ فهرس محـمد بن علي بن عبد الواحـد الجـاري، وهو مصـدر بـإجـازة المؤلف بـه لنـاسخـه البيـاضي : بتـاريـخ أواخر رجب عـام 858 هـ، وأشرك معـه في الإجـازة أخـاه محـمـد ووالدهما الشيخ الفقيه الخطيب المعظم... أبا القاسم بن علي بن محمد بن أحمد الشهير بالبياضي.

5 ـ ثم يختتم المجموع برحلة القلصادي، الذي كتب ـ بخطه ـ إجـازة بها لناسخها البياضي.

6 ـ «وصية النـاصح الأود في التحفـظ من المرض الوافـد إذا وفـد»، تأليف أبي عمرو بن منظور : محمد بن محمد بن محمد بن محـمد (أربع مرات) بن عبيد الله بن محمد القيسي (الغرناطي قاضيها) : مخطوطة بيـد البيـاضي ضمن المجموع الآنف الذكر عنـد رقم 1 : ص 1 ـ 23، كتبهـا بمدينـة بلش، وفرغ منها بعد الصلاة من يوم الجمعة 9 صفر عام 877 هـ بموافقه 17 يوليه.

وتزدان الصفحة الأولى من هـذه النسخـة بخـط المؤلف ابن منظور في إجازة منه للبياضي بخصوص هذه الوصية، بعـدمـا قرأهـا على مؤلفهـا قراءة تصحيح لها، وختمها وصححها، مع إشـارة المجيز إلى أنـه كتب للمجـاز ـ قبل هذا ـ إجـازة عـامـة، وتحمل هـذه الأجـازة الخـاصـة تـاريخ 10 صفر عـام 877 هـ : بعد اليوم التالي لتاريخ الفراغ من انتساخ الوصية.

7 ـ شرح المنثوري على الـدرر اللوامع لابن بري : بخزانـة القرويين رقم 231، مبتور الأخر، وبأول ورقـة منـه إجـازة المولف للبيـاضي وولـديـه بتاريخ متم عام 876 هـ.

8 ـ «نصيحة وبائية» من تأليف محمد بن علي بن عبـد اللـه اللخمي الشقوري : مخطوطة خاصة بيد كاتبه ضمن المجموع المتكرر الـذكر : ص 26 ـ 33، كتبهـا بمـدينـة بلش، وفرغ منهـا زوال يـوم السبت 10 صفر عـام 877 هـ بموافقه 18 يوليه.

9 ـ «كشف الأسرار عن علم حروف الغبـار» للقلصـادي : مخطوطـة خاصة مبتورة الأول، بيد كاتبه، كتبها بمدينـة بلش، وفرغ منهـا بعـد صلاة عصر يوم الأحـد 28 جمـادى الأخرى عـام 880 هـ بموافقـه 29 من أكتـوبر سنة 1476م.

10 ـ شرح فرائض أبي القـاسم بن الشـاط للقلصـادي : بخـزانـة القرويين رقم 323، كتبه ـ بمدينـة بلش ـ عـام 880 هـ، وقـابلـه مع مؤلفـه القلصادي.

11 - «حليـة الأبرار، وشعـار الأخيـار ، في تلخيص الـدعـوات والأذكار» للنووي خزانة خاصة، كتبة بمدينـة بلش، وفرغ منـه يوم الأحـد 26 ذي الحجة، عام 880 هـ.

12 - لب الأزهـار، في شرح كتـاب الأنـوار للقلصـادي، شرح بـه كتاب الأنوار لابن جزي : نسخـة خـاصـة في خزانـة المؤرخ الشهير المرحوم عبد السلام ابن سودة بفاس، كتبه - بمدينـة بلش - من خـط مؤلفـه، وفرغ منه قبل زوال يوم الخميس 19 ذي الحجة عام 884 هـ، بموافقة 2 مارس.

بأوله خط القلصادي بإجازته للبياضي أن يروي عنـه هـذا الكتـاب، ويروي جميع ما ألفه مما نسخه وما لم ينسخـه... بتـاريخ أواسـط صفر عـام 885 هـ، محليا له بالفقيه الإمام الخطيب.

☆

☆ ☆

ونتبين - أولا - من هـذا العرض أن البيـاضي كان - في الأنـدلس - يسكن مدينة بلش - الحصن الشرقي لمدينة مالقـة - إلى أوائل عـام 885 هـ، وقد سقط هذا الحصن - وشيكا - في أيـدي المسيحيين عـام 892 هـ/1487م، فتبدد أهاليـه، واجتـاز كثير منهم إلى المغرب، حيث يبـدو أن المترجم سكن مدينة مكناس، وتقلد خطابة الجامع الأعظم بها : الخطـة التي كان يتولاهـا في بلدته بلش، أخذا من تحلية القلصادي له بالخطيب كما رأينا وشيكا.

ونستفيـد - مرة ثـانيـة - أسماء ثـلاثـة من أسـاتـذة البيـاضي الـذين أجازوه : المجاري وابن منظور والقلصادي.

يضاف لهم رابع وهو المواق شارح المختصر الخليلي، وقد جاء في «دوحة الناشر» : (دار المغرب ص 21) ذكر أحد التلاميذ الذين أخذوا عن البياضي، وذلك عند ترجمة القاضي محمد الكراسي الأندلسي ثم التطواني : «وأخذ عن أبي الحسن البياضي، وأجازه في كتابي «السنن» و«التاج والإكليل» لأبي عبد الله المواق، وكان المواق أجاز البياضي فيهما».

ونستشف من هذه الفقرة أن المترجم كان له بعض التلاميذ بالإجازة، وربما حلق للتعليم بمدينة مكناس.

الملحق الثالث

فتوى لأبي علي بن حرزوز في نازلة المهاجرين بفاس، كتبها جوابا عن استفتاء موضوعي من الوزير المسعود الوطاسي والي مكناس

الحمد لله، والصلاة والسلام الأفضلان الانجبان على من لا نبي بعده.

الوزير المعظم، والأمير المفخم، الذي ارتفع في الفضل والجود، إلى أعلى المراقي والصعود : مولانا أبو عبد الله المسعود، أدام الله عزكم، ومنع الحوادث أن تستفزكم، سلام عليكم ورحمة الله.

من خديم أنعلة أهل الله : أبي علي حرزوز تاب الله عليه معلما لكم، أنجح الله مقاصدكم، وأعلى لديه : الكريمتين مراصدكم : إنه بلغنا أمين سركم، وكاتب حضرتكم : سيدي محمد بن رضوان، أسكنه الله فسيح الجنان، وبلغنا هذا المرسوم، المخالف للحق المعلوم.

فامتثلنا الأمر، واجتمعنا بأصحابنا على الفور، وتأملناه تأملا شافيا، فألفيناه من الفائدة خاليا، ومن ثياب الحق عاريا، فهو غير مكمل، ولو كمل فما عليه معول، إذ إنه مخالف للأيات القرءانية، والأحاديث النبوية، والحق والصواب، الذي يقع به الجواب : أن الحكم لا يكون إلا بما أنزل رب العباد، وبما بين الهادي إلى طريق الرشاد، لا بما عقله أهل الغي والعناد، عن الأباء والأجداد : من العوائد الخارجة عن المعتاد، المؤدية إلى الفرقة والفساد.

قـال اللـه عـز وجـل : ﴿**واعتصمـوا بحبـل اللـه جميعـا ولا تفرقوا**﴾.

وقـال تعـالى : ﴿**إن الـذين فرقـوا دينهم وكانـوا شيعـا لست منهم في شيء**﴾.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ ـ في وسط أيام التشريق ـ خطبة الوداع فقـال : يـأيهـا النـاس : إن ربكم واحـد، وإن أبـاكم واحـد، ألا لا فضـل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم، ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله، قـال : فليبلغ الشـاهـد الغائب».

وعن عقبة بن عامر قال : قـال رسول اللـه ﷺ : «إن أنسـابكم هـذه ليست بسبـاب على أحـد، وإنمـا أنتم ولـد ءادم طف الصـاع لم تملؤوه، ليس لأحـد فضل على أحـد إلا بـالـدين أو عمل صـالـح»، ومعنى طف الصـاع : قريب بعضكم من بعض.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قـال رسول اللـه ﷺ : «إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا : ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبـا، جعلت نسبي إن أكرمكم عند اللـه أتقـاكم، فـأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان بن فلان : فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم».

فانظر ـ أعزك الله ـ إلى قول النبي ﷺ : ليس لأحد فضل على أحد إلا بالدين أو عمل صالح»، فالـذي شـاهـدنـاه من إخواننـا هؤلاء وعلمنـاه :

المسارعة إلى الطاعات، وامتثال المأمورات، والمبادرة إلى أنواع القربات : من الصلاة والحج والصدقات، وفيهم جماعة من حماة الإسلام، يناضلون عن دين النبي عليه الصلاة والسلام، ويبذلون أموالهم وأنفسهم في رضى الملك العلام.

فكيف يسوغ لموثق هذه الوثيقة الشنيعة، المكذوبة البشيعة : أن ينسب إخواننا في دين الله إلى الغش والخديعة، أخذ الله الحق منه، وسلب الستر عنه، فإنه كتب بيده، وفوه بفيه، وأدخل في الدين ما ليس فيه.

فالذي يجب علينا محبة إخواننا المومنين، كما قال أصدق القائلين : «يحبون من هاجر إليهم».

وقال ﷺ : «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره».

وحض - ﷺ - على إدخال السرور على المومنين، وجعلها من أجل القربات عند رب العالمين، عن عائشة رضي الله - تعالى - عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «من أدخل على المومن سرورا لم يرض الله له توابا دون الجنة».

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم.

ومرتكب الضرر بهؤلاء المومنين، يدخل السرور على أعدائنا في الدين، لأنهم خالفوا دينهم الفاسد، واعتقدوا غير اعتقادهم الكاسد، فحقوق المهاجرين لدين الله واجبه ترعى، عادة وشرعا، ومن لم يعرف ما لهم من الحقوق، فقد حاد عن طريق البر وارتكب طريق العقوق.

فـالـذي يجب عليكم ـ أعزكم اللـه ـ أن تكتبوا لخليفتنـا، ومن بـه قوام دنيانا، وديننا : أن يكون متابعا لمـا أفتى بـه علمـاؤنـا، فـإن النبي ـ ﷺ ـ قال : يد الله معَ الجماعة، فقد أفتوا ـ وفرهم الله ـ بما أجمع عليه علماء الملـة، فكونوا في عـونهم على حسم هـذه العلـة، عن عبـد اللـه بن عمر ـ رضي اللـه عنهما ـ قال : قـال رسول اللـه ـ ﷺ ـ «إن للـه ـ عز وجل ـ خلقـا خلقـه لحوائـج النـاس، يفـزع النـاس إليهم في حـوائجهم، أولائـك هم الامنـون من عذاب الله»، فأرجو الله أن تكون منهم.

ويكفي من اشتغـل بهـذه الفضـول، أنـــه خـــالف المعقـول والمنقـول، وخالف قول الله وفعل الرسول.

والسلام على مقامكم العلي، ورحمة الله وبركاته.

«نصيحة المغترين..» لـ **محمد بن أحمد ميارة**

مخطوطة خاصة.

الملحـق الرابـــع

ظهير علوي رشيدي ينوه بمحمد الكامل الموقت في المسجد الأعظم بمكنـــاس

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم.

عن الأمر العلوي الإمامي السلطـاني، أمير المومنين، المجـاهـد في سبيل رب العالمين.

طابع السلطان مولاي رشيد بن الشريف

أيد الله أمره، وظفر جنوده وعساكره، بيد حامله الفقيه السيد حسين بن محمد الكامل، نجل الولية الصالحة السيدة هنو البيرورية.

يتعرف منه ـ بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته ـ أنا أبقينـاه على ما كان عليه من التوقير والاحترام، والإجلال والإعظام، وعلى ما كان عليهم من قبل، ومـا هو متضمن لكتب الملوك المتقـدمين، فلا سبيـل لأحـد عليـه، ومن قربه أو حام حوله نقطع رأسه، ونخفر جدره.

وعليه بتقوى الله العظيم فيما هو بصدده من وقوفه وملازمتـه، ورعيـه للأوقات بالمسجد الأعظم من حضرة مكناسة صانها الله، وجده واجتهاده في ذلك، **وما كان عليه والده قبله.**

ونأمر حاكم البلاد أن لا يدع من يطوف بساحته، وأن لا يكلفه بقليل ولا كثير، وأسندنا له أمر زكاة إخوانه وأهله وأعشارهم ووظائفهم، وجعلنا له النظر في ذلك.

والواقف عليه العمل بما فيه، والسلام.

وكتب في السابع عشر من رجب الفرد الحرام عام 1074.

من وثائق أسرة «الكامل» بمكناس

توضيح :

المصادر والمراجع تذكر وضعيتها عند الإحالة، الأولى : مخطوطة ومكانها ورقمها، أو منشورة : تاريخ ومكان النشر، ولا يتكرر ذلك عند الإحالات التالية.

إشارات : د : قسم حرف الدال من الخزانة العامة بالرباط.

ك : قسم حرف الكاف من الخزانة العامة بالرباط.

ج : قسم حرف الجيم من الخزانة العامة بالرباط.

خ. س : الخزانة الحسنية بالرباط.

ط. ف : المطبعة الحجرية الفاسية.

م : الملزمة.

محمد المنوني

الأقلية الإسلامية في إسبانيا وجيوبها الاستعمارية(*)

د. حسن الوراكلي

مدخل

لم ينته الوجود الإسلامي في إسبانيا بالغارة الصليبية على غرناطة والاستيلاء عليها عام 897 للهجرة (492 1م)، ففي الوقت الذي هاجرت فيه جماعات كثيرة من المسلمين من وطنها إلى بلدان الشمال الإفريقي آثرت جماعات أخرى المقام مطمئنة إلى عهود الأمان التي أعطيت لها من طرف الملكين الكاثوليكيين «فرناندو» و«إيزابيلا». على أن الكنيسة، مساندة بالعرش، سرعان ما أبانت عن زيف هذه العهود وكذبها، وذلك حين شرعت في اضطهاد المسلمين والتضييق عليهم وإكراههم على الارتداد عن دينهم واعتناق النصرانية. وانطلاقا من حملات الاضطهاد والتنصير هذه

---

*) نص المساهمة التي قدمها الكاتب للمؤتمر السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد بالرياض في الفترة من 12 إلى 17 جمادى الأولى 1406 هـ.

والتي تزعمها ديوان التحقيق الكنسي بعد سقوط غرناطة بزمن يسير، مرورا بحروب الإبادة الشرسة التي كانت جيوش النصارى تباغث بها، بين الحين والحين، الأقلية المسلمة، وانتهاء بقرار نفيها النهائي الذي تم بين سنتي 1605 و1604م شهد التاريخ مأساة بقدر ما تطفح فصولها بمواقف الألم، والمعاناة، والحزن، تطفح بمواقف الشجاعة، والصبر، والاستشهاد[1].

أما في العصر الحديث، وخاصة أثناء سنوات الحرب الأهلية الإسبانية (1935 ـ 1939م) وفيما بعدها. وبصرف النظر عن مسلمي جيوب إسبانيا الاستعمارية بشمال المغرب، فقد عاد الوجود الإسلامي للظهور على أرض إسبانيا، أول ما عاد، ممثلا في فئات من المسلمين، أغلبهم من المغاربة، وفد بعضهم على هذه البلاد في صفوف جيش الجنرال فرانكو الذي ساق، بالإكراه، عشرات المئات من المغاربة المسلمين إلى أرض المعركة التي خاضها للاستيلاء على مقاليد الأمور، ووفدت فئات أخرى للعمل في مختلف القطاعات والصناعات، كما وفدت فئات أخرى، من الشباب خاصة، للطلب والدراسة. وهذه الفئة الأخيرة تتألف، إلى جانب العنصر المغربي، من عناصر عربية أخرى وخاصة الفلسطينيين والسوريين. وإذا كانت الفئة الأولى، وهي فئة الجنود قد عاد أغلب أفرادها إلى المغرب بانتهاء الحرب الأهلية فإن الفئتين الأخريين، مضافا إليهما فئة المسلمين العاملين في السلك الدبلوماسي والإسبان الذين اعتنقوا الإسلام مؤخرا، ما فتئتا وخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة، تنموان، عاما بعد عام، حتى أصبحتا من الوفرة

1) انظر. د. حسن الوراكّلي. ملامح من صور الموريسكي في الأدب المسرحي الإسباني. مجلة «المناهل» ع 28 ص 10.

والظهور في المجتمع الإسباني بالدرجة التي لم يسع معها السلطات الحكومية، بعد صدور قانون حرية الأديان سنة 1967م، إلا أن تعترف بالإسلام كدين من جملة (الأديان) المتواجدة في الساحة الإسبانية وأن توافق على اختيار ممثل للمسلمين في اللجنة الاستشارية للحرية الدينية بوزارة العدل الإسبانية.

وقبل أن نرصد واقع الأقلية الإسلامية في إسبانيا نرى، استكمالا لصورة هذه الأقلية، أن نخص كل فئة من الفئات التي تتألف منها بكلمة. وأهم هذه الفئات ثلاثة :

1 ـ الطلبة

قبل نحو ربع قرن لم يكن عدد الطلبة المسلمين في إسبانيا يتجاوز المائتين غير أن هذا العدد عرف في الستينات والسبعينات نموا مطردا وصل به إلى حدود سبعة آلاف طالب[2] أو نحوها. وأسباب هذا النمو متعددة، بيد أن أهمها في نظرنا يتمثل في :

أ ـ شعور المسؤولين الإسبان، والعرب كذلك، بأهمية إحياء وتمتين العلائق والصلات التي ربطت بينهما مدى قرون متوالية، كان من معطياتها ذلك الدور العظيم الذي نهضت به الأندلس المسلمة، من جهتها، في حقل المعرفة، تمثلا وإبداعا، وإسبانيا المسيحية، من جهتها، في نقل آثار تلك المعرفة إلى الغرب[3].

---

2) انظر. Emilio Galindo, Los musulmanes en España hoy «Encuentro» Nº 58 p. 2.

3) انظر. د. حسن الوراكَلي. الأدب المغربي الحديث في اللغة الإسبانية. مجلة «المناهل» ع 31 س 11.

ب - وقوف إسبانيا موقف المناصر والمؤيد للعرب فيما يخص قضيتهم المصيرية : قضية فلسطين والقدس الشريف.

3 - إدراك الإسبان لأهمية الحضور الطلابي الإسلامي في الجامعات والمعاهد الإسبانية على المدى البعيد. وقد كتب إميليوكَالندو مرة يقول متحدثا عن الطلبة المسلمين في إسبانيا «إنهم أفضل وسيلة لنقل الثقافة الإسبانية للعالم العربي والضمانة المستقبلية لتعميق الصلات بين بلدان العالم الإسباني والعربي» وأضاف يقول :«لذلك نأمل أن يعنى المسؤولون، وهم يدركون أهمية هذا الحضور الطلابي الإسلامي، بالعمل على تصحيح صورة العربي عند الإسبان، وإنجاز مخططات تتاح بها الإفادة من جميع الطاقات التي تتوفر عليها هذه الألوف من الطلبة المسلمين[5]».

وكانت الظروف التي يواجهها الطالب المسلم، في الأغلب والأعم، ولا سيما في الستينات، حين وصوله إلى إسبانيا غاية في القساوة، لا مأوى، ولا لغة، ولا سابق معرفة بالبلد، إلى مشكل معادلة الشهادة التي يحملها ومشكل التسجيل الجامعي.

وقد استشعرت طائفة من الخريجين المسلمين من الجامعات الإسبانية، وخاصة منهم أولئك الذين يعملون في حقل الدعوة، ضرورة العمل على التخفيف من قساوة تلك الظروف التي تجهز على الطالب المسلم أول قدومه على إسبانيا، فعملوا على استقبال هذا الطالب ومساعدته على تذليل العقبات، وحل المشكلات. ثم ما لبثت هذه الطائفة من الخريجين أن

---

4) انظر. مقال Los musulmanes en España, «Encuentro» Nº 58 p. 3.

5) نفسه. صفحة 3.

جعلت تستشعر (ضرورة التلاقي والترابط من أجل المحافظة على الذات وتجنب خطر الذوبان في المجتمع الإسباني الذي يغاير المجتمع الذي جاؤوا منه مغايرة تكاد تكون كلية في الاعتقاد والقيم والتصورات والتقاليد والسلوك).[6]

وكانت ثمرة هذا الشعور وذاك قيام «الجمعية الإسلامية في إسبانيا» عام 1391 هـ ـ 1971، وهي جمعية إذا كان الباعث، كما رأينا، على تأسيسها هو مساعدة الطلبة الجدد والأخذ بأيديهم في بداية الطريق العلمي وحمايتهم من الضياع في المجتمع الجديد فإنه قد أريد بها أن تكون «مؤسسة رسمية الطابع يستطيع المسلمون من خلالها أداء عباداتهم وشعائرهم الإسلامية، وتنظيم أمورهم مستفدين من الحرية النسبية التي ينعمون بها، ومن إمكاناتهم القليلة المتوفرة لتحقيق الحصانة الفكرية والعلمية وحماية المسلمين الوافدين وسواهم من أخطار الانحراف والتيه في المجتمع الإسباني»[7].

2 ـ العمال

إذا كان عدد أفراد الأقلية الإسلامية في إسبانيا يقدر بنحو مائة وخمسين ألف نسمة فإن العمال يؤلفون من هذا العدد ثلثيه، وبذلك يعتبرون من حيث «الحجم» أولى فئات هذه الأقلية.

ومع أنه من الصعوبة تحديد تاريخ لبداية الحضور العمالي الإسلامي في إسبانيا إلا أنه يمكن القول بأن هذا الحضور لم يلفت إليه الأنظار إلا في

---

6) انظر، «في اسبانيا بشائر التوجه الإسلامي المعاصر» مجلة الأمة ع 44 صفحة 37.

7) نفسه. صفحة 37.

سنة 1967، ففي هذه السنة عرفت بلدان أوربا الغربية، حيث كان يتواجد العمال المسلمون، أزمات خانقة في الوسط العمالي استلزمت من طرف الجهات المعنية إجراءات مشددة جعلت كثيرا من أولئك العمال، وخاصة عمال بلدان الشمال الإفريقي، يضطرون لمغادرة بلدان السوق الأوربية المشتركة واللجوء إلى إسبانيا. علىأن أشد الهجرات العمالية كثافة إلى إسبانيا حدثت سنة 1970 على إثر التطور الذي عرفه الاقتصاد الإسباني خلال سنتي 67 ـ 1968 والذي تطلب مزيدا من اليد العاملة[8]. ولم تنقطع، بعد ذلك، تلك الهجرات وتوالت، هجرة العمال من بلدان شمال إفريقيا بخاصة، ومن المغرب بالأخص، إلى إسبانيا حتى بلغ عدد هؤلاء العمال المهاجرين في بضع سنين نحو مائة ألف أو يزيدون، كان ببرشلونة وحدها منهم ما بين خمسين إلى ثمانين ألف عامل. وتتوزع البقية المدن الصناعية الأخرى في إسبانيا من مثل مدريد، وبلباو، وبلنسية، ومالقة.

وغالبية هؤلاء العمال رجال، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، وفيهم كثير متزوجون، لكنهم لا يصحبون معهم، في الغالب، زوجاتهم وأولادهم ولا يفكرون في استقدامهم بسبب وضعيتهم غير القانونية التي تتهدد استقرارهم دائما. ومن ثم فإن هؤلاء المتزوجين من العمال مثلهم كمثل عزابهم معرضون للانحراف والانسياق وراء الأهواء.

وغالبية هؤلاء العمال أميون، لا يقرأون ولا يكتبون العربية، وبعضهم لنشأته في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب يتحدث إسبانية ضعيفة، لكنه، في الغالب، لا يعرف قراءتها ولا كتابتها.

8) انظر. Los musulmanes en España... «Encuentro» Nº 58 p.4

9) انظر. Mundo Diario, 27 octubre 1974

وإذا عرفنا، بعد ذلك، أن غالبية هؤلاء العمال أتوا من البادية المغربية (المتخلفة) وأن حلولهم، بغتة، وسط المدينة الغربية (المتحضرة)، يزعزع في نفوسهم قيمهم ومبادئهم ويعرضها للانهيار.

وإذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف العدائي للمجتمع الإسباني منهم والمتمثل في استغلالهم، وتهميشهم[10] أدركنا مدى معاناه هؤلاء العمال المسلمين ومدى حاجتهم للحماية، والرعاية، والمساعدة، وقد تنبه إلى ذلك المركز الإسلامي بإسبانيا فجعل يصرف جهودا طيبة بين أوساط العمال، يعلمهم، ويبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، والهدف تعميق الوعي لديهم بهويتهم الإسلامية ووجوب المحافظة عليها وحمايتها من أخطار مجتمع «الاستهلاك» الغربي. وقد آتت هذه الجهود أكلها حين بدأ يظهر في وسط العمال أنفسهم دعاة، هداة، ينذرون جهدهم ووقتهم للدعوة إلى سبيل الله مما ينعكس أثره، يوما بعد يوم، على سلوك إخوانهم وزملائهم.

3 - المسلمون الإسبان

إذا كانت الفئتان الأوليان تتألفان من مهاجرين مسلمين تركوا بلدانهم في المشرق أو المغرب واستقروا بإسبانيا للدرس أو العمل فإن هذه الفئة الثالثة من فئات الأقلية المسلمة بإسبانيا، تتألف من أفراد، رجالا، ونساء، وأطفالا، جميعهم إسبان.

ويظهر أن عاملين إثنين كانا وراء إقبال طائفة من الإسبان، ولا سيما في جنوب البلاد، على الإسلام والدخول في دين الله، وهما :

---

10) نفسه.

1 - صدور قانون حرية الأديان فى إسبانيا سنة 1967، وتأكيد الدستور الصادر سنة 1979 بالنص على أن الدولة الإسبانية مؤسسة لا تلتزم بدين معين.

2 - ظهور النزعات الاستقلالية الذاتية لدى مختلف سكان أقاليم إسبانيا بعد انتهاء الحكم الفرنكاوي الاستبدادي، وكان في طليعة المطالبين باستقلالهم الذاتي الأندلسيون، وهم سكان منطقة الجنوب، ولكي يثبتوا تميزهم التاريخي، وخصوصيتهم الحضارية كان عليهم أن يبحثوا عن جذورهم وأصولهم في تاريخ الأندلس الإسلامية وحضارتها. وهكذا ظهرت كتابات تمجد هذه الحضارة وذلك التاريخ، وأخرى تدين الغزو القشتالي لبلادها وإكراهه، بواسطة محاكم التحقيق الكنسية، السكان المسلمين على الارتداد عن دينهم واعتناق النصرانية.

هذا وذاك، إلى جهود طائفة من الطلبة المسلمين في الدعوة إلى دين الله في المجتمع الإسباني نفسه، كان هو ما جعل يمهد السبيل لظهور الإسلام، من جديد، بين الإسبان أنفسهم. وهكذا بدأ الإقبال على اعتناق الإسلام، ومازال عدد المعتنقين يتزايد، سنة بعد أخرى، حتى قارب الثلاثمائة، فيهم المتعلمون وغير المتعلمين، ومن أولئك أساتذة، وكتاب، وأطباء، ومحامون، وطلبة جامعيون تستقطب غاليتهم مدينة غرناطة حيث «يعيشون عيشة فيها كثير من التكافل وعلى شيء من الكفاف والبساطة، ولهم شخص يلتفون حوله يسمونه الأمير»[11] وتتوزع آخرين إشبيلية، ومالقة، وقرطبة، ومدريد.

---

11) انظر. د. حسن الوراكلي. ومضات. صحيفة «النور» س 4 ع 42.

ومع اعترافنا بأثر العوامل السابقة في إثارة اهتمام هؤلاء الإسبان بالإسلام فإن السبل التي أفضت بهم إلى نوره، ووحدانيته، وعدالته، كانت تختلف من فرد لآخر. وفيما يلي أسوق لكم حديثين، يعكس كل منهما تجربة صاحبه مع دين الله الخالد، أولهما لطبيب أمراض نفسية، أفضى إلي به في مجلس من الدعاة والعلماء بتطوان، وثانيهما لمثقف مشغوف بالبحث والقراءة ،دلى به لمراسل مجلة «المسلمون» التي كانت تصدر بلندن.

ونص الحديث الأول :

قال لي :

في المدرسة الابتدائية كانت الصورة التي رسمها مدرسو الدين والتاريخ في أذهاننا عن الإسلام بشعة للغاية، كانوا لا يفتأون يقولون لنا كلما سنحت لهم الفرصة (الإسلام دين متخلف، رجعي، والمسلمون برابرة متوحشون ما زالت أيديهم تقطر بدماء الأبرياء من المسيحيين هنا، وفي كل مكان).

ثم التحقت بثانوية للرهبان، وعلى مدى السنوات الستة التي أمضيتها بين ظهراني (رجال الدين) لاحظت، عن كثب، سلوكهم. أجهدت نفسي وفكري في التوفيق بين أقوالهم وسلوكهم، لكن، كيف السبيل إلى التوفيق بين المتناقضات. ولست أخفي عليك، إنني حين وضعت رجلي على باب الجامعة كنت نفضت يدي من الأديان.

في تلك السنوات شغفت بالقراءة، كنت أبحث فيها عن أجوبة تخلصني من عذاب أسئلة كانت تؤرقني، قرأت في كتب الماركسية والوجودية وغيرهما من المذاهب والفلسفات، لكن بدون جدوى، ظلت الأسئلة كالسياط تؤرق، وتحير.

وكان أن، عدت إلى الأديان، قرأت عن المسيحية، عن اليهودية، عن الإسلام، بدأت أقارن وأوازن، لاحظت كفة الإسلام ترجح، استزدت من كتب الإسلام، وشغلت بقراءتها عن غيرها، ثم بدأت أشعر بالرغبة في معرفة الأصول والمنابع...

في ذلك الإبان سافرت إلى لندن في رحلة لم أكن أقدر، أول الأمر، تأثيراتها الحاسمة في تغيير مسار حياتي، هناك أتيحت لي الفرصة للاجتماع بطلاب مسلمين، اكتشفت من الوهلة الأولى أنهم يدعون إلى الإسلام من منطلق يبتعد عن التبشير المجاني والمعالجة المبسطة. مازلت أذكر بالحرف ما قاله لي محمود أحد أولئك الطلاب يومذاك، قال في لهجة تطفح بالإيمان : (ليس من أخلاق أخرى غير الأخلاق الإسلامية فردية واجتماعية تقوى على مواجهة الإعصار الإيديولوجي، ورد هجمته المادية العاتية : وليس غير الإسلام يقدر على تغيير حياة (المسلمين). لكن، قبل ذلك، ينبغي بناء الفرد المسلم، والحكومة المسلمة...).

من يد محمود تسلمت هدية العمر، القرآن.

قرأت القرآن، وأعدت القراءة المرة، والمرة، والمرات.

لاحت لي مرافئ الأمل والنجاة، بعد رحلة الشك والعذاب، وأيقنت أن بؤس العالم الإسلامي، بل بؤس الإنسانية جمعاء في جهلها هذا الكتاب العظيم :

قلت له :

ـ منذ متى كانت تجربتك هذه مع القرآن...؟

قال :

ـ منذ خمس سنوات.

قلت :

ـ واليوم...؟

قال :

ـ القرآن، رئتي !

أما الحديث الثاني فهذا نصه :

ـ كان التدبير الإلهي، ولا أقول الصدفة، وراء تعرفي على (سيدي أحمد الحجمي) أحد علماء جامعة القرويين بفاس. هذا الرجل الداعية المؤمن اقتادني إلى طريق النور والحق واليقين واحتضنني في بيته المليء بالإيمان بمدينة فاس المغربية حيث قضيت برفقته زهاء العام، أدرس عليه القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والفقه، واللغة العربية، وآخذ عنه أصول الإيمان، وأحيا حياة مليئة بالطهر والتقوى ولله الحمد من قبل ومن بعد.

كانت بدايتي مع الإسلام من خلال الإطلاع على تاريخ الإسلام في الأندلس، فأنا رجل ثقافة وتاريخ وقراءات متواصلة. قرأت تاريخ بلادي، ووجدت أن الوقوف على الحقائق والمعالم البارزة في هذا التاريخ يقتضي الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأساسية. وما لبثت أن عكفت على كتب عديدة تدور حول هذا الموضوع، حتى انتهيت إلى ما يشبه اليقين، في المرحلة الأولى، ثم واصلت القراءة والتأمل، إلى أن كانت الهداية والاقتناع التام ـ والحمد لله ـ بالإسلام دين الله ورسالته للعالمين[12].

---

12) انظر. «المسلمون» ع 33 ص 46.

4 - مسلمو الجيوب الاستعمارية الإسبانية بشمال المغرب

وأهم هذه الجيوب الثغران المغربيان الإسلاميان : سبتة ومليلية، وليس من المنطق ولا من العدل في شيء أن يعد مسلمو هذين الثغرين «أقلية إسلامية»، ذلك أنهم هم، وليس سواهم، أهل الثغرين وسكانها الأصليون، والإسبان ليسوا إلا طرأة عليهما، محتلين لهما. غير أننا إنما أدرجناهم ضمن الفئات التي تتألف منها الأقلية الإسلامية بإسبانيا لتشابه أوضاعهم الدينية، والثقافية، والاجتماعية، بأوضاع الفئات سالفة الذكر مما يجعل معاناة هؤلاء وأولئك متشابهة، ومشكلاتهم وقضاياهم متماثلة.

ومع أننا لا نملك إحصاء رسميا يمكن الاطمئناء إليه بعدد المسلمين في المدينتين، إلا أننا لا نشك في أن هذا العدد من الكثافة بحيث يمثل وجودا إسلاميا قويا، ما فتئ المحتلون يتضايقون به وينزعجون منه، يدلنا على ذلك، فضلا عن أساليب القمع التي يعامل بها السكان المسلمون، حملات الطرد التي يتعرضون لها من حين لآخر، لأوهى الأسباب، على يد الطغمة الاستعمارية الحاكمة.

إن التحديات التي تتهدد مسلمي المدينين في عقيدتهم، وتراثهم، وهويتهم الإسلامية، العربية، كثيرة، ومختلفة، ومتجددة في كل وقت وآن.

---

13) يقدر في سبتة، مثلا، عند المرحوم الفقيه محمد السراج بنحو عشرين ألف نسمة. انظر. كتابه، خلاصة تاريخ سبتة ص 151. وعند غيره أن المسلمين يمثلون غالبية سكان المدينة وتصل نسبتهم إلى حوالي سبعين بالمائة. انظر، سبتة : ثغر إسلامي عريق. مجلة الأمة ع 55 س 5 ص 39.

ومع ذلك فإن غالبية هؤلاء المسلمين، على قساوة الظروف تحت حكم المستعمر الصليبي، مازالوا متشبتين بدينهم، مخلصين لعقيدتهم، يرقبون فيه اليوم الذي يتحررون فيه من قيد الاحتلال وذله.

ولاشك أن تساؤلات كثيرة حول واقع هذه الأقلية التي تعرفنا على أهم فئاتها ينبغي أن تطرح :

كيف تمارس هذه الأقلية شعائرها الدينية ؟ وأين ؟ وما هو الدور الذي ينهض به الدعاة لتعميق الوعي بالإسلام لدى أفرادها ونشر دعوة الإسلام في المجتمع الإسباني ؟ ثم، ما هي الجهود التي تبذل على مستوى التحصين التربوي، والفكري في بناء هذه الأقلية من جهة، وعلى مستوى نشر ثقافة القرآن والسنة والتعريف بها في أوساط القراء، مسلمين وغير مسلمين، من جهة أخرى ؟ ثم، ما هي وسائل هذه الأقلية في إسماع الآخرين كلمتها وصوتها ؟

ولعل في رصدنا واقع الأقلية الإسلامية في إسبانيا وجيوبها الاستعمارية ما يظفرنا بالإجابة عن تلك التساؤلات وأمثالها، وهو ما سنحاوله من خلال تسليط الضوء على مجالات ثلاثة من حياة هذه الأقلية، هي :

1 ـ المجال الديني

إن الحديث عن هذا المجال يستدعي، بدرجة أول، الحديث عن المسجد وتاريخه ودوره في وسط الأقلية المسلمة.

ونحن إذا ما استثنيا مسجدا صغيرا عرف بـ (مسجد المرابط) كان بناه الجنود المغاربة المسلمون في قرطبة أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وانتهى أمره بانتهاء الحرب ورجوع الجنود إلى المغرب، ومساجد المسلمين في المدينتين السليبتين سبتة ومليلية، وعددها في الأولى[14] والثانية، بصرف النظر عن (زوايا) الطرقيين، لا يتجاوز أصابع اليد، يمكننا القول بأن الأقلية الإسلامية في إسبانيا لم تعرف لها مسجدا تمارس فيه شعائرها، وتؤدي صلواتها إلا في المدة الأخيرة. وحتى سنة 1979 لم تكن لهذه الأقلية إلا أماكن متواضعة تستعمل كمساجد[15]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلدية مدريد كانت قدمت، بعد صدور قانون حرية الأديان في إسبانيا، قطعة أرض هدية للسفارات الإسلامية بالعاصمة لبناء مسجد عليها. وعلى الرغم من تشكيل لجنة من السفراء لمتابعة المشروع وتبرع بعض الدول الإسلامية كالسعودية، والكويت، وليبيا بمبالغ مالية ضخمة لتنفيذه فإن المشروع مازال رهين التصاميم الهندسية (بسبب اختلاف السفراء، وعدم متابعتهم للموضوع)[16].

وكان أول مسجد تم بناؤه في إسبانيا في السنوات الأخيرة هو مسجد الملك عبد العزيز بـ «مربيلا» المطلة على الشاطئ. ومع أن وجود هذا المسجد في موقع سياحي بديع مما يكثر رواده في فصل الصيف فإن كثيرا من أفراد الأقلية الإسلامية في المدن القريبة يحرصون، كلما أسعفتهم

14) انظر. خلاصة تاريخ سبتة ص 124 وما بعدها.

15) انظر. د. علي المنتصر الكتاني المسلمون في أوربا وأمريكا ج 1 ص 185، د. علي المنتصر الكتاني.

16) انظر. حيدر الغدير، الدعوة الإسلامية في اسبانيا صفحة 34.

الظروف، على أداء صلاة الجمعة فيه، وقد تحدث عبد السميع أوريخنا رئيس الجمعية الإسلامية بمالقة عن ذلك فقال :

«أحيانا نذهب مسافة ستين كيلومترا إلى بلدة ماربيا لنصلي بمسجد الملك عبد العزيز مع إخواننا في الله، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك باستمرار»[17]. ويقدر عدد الذين يحضرون لأداء صلاة الجمعة بالذات أزيد من أربعمائة مصل من شتى أنحاء الساحل الأندلسي الممتد من مالقة إلى قادس[18].

ومن الجدير كذلك بالإشارة أن جل الجمعيات الإسلامية في إسبانيا تتوفر على مشاريع لبناء مساجد غير أنها لضعف الإمكانات المادية لم تستطع أن تنجز تلك المشاريع، ولكنها لم تظل بسبب ذلك مكتوفة الأيدي بل اجتهدت في توفير أماكن تتخذها مصليات يؤمها المسلمون لأداء الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والعيدين.

ويمكن تصنيف مساجد الأقلية الإسلامية ومصلياتها في إسبانيا وجيوبها الاستعمارية إلى نوعين إثنين :

أولهما يشرف عليه طائفة من الدعاة الذين يلتزمون بتعاليم الكتاب والسنة ويدركون على ضوئها حقيقة الإسلام الكامنة في أنه شرعة حياة ومنهج، فهم، لذلك يحرصون على أن يجعلوا من المصلى أو المسجد الذي يتولون الاشراف عليه مؤسسة ذات مقاصد عقدية، وفكرية، ودعوية، واجتماعية، ويمكن أن نضرب مثلا لذلك مصلى «الجمعية الإسلامية في إسبانيا»

---

17) من حديث أدلى به السيد عبد السميع لمجلة «المسلمون» ع 33 ص 46.

18) انظر. مجلة «المجلة» ع 84 ص 50.

بغرناطة، فهو، إلى جانب قاعة الصلاة التي تسع نحو مائتي شخص، ومرافقها من حمام، ومتوضأ، يتوفر على (قاعة محاضرات ومكتبة، تستخدم أيضا لتعليم أطفال المسلمين العربية والقرآن الكريم... إضافة إلى استخدامها لدعوة الإسبان واستقبالهم وتعريفهم بالإسلام، وصالة رياضة ومطعم، توفر للناشئة المكان المناسب لملء أوقات فراغهم إلى جانب ربطهم بالمسجد، كما تستخدم لإحياء بعض السنن الإسلامية خاصة في الأعياد والمناسبات كولائم الزواج، والعقيقة، والمناسبات الاجتماعية)[19].

أما النوع الثاني فهو الذي يشرف عليه أشخاص ذوو نزعات طرقية مغرقة في البدع والضلالات، لأنهم لهم إلا عقد حلق الرقص والذكر البدعي أو تنظيم مجالس الإنشادات والموالد، ومن هذا القبيل بعض المصليات التي أقامها بعض الإسبان الذين أسلموا عن طريق بعض (المتصوفة) ومنها كذلك هذه (الزوايا) الطرقية التي يغص بها مجتمع المسلمين في سبتة من تيجانية، ودرقاوية، وقادرية. ويذكر المرحوم الفقيه محمد السراج أن أتباع هذه الزوايا (لا يكاد أحدهم يسلم على الآخر من أجل التحاسد والتباغض والتفاخر والمباهاة كأنهم ليسوا على ملة واحدة)[20]، وإنهم لكما وصفهم بالفعل.

ومثل هذا المصليات والزوايا عديمة الفائدة والجدوى في الوسط الذي توجد به، ذلك أن التصور الذي تكرسه للإسلام في أذهان روادها تصور يقوم على الخرافة، والأسطورة، والشعوذة، ويزكي «الاستسلامية» و«التواكلية»

---

19) من حديث لرئيس الجمعية الإسلامية باسبانيا. مجلة «الأمة» ع 44 ص 40.

20) انظر. خلاصة تاريخ سبتة ص 129.

و«السكونية»؛ ولـذلـك وجب تنبيـه المسلمين، وخـاصـة حـديثي العهـد منهم بالإسلام من الإسبان، بعللها وآفاتها، والعمل على التحول بهم إلى بيوت اللـه التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وتعميق الوعي لـديهم، نظرا وتطبيقـا، برسالة المسجد في الإسلام العقدية، والفكرية، والاجتماعيـة، حتى يتـاح لهم، مرة تلو المرة، أن يكتشفوا إيجابية الدين الذي اعتنقوا وواقعيته.

وفي المجال الديني للأقلية المسلمة بإسبانيـا ينبغي ألا تعزب عن ذهننـا الجهود التي تبذلها بعض الجمعيات الإسلامية في إعداد الدعـاة الـذين يقومون بـأعبـاء الـدعوة إلى الإسـلام في المجتمـع الإسبـاني وتبصيرهم بـالأسـاليب التي تناسب عقلية الإسبـان وبيئتهم، ففي كنف «الجمعيـة الإسلاميـة بـإسبـانيـا» تـأسست «لجنـة الـدعوة إلى اللـه»، ومهمتهـا العمل (على جمع الإخوة الـذين لديهم استعـداد دعوي، وتـدريبهم، وتبصيرهم بـالوسـائل السليمـة التي تعينهم على أداء مهمة الدعوة وتبليغها بصورة صحيحة مثمرة)[21].

ومن خلال المقالة، والخطبة، والنـدوة، بل والملصقـات تبلور قيـادات العمل الإسلامي بإسبانيا فهمها للإسلام الحق وحرصهـا على ترسيخ صورتـه في نفـوس أفراد المجتمـع، مسلمين وغير مسلمين، مبرأة من كل نقص يشين، أو عيب يخدش.

وهو ما سنعود للحديث عنه في موضع آخر من هذا العرض.

2 ـ المجال الثقافي

يعود الفضل في النشاط الـذي يعرفـه هـذا المجـال إلى بعض الجمعيـات

21) من حديث رئيس الجمعية الإسلامية باسبانيا. مجلة «الأُمة» ع 44 ص 41.

العاملة في الحقل الإسلامي وخاصة اثنتين منها، هما : المركز الإسلامي والجمعية الإسلامية.

ويمكننا أن نتمثل مظاهر هذا النشاط في :

أ - نشر الكتاب الإسلامي

استهدف القائمون على هذا المشروع الثقافي الهام بما أصدروه من كتب موضوعة أو مترجمة. من جهة ربط أفراد الأقلية الإسلامية بالينابيع الصافية للفكر الإسلامي كما تكشف عنها نصوص القرآن الكريم والسنة العطرة أو من خلال الدراسات التي أديرت حول عقدياتها، وأخلاقياتها، وتوجهاتها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ومن جهة أخرى، إطلاع القارئ الإسباني غير المسلم على مفهومات التوحيد، والعدل، والحرية، والإخاء في التصور الإسلامي.

وإلى ذلك فإن من يستعرض عناوين بعض هذه الكتب من مثل «الأمم المريضة والعصر الحديث» و«النظرية السياسية في الإسلام» وكلاهما لأبي الأعلى المودودي، و«بين الشرق والغرب» لأبي الحسن الندوي، و«تعدد الزوجات في الإسلام» و«القاديانية ليست إسلاما» وكلاهما لنزار الصباغ، يدرك عناية القائمين على هذا المشروع الثقافي بتصحيح المفهومات المغلوطة لدى القارئ الإسباني عن الإسلام وتقديم نظرياته ومناهجه المتميزة في مجالات التربية، والسياسة، والاقتصاد في صورتها الحقة مقارنة أحيانا، بنظريات الغرب ومناهجه، وفي هذا السياق نجد كتاب المودودي «الأمم المريضة» يقارن بين المنهج التربوي الإسلامي ومظاهر الحياة الغربية،

وكتابه عن النظرية السياسية في الإسلام يدرس النظام السياسي الإسلامي مبينا خصوصياته ومميزاته بالقياس إلى الأنظمة الغربية. كما نجد كتاب الندوي يعنى بدراسة دعوة الإسلام مبرزا تميزها بين غيرها من الدعوات، غربية وشرقية، وقل مثل ذلك في كتابي الشهيد نزار الصباغ فقد أراد بأولها إلى تصحيح الفهم الغربي السيئ لموضوع تعدد الزوجات في الإسلام موضحا شروط التعدد ومقاصده، وأراد بثانيهما إلى الكشف عن حقيقة فرقة القاديانية الضالة التي ينشر أصحابها والداعون إليها في غير ما مدينة من مدن أي إسبانيا، يرفعون شعار الإسلام وهم ألد خصومه.

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي أشرف على تأليفها أو ترجمتها المركز الإسلامي في إسبانيا والتي يتجاوز عددها خمسة عشر كتابا[22] تنبغي الإشارة إلى بعض الإصدارات التي قصد بها أصحابها إلى غايات مماثلة، ومن ذلك كتاب «محمد رسول الله ﷺ» لمؤلفه القارو ماشردوم كومينس، وهو كاتب وصحافي معروف، هداه الله للإسلام فاعتنقه وألف كتابه هذا تحية تقدير وإعجاب بمن حمل إلى البشرية مبادئ هذا الدين القيم، وإلى ذلك قصدت حين ختمت كلمتي عن هذا الكتاب بقولي : «أتراني واجدا في كتاب الأديب الإسباني القارو ماشردوم عن (محمد رسول الله) جديدا... ما ظني، وظنكم أيضا، بكتاب رجل ملك عليه القرآن إحساسه، وملأ عليه سمعه،

22) هذه. بالإضافة إلى ما ذكرنا، عناوينها : «معالم في الطريق» و «هذا الدين» لسيد قطب. و «المرأة في الإسلام» لمحمد قطب و «مبادئ الإسلام» و «مبادئ أساسية لفهم القرآن» للمودودي. وكتاب الصلاة و «كتاب الحج» و «الزواج والطلاق في الشريعة الإسلامية و «كتاب التوحيد» وكلها من تأليف نزار الصباغ.

وبصره، وفؤاده، فإذا به يترك جاهليته ليشهد على رأس الملأ، قرير العين، مغتبط النفس أن الله لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»[23].

ب - تنظيم المخيم الإسلامي

وهو أشبه ما يكون بجامعة صيفية يؤمها لحضور مجالسها وندواتها ومحاضراتها جمهور من الشباب المسلم عربا وإسبانا، يتزودون من خبرات وتجارب وتوجيهات كبار الدعاة والمفكرين الإسلاميين الذين يدعون لهذا المخيم أمثال محمد الغزالي، ومحمد قطب، وعمر الآميري وغيرهم، ومن المؤكد أن الغاية من تنظيم هذه المخيمات الصيفية[24] تتحقق بما يثار فيها من موضوعات، ويطرح من قضايا بقدر ما قد تمس تاريخ المسلمين تمس واقعهم، وتمس مستقبلهم، مستنهضة، بذلك الهمم الشابة بما فيها من طاقات وقوى كامنة، للتغيير والبناء.

ج - إنشاء المدارس وتنظيم حلقات التعليم

وإلى عهد قريب لم تكن للأقلية الإسلامية بإسبانيا مدارس خاصة بأبنائها، وكان الدفع بهذه الفلذات إلى أحضان التعليم الكنسي أو العلماني يطرح مشكلة غاية في الخطورة بالنسبة للأسر المسلمة[25]، وإدراكا لأبعاد هذه

---

23) انظر. د. حسن الوراكَلي، ومضات. صحيفة «النور» ع 137 ص 8.

24) انظر عن هذه المخيمات مجلة «العروة الوثقى» التي تصدرها بالعربية الجمعية الإسلامية باسبانيا.

25) انظر. الدعوة الإسلامية في اسبانيا ص 15.

المشكلة ومضاعفاتها تجتهد اليوم قيادات العمل الإسلامي بإسبانيا على إرساء أسس مدرسة إسلامية لتربية أبناء المسلمين وتعليمهم في كبريات المدن الإسبانية حيث تكثر الجالية الإسلامية من مثل برشلونة ومدريد وغرناطة.

وإلى جانب ذلك تعنى بعض الجمعيات بتنظيم حلقات في مراكزها ومصلياتها لدرس التفسير والحديث، والفقه، واللغة العربية، هذا فضلا عن دروس التقوية التي تنظمها بعض المراكز الإسلامية لفائدة الطلبة المسلمين في اللغة الإسبانية وفي بعض المواد العلمية.

أما في مدينتي سبتة ومليلية فإن التعليم الإسلامي العربي فيهما محاصر كأشد ما تكون المحاصرة، ففي كل من المدينتين، حيث تعيش آلاف الأسر المسلمة، لا توجد إلا مدرسة ابتدائية واحدة، تلقى فيها الدروس بالعربية والإسبانية، وهي من حيث البرامج العربية تابعة لنظام التعليم المغربي، ومن حيث البرامج الإسبانية لنظام التعليم الإسباني[26]، وفي مقابل المدرسة الإسلامية الوحيدة بكل من الثغرين المحتلين توجد سلسلة من الابتدائيات والإعداديات الإسبانية التي لا تعارض في التحاق أبناء المسلمين بصفوفها طالما أنها على ما يشبه اليقين بأن تلك هي فرصتها لمسخ شخصيتهم بعزلهم عن عقيدة آبائهم، وتراث أمتهم، وتاريخ وطنهم.

3 - المجال الإعلامي

ووعيا من قيادات الأقلية الإسلامية في إسبانيا بالدور الهام الذي ينهض به الإعلام في التمكين للمذاهب والإيديولوجيات، وإدراكا منها

26) انظر. سبتة ومليلية. تاريخ وواقع ص 69.54.

لمقاصد الأمانة التي تحمل عبئها والمتمثلة في رسالة التبليغ والدعوة في مجتمع، هو المجتمع الإسباني، لاشك أنه، وقد أضلته أهواؤه وأشرفت به حضارة الاستهلاك كأي مجتمع غربي آخر، على مهاوي الأفلاس، في حاجة ماسة للتعرف على عقديات الإسلام وأخلاقياته، يتفيأ ظلها، ويسترد في كنفها وعيه بذاته وبحركة الحياة، والكون، والزمان من حوله، حرصت، أي قيادات الأقلية الإسلامية، وبالرغم من إمكاناتها المادية المحدودة، على بلورة العمل الإسلامي بإسبانيا ومرتكزاته وتوجهاته من خلال إعلام مكتوب، ومسموع، ومرئي.

ففي ميدان الإعلام المكتوب نجد ثلاث مجلات، إثنتان منها بالإسبانية، والثالثة بالعربية. أما الأولى فهي مجلة «الإسلام»[27] « Al – Islam ».وهي، إلى جانب عنايتها.ببلورة مبادئ الإسلام والتعريف بمفهوماته، تحرص على نشر متابعات نقدية وتصحيحية لما ينشر عن الإسلام في الصحافة الإسبانية أو لما يؤلف فيها أو يترجم إليها من دراسات وكتب تتعلق بالإسلام والمسلمين[28] أو لما يعقد من ندوات ومؤتمرات[29] حول موضوعات وقضايا إسلامية.

وأما المجلة الثانية فهي مجلة. «البلد الإسلامي» « Pais Islàmico ».

ولكي نعطي فكرة عن اهتمامات هذه المجلة وأهدافها رأينا من تمام الفائدة أن نترجم فقرات من الكلمة التي افتتحت بها المجلة عددها الصفر، وسمتها «رشد»، تقول الكلمة :

---

27) تصدرها الجمعية الإسلامية باسبانيا.

28) انظر. الأعداد : 2 و 4 و 5.

29) انظر العدد 6 و 7.

«إنها لكثيرة تلك التجارب التي اكتسبتها الجماعة الإسلامية بإسبانيا على مدى سبعة أعوام مضت من عمرها الجديد. إن عددنا، نحن الذين اعتنقنا الإسلام رجالا ونساء، في هذه الآونة، غير قليل، وإن ما نملك قوله وفعله من الموقع الذي نوجد فيه اليوم هو الآخر ليس قليلا. هذا هو الرشد الذي بات يميز الجماعة الإسلامية بوصفها فئة على الرغم من قلتها - بالقياس للمجتمع - فإن لها تأثيرا وبروزا اجتماعيين يزدادان قوة حينا بعد حين»[31].

«من موقعنا باعتبارنا مسلمين إسبانا، ورثة حضارة ولغة انتزعت منا، لكن منتزعيها لم يستطيعوا استئصالها، نعرب عن رغبتنا في ربط الصلات مع جميع الذين يبحثون عن أصولهم ويتطلعون لحياة بلا مضاربات ولا مناورات. لأجل ذلك سنعنى، شهريا، بتحليل الأحداث الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية...»[32].

«... وفي الأخير سنعمل على أن نعرف، في أمانة، بحقيقة تلك الجماعة التي نشأت في المدينة المنورة منذ أربعمائة وألف سنة والتي استطاعت في ظرف زمني وجيز، لا يتجاوز عمر أجيال ثلاثة، أن تنتشر في العالم كله من الصين إلى إسبانيا. هذه مقاصدنا، وتحقيقها على نحو لا عسر فيه يؤلف بالنسبة لنا تحديا نتقبله مسرورين»[33].

---

30) تصدرها الجماعة الإسلامية بغرناطة.

31) انظر. Pais islàmico

32) نفسه. ص 3.

33) نفسه. ص 3.

أما المجلة الثـالثـة فهي مجلـة «العروة الوثقي»[34] فهي تصـدر بـاللغـة العربية، وهي تعنى برصد أخبار العمل الإسلامي في إسبانيـا إلى جـانب مـا تنشره من مقالات وكلمات ما بين توجيهية، وتربوية، ونقدية.

وثمة وسيلة إعلامية أخرى مكتوبة استخـدمتهـا الأقليـة الإسلاميـة في إسبـانيـا في نشر دعـوتهـا، ولا أحب أن تفـوتني الإشـارة إليهـا، وأعني بهـا الملصق، فإنه، على وجازة عبارته، بالغ الأهميـة فيما يحققـه من «إشهـار» واسع المـدى، بعيـد التـأثير. ولكي يطلع القـارئ على صورة للملصق الإسـلامي في إسبانيا نقدم له نماذج لملصقات كانت أنجزتها الجماعة الإسلامية بمناسبـة صلاة عيـد الأضحى بقرطبـة سنـة أربعمائـة وألف. وقـد قرأ هـذه الملصقـات على جدران قرطبـة وإشبيليـة، وغرنـاطـة، ومـدريـد الجموع تلو الجموع، وأغلب الظن أن الإحساس بالرغبة العارمة في ارتياد آفـاق الإسلام والتعرف عليهـا كان القاسم المشترك بين القارئين :

ـ 1 ـ

الإسلام

سبيل السـالكين

حكمة الحياة

أخوة شاملة، غامرة

تأكيد على الوحدانية التي دعا إليها الرسل كافة.

---

34) تصدرها الجمعية الإسلامية باسبانيا.

الآن، هنا، في الأندلس
لقاء الباحثين (عن الحقيقة)
- 2 -
على مدى ثمانية قرون،
الأندلس، كانت مسلمة،
فيها تعايش المومنون
في حرية واحترام متبادل
بعد ذلك، جاء (ديوان التحقيق) الكنسي (المتعصب).
أعرف أصولك
الإسلام أسلوب للعيش في انسجام
مع الآخرين، وفي سلام مع الذات.
- 3 -
عيسى
ابن مريم
رسول الله
نبي الإسلام
عليه السلام
- 4 -
الإسلام
معرفة للتحول الباطني للكائن البشري
نموذج اجتماعي قائم على :

المعرفة،
التضامن،
الأمانة.

ـ 5 ـ

الإسلام ليس للعرب وحدهم
القرآن، لم يكتب من طرف النبي محمد
القرآن، ليس تاريخا للقدماء
القرآن :

﴿ذلك الكتاب
لا ريب فيه
هدى للمتقين
الذين يومنون بالغيب
ويقيمون الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون
والذين يومنون بما أنزل إليك وما
أنزل من قبلك
وبالآخرة هم يوقنون
أولئك على هدى من ربهم
وأولئك هم المفلحون﴾[35].

وفي ميدان الإعلام المسموع نشير إلى حرص قيادات العمل الإسلامي بإسبانيا على تنظيم برامج ولقاءات في الإذاعة الإسبانية (إضافة إلى المشاركة

35) انظر. د. حسن الوراكلي. ومضات صحيفة «النور» ع 110 ص 8.

في الندوات خاصة تلك التي تعقد في الجامعات والمعاهد العليا حول الإسلام والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية)[36].

وينبغي أن نذكر، إلى جانب ذلك، الخطبة باعتبارها وسيلة أخرى من وسائل الإعلام المسموع تستخدمها الجماعة الإسلامية لترسيخ مبادئ الإسلام، وبلورة مفهوماته، وبيان تهافت الإيديولوجيات والمذاهب الالحادية.

وللتدليل على ذلك أقدم لكم فقرات من خطبة كان ألقاها أخونا الدكتور عبد السلام منصور (فرنثيسكو إسكوديرو) أمير الجماعة الإسلامية بإسبانيا بمناسبة صلاة عيد الأضحى لعام أربعمائة وألف[37] :

«محور حياة المسلم يدور بين السجود في الصلاة، والعطاء في الزكاة.
السجود هو المحرك للعزم الباطني على المعرفة والإشراق.
الزكاة هي أساس التماسك الاجتماعي للجماعة المسلمة.
الإسلام أكبر من حضور الجمع وصوم رمضان.
الإسلام دين.
الإسلام نهج حياة يستوعب جميع معاملات الكائن البشري.

إن إقامة شريعة الإسلام الشريفة معناه الظفر بمجتمع يقوم، في ثبات وصلابة، على الصلاة والزكاة وعلى الثقة المتبادلة، وعلى الكرم، وعلى التضامن، وعلى المعرفة، وعلى التسامح.

---

36) من حديث لرئيس الجمعية الإسلامية باسبانيا. انظر. مجلة «الأمة» ع 44 س 4 ص 40.

37) انظر. خطبة عيد الأضحى بقرطبة. تر. د. حسن الوراكلي. ملحق «النور» مطابع الشويخ ـ تطوان.

(الأندلس) كلمة معناها اخضرار الحقول آخر الصيف، هكذا دعيت هذه البلاد من طرف المسلمين الأول الذين وطئوا أراضيها منذ إثني عشر قرنا ورفعوا فوقها للحضارة الإنسانية إحدى قممها الشامخة.

الآن، الإسلام شجرة تخرج في الأندلس.

والله سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الحي من الميت.

إن بذرة الإسلام كامنة في قراركم جميعا.

لم نأت، نحن المسلمين، للاستيلاء على الأندلس، فنحن أبناء الأندلس وقد كنا هنا دائما.

ليس يمكن للإسلام أن يفرض.

ليس في دين الإسلام إكراه ولا عنف.

الإسلام سلام، والمسلم رجل سلام، هدفه أن يحيا، أن يعبد الله ويحمده عن بينة.

لهذه المهمة أدعوكم،

وبإذن الله نكون جميعا من الخاضعين، الطائعين.

وبعون الله ستصبح الأندلس مسلمة).

وفي ميدان الإعلام المرئي، وفضلا عن البرامج والمقابلات التليفزيونية، التي يدعى لها قادة العمل الإسلامي بإسبانيا، فإن المركز الإسلامي يبذل مساعي حميدة في تصوير أشرطة فيديو، يرصد في بعضها جوانب من عبادات الإسلام ويعرض في البعض الآخر لوحات من تاريخ الإسلام[38].

---

38) انظر. حيدر الغدير. الدعوة الإسلامية في اسبانيا ص 31.

وليس من شك في أن استخدام هذه الوسائل الإعلامية المختلفة في التعريف بالإسلام، عقديا، وخلقيا، وحضاريا، من شأنه أن يصحح الصورة المشوهة التي رسختها في أذهان الكثيرين عن الإسلام العصبية الكنسية والحقد الصليبي، ولا شك أن تصحيح المفهومات، واستجلاء الأفكار ضمانة للوصول إلى الحقيقة.

وبعد، فلعل فيما قدمناه من حديث عن الأقلية الإسلامية في إسبانيا وجيوبها الاستعمارية ما يلقي الضوء على واقع هذه الأقلية ويكشف عن طموحاتها وتطلعاتها في التمكين لكلمة التوحيد الهادية. البانية. وهي لكي تنجز ذلك وتحققه بحاجة إلى مساندتها ماديا ومعنويا، يستوي في ذلك العاملون في حقل الدعوة على أي مستوى من مستوياتها.

ومن الله سبحانه وتعالى نستلهم السداد والتوفيق، وعليه قصد السبيل.

تطوان : **د. حسن الوراكلي**

مراجع البحث

1 ـ السراج، محمد، خلاصة تاريخ سبتة. مطبعة ديسيريس تطوان ـ المغرب.
2 ـ الغدير، حيدر. الدعوة الإسلامية في اسبانيا. (نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة).
3 ـ د. الكتاني، علي المنتصر. المسلمون في أوربا وأمريكا ـ ج 1 ـ ط. 1 (1396 هـ ـ 1976م).
4 ـ د. منصور، عبد السلام، خطبة عيد الأضحى بقرطبة ترجمة د. حسن الوراكَلي، مطابع الشويخ ـ تطوان.
5 ـ د. الوراكَلي. حسن. صورة الموريسكي في الادب. (المناهل) ـ وزارة الثقافة ـ الرباط.
6 ـ وثائق ومذكرات خاصة (جمعها الكاتب ووضعها أثناء زياراته المتكررة لإسبانيا).

ـ مجلات وصحف.

أ ـ بالعربية : دعوة الحق ـ النور ـ الأُمة.

ب ـ بالاسبانية : Encuentro, Islam, El Pais Islamico

د.ح.و

مغناة

الباحث عن نفسه

أحمد عبد السلام البقالي

[قدم الشاعر هذه المغناة (أوبيريت) هدية لمؤسسة (المصالح الاجتماعية لقواتنا المسلحة)، ومثلت (بمسرح محمد الخامس)، وجالت بها الفرقة في عدة مدن مغربية.

لحن أغانيها الأساتذة :

أحمد البيضاوي ـ عبد القادر الراشدي ـ عبد الله عصامي ـ العربي الكوكبي.

مثلها وغناها :

محمد الحياني ـ غيثة بن عبد السلام ـ سعاد محمد ـ إسماعيل أحمد ـ ونعيمة جودي.

إخراج : أمينة المصلوحي.

صمم الرقصات : ياسمينة أكومي]

المشهد الأول

يرفع الستار على حفلة عيد ميلاد الأمير (قمر الزمان) الواحد والعشرين. أصدقاؤه وصديقاته يرقصون وسط قاعة القصر على ألحان أغنية :

(عيد ميلادك)

عيـــد ميـلادك عيــــد
يبهـج الـــدنيــا سعيــد
كل قلب يتغنى
بـــك يـــا أحلى نشيــد
يـــــا حبيب الكل
يـــا زين الشبـــاب
فهنيئـــا لـــك بـــالعيـــد
الـــذي أوفـــاك رشـــدك
وهنيئـــــا للتي ســــو
ف تنـــــال اليـــوم ودك
يـــــا حبيب الكل
يـــا زين الشبـــاب

أثناء الأغنية يطفىء الأمير الشموع، ويتقبل التهاني من الحاضرين، ويغازل الحاضرات، ويلاطفهن.

تخفت الموسيقى والضوء. يخرج الجميع.

الأمير : (متسائلا)

لقـــــد ولـــــدت أميرا
مــــــدلـــــلا مغرورا
الكل يمـــــــــدحني في
وجهي ويبـــــدي السرورا
يطري جمـــــالي ويضفي
علي علمـــــا ونـــــورا
وكل مـــــا اشتهيــــه
أنـــــالـــــهُ مسرورا
فهـل سـأحيـا حيـاتي
في كـــــذبهم مغمـــورا
يلقي التنــــابـل حـولي
من النفــــاق زهـــورا
متى ســــــأعرف نفسي
حقيقـــــــة لا غرورا ؟

المشهد الثاني

(يسلط ضوء أزرق ناعم على الأمير (قمر الزمان) وحده في القاعة الكبيرة مع بقايا الكعكعة الكبيرة، والأشرطة الملونة، والكؤوس والأطباق.

(يسلط ضوء آخر على الملكة أم الأمير... تقترب منه :

الملكة ـ ولدي..

الأمير ـ أماه..

الملكة ـ كم أنا سعيدة يا ولدي !

(الأمير يمسك بيدها ويقبلها)

الملكة ـ لقد بلغت الواحدة والعشرين، وأصبحت رجلا مكتمل الرجولة تتمناه لنفسها أجمل أميرات المملكة، وأكرم بناتها.

(موسيقى تبدأ خفيضة وتوترتفع).

الملكة ـ (تغني) :

متى يملأُ الحب قلبك ؟

حبيبي، متى يملأُ الحب قلبك ؟

متى يلمس العشق والشوق جنبك ؟

وتورق أغصانه، وتدلى

عناقيده لتظلل دربك ؟

☆

أراك تقلب وجهك بين

النجوم لعلك تبصر نجمك

لعلك بين ملايينها

ترى قمرا، وتحقق حلمك

☆

الملكة ـ (تقترب من الأمير) : حبيبي.. كل الأُمهات يتمنين أن يرين أبناءهن أزواجا سعداء.. والملكات لسن استثناء.. فهل خطر ببالك أن تسعد أمك بعروس جميلة وأطفال ؟

الأمير (باسط) : نعم، يا عزيزتي.. خطر ذلك ببالي مرارا..

الملك (مبتهجة) : ومن ستكون السعيدة، يا عزيزي ؟

الأمير (ضاحكا) : تلك هي المشكلة ! ليست هناك سعيدة واحدة. بل سعيدات كثيرات.. كل واحدة منهن أحلى من الأُخرى. وأنا ضائع بينهن.

الملكة : (تختفي بهجتها وتهم بالانصراف. ولكنها تغير رأيها وتعود تعرك منديلا بين كفيها) : إذن فقد صعب عليك الاختيار.

الأمير (موافقا) : جدا.. جدا.

الملكة : (مفكرة) : هكذا، إذن.. المسألة مسألة اختيار فقط، فكيف تتخيل شريكة حياتك يا ولدي.. كيف تريدها أن تكون ؟

الأمير : (مفكرا يذرع المكان بخطوات بطيئة.. ترتفع الموسيقى بالتدريج فينشد) :

أريـــدهـــا ذكيـــة
تهـــوى العلـــوم والأدب
لطيفـــة، خفيفـــة الـــ
ظـــل، عريقـــة النسب
أمـــا الجمـــال فغرو
ر ليس لي فيـــه أرب
تريـــدني كما أنـــا
ليس لمـــال أو حسب

الملكة (تقف محتارة) : ذكية ؟ تهوى العلم والأدب ؟ ولا تريده لماله ونسبه ؟ كيف سنعثر عليها ؟ (يخفت الضوء عنها وتخرج متسائلة).

الأمير (يسلط النور عليه ينشد) :

دعـــوني أعيش طليـــق الجنــــــاح
أحلـــق في الكـــون حيث أشـــــاء
واجري كغـــــدران فصــل الربيــع
أروِّي العروق، وأسقي الظماء
وأعطي الحيـــــــــــــاة لمن رامني
وألهم في رحلتي الشعراء
ولا تــوقفــوا في السهــول انسيــــابي
ولا تحبســـوا فـــورتي في وعـــــاء
دعــــــوني أضم الي الحيــــــــاة
وأرشف منهـــا الهنــــا والصفــــاء
وامتص ذوب رحيـــق الـــزهـــور
كنحلـــة شهـــــد غـــزير العطـــاء
ولا تضربـوا حـــول ســـاقي القيـــود
ولا تغرقـــوا نعمتي في شقـــــــاء
ولا تحجبـــوا عن عيـــوني الضيـــــاء
ولا تمنعـــوا عن جنـــــاحي السماء
ولا تربطـــوني بـــــواحـــــدة
فـــــإني أحب جميـــع النســـــاء

(تـدخـل كـوكبـة من البنــات يتضــاحكن ويتــأبطن ذراع الأمير، ويخرجن به، وهو يبتسم لهذه ويداعب تلك. وتبقى الملكـة وحـدهـا تحرك رأسها يائسة).

المشهد الثالث

الملكة : (قوت القلوب وحدها تفكر مغمومة في أمر ابنها الأمير (قمر الزمان) الذي يرفض الزواج، تخطر ببالها فكرة فتصفق بيديها، تدخل وصيفة، فتقول لها) :

الملكة : إحضري لي القهرمانة.

القهرمانة : (تدخل وتنحني أمام الملكة) مولاتي..

الملكة : أدركيني ياقهرمانتي الوفية ! (تغني) :

ان الأمير قمر الـــــــزمـــــــان
ولي عهــــد الملــــك والسلطــــان
لا يستقر قلبــــــه على نظــــــام
فهــــــــــو يسير من غرام لغرام
ورأيــــــه في الحب والــــــزواج
كقصـــة الـــديـــك مـــع الـــدجـــاج
فهـــل لـــديـــك رقيـــة تقنعـــه
بـــأن في الـــزواج مـــا ينفعـــه

القهرمانة :

ســألت خبيرة في الحب تـــدري
بـــأي طـــلاسم تغـــزو القلـــوبـــا
وتـــوقـــع في هـــوى قرد غـــزالا
وتشعـــل في جـــوانحـــه لهيبـــا
فلى تريـــاق عشـــق مـــا سقـــاه
حبيب حبـــه إلا أجيبـــا

(تناولها زجاجة من صدرها)

فــإن تسقيــه منـــه يمت غرامـــا

بقـــاتلـــه ويجعلـــه حبيبـــا

(ينطفىء النور على الملكة وهي تنظر إلى زجاجة الترياق بانتصار).

المشهد الرابع

(يسلـط الضـوء على فتـاة حسنـاء وهي تصب قطرات من زجـاجــة الترياق في كأس من وراء ظهر الأمير (قمر الزمان) ثم تقدمه له) :

الفتاة : تفضل يا مولاي.. شرابك المفضل..

الأمير : (يتناول الكأس، ويرشف منه قليلا فيشرق، ويرمي بالكأس، ويمسك بعنقه مشيرا إلى الفتاة بعنف أن تغادر المكان..).

الفتاة (تخرج مسرعة وخائفة).

المشهد الخامس

(القهرمانة راكعة تعتذر للملكة عن فشل الترياق) :

ســــــــــــامحيني.. ان للتر

يـــــاق طعْما لا يطـــــاق

وهـــــو لا ينفـــــع في شيء

إذا طـــــــاب المـــــــذاق

(ثم تقف القهرمانـة، وتخرج من حزامهـا تميـة (حجـابـا) من النحـاس تناولها إياه قائلة :)

فخــــذي هــــذي التميـــة

إنهـــا جـــــد عظيمــــة

صنعتهـــــا للمـــوك الإ

نس والجن حكيـــــــــة

واكتبي اسم الــولــد الغـــا

نم فيهـــــا والغنيـــــة

وضعيهــا فــوق صـــدر الـ

ـــبنت في كل وليـــــــة

ســوف يهــواهـــا الفتى حـ

ـــتـــى ولـــو كانت دميـــة

القهرمانة : (تنسحب راكعة أمام الملكة..).

الملكة : (تبقى وحدها تنظر في ارتياب إلى التمية.. تعتيم عليها).

المشهد السادس

الأمير : (تدخل عليه نفس الفتاة صاحبة الترياق، فيدور حولها بحركات مسرحية فكاهيــة.. يقف خلفهـا وهي وجلـة من تصرفه، ويقلد نبحة كلب صغير، فتصرخ الفتـاة، وتقفز من مكانها. يـواجهها وينظر إلى صـدرهـا فيرى التميـة معلقـة يمسك بها ويقلعهـا، فتخـاف وتصيح، وتخرج هـاربـة ويقف هو يضحك منها).

يغنـــي :

سئمت حيــاة اللهـو والطيش، والجهــل

ومـــا كان يحلـو لي من القـول والفعـل

وأصبحت تـواقـا إلى المجـد والعـلا
وكشف كنـوز الفن، والعلم، والفضـل
وتـوسيـع آفـاقي، وكسب تجـارب
ترق لهـا نفسي، ويسمـو بهـا عقلي
فـلا ملـك إلا بـالحصـافـة والنهي
ومعرفـة الـدنيـا الفسيحـة من حـولي

المشهد السابع

الملكة : (تصفق) : احضروا لي حكيم القصر
الحكيم : (داخلا) : لبيك مولاتي..
الملكة : أشر علي أيها الحكيم..
الحكيم : السمع والتكريم والتعظيم.
الملكـة : ان الأمير يرفض الـزواجـا
ولا أرى لرفضـه عـلاجـا
فكيـف أقنـع فتـاي بالـزواج
بـدون ضغـط أو جـدال أو لجـاج
الحكيم :
لا ترغميـه على الـزواج مبكرا
ودعيـه يهـوى كيف شـاء ويعشـق
خليـه يعبث بـالقلـوب ويلتهى
كالطفـل يلعب بـالـدمى ويمـزق
فـاللهـو في شرخ الشبـاب ضرورة
لـولاه مـا انفتـح الفـؤاد المغلـق

المشهد الثامن

(الأمير يخبر الملكة برغبته في التجوال) :

سمعت نـــداء بعيـــدا ينـــادي
فيـــوقظني من عميـــق رقـــادي
ويغمر قلبي بشـــــــــوق عظيم
إلى الضرب في كل واد ونـــــــاد

☆

إلى أن أهيم مـــــع الهـــــائمين
مـــع العـــالمين مـــع الجـــاهلين
مـــع العظماء، مـــع الخـــاملين
واركب في البحر كل سفين
وابحث عن كل كنز دفين

المشهد التاسع

الملكة : (تودع ابنها الذاهب في رحلته ليرى العالم وهو متنكر في ثياب شيخ كبير بلحية بيضاء، وعكازة وجراب ومرقعة) :

- وداعا يا ولدي ودعا.. (تلوح له بمنديلها ثم تمسح به عينيها).

الأمير : (يغني متجولا في بلاد الأندلس، والهند، والصين، وبغداد، يغني والمشاهد تتغير) :

أرى مـــا بنـــاه لنـــا الأولـــون
ومـــا أبـــدعـــوه لنـــا من فنـــون

ومـا اكتشفـوه، ومـا اخترعـوه
ومـا يعرفـون، ومـا يجهلـون
وما كان آباؤهم يفعلون

☆

واسبر غـور عقـول الرجـال
وسر تعلقهم بـالكمـال
ومعنى الحيـاة، ومعنى المات
ومـا السر في عشقنـا للجمال ؟
وألف سؤال ! وألف سؤال !

☆

وارجـع بعـد اغترابي حكيمـا
قـويـا أمينـا، شفيقـا رحيما
بـأسرار نفسي وقـومي عليمـا
وابنى على الأرض ملكا عظيمـا
سيبقى لشعبي نعيما مقيما

المشهد العاشر

الأمير : (بعد طول التجوال يجلس على صخرة حزينا مرهقـا مريضـا بالشوق إلى وطنه وأهله وأحبابه، يغني) :

وترغمني الأيـام ان اتبسما
وقلبي الـذي في داخلي ينفث الـدمـا

حننت إلى أهلي الـــــــــذين تركتهم

زمــــانــــا، وقـــد كنت الأمير المنعما

(يـأتيـه صـوت فتـاة وهي تترنم بلحن دون كلمـات فيقف في مكانـه ينصت إلى الصوت البلوري الساحر).

المشهد الحادي عشر

الرسامة : (يسلط الضوء على الفتاة الرسامة، وهي جالسة إلى لوحتهـا تنظر إلى منظر ترسمه، وتترنم).

الأمير : (يقترب منهـا على مهل.. ينظر إليهـا فيبهره جمـالهـا. وحين تنظر إليــه ينقــل اهتمامــه إلى اللــوحـــة، ويحرك رأســه بـاستحسـان وإعجـاب،· وهـو متكىء على عصـاه في مرقعـة تنكره).

الرسامة : (تخاطبه منشدة) :

أراك تنظر إلى اللــوحـــة بـــانبهـــار

فهل تراها أعجبتك، يا أخا الأسفـار ؟

الأمير المتنكر (مجيبا يغني وينظر إلى وجهها) :

الأمير :

إلى لــــوحـــــــة من رسم أعظم راسم

نظرت، ولم أفتـــأ لهـــا أتــــأمــل

إلى وجهــك الــوضــاح أرنــو، فــإنــه

لمن لــوحـــة الفن الجميلـــة أجمــل

سـأعبـد ربي في الجمـال، فـإنـه
لأطهر محراب لمن يتبتـل
إذا كان قلبي عن هـوى الحسن مغلقـا
أصم، فحب اللـه من أين يـدخـل ؟
الرسامة : (تسأل الأمير) :
أراك رقيـق الشعـور، تحب
الفنـون، وتنشـد فيهـا الكمـال
ومثلـك لابـد من أن تكـون
لـه زوجـة غـايـة في الجمـال
الأمير : (مجيبا) :
لم أجـد في سن الشبـاب حبيبـا
يمـلأ القلب بـالغرام لهيبـا
ويضيء الـدنيـا كـوجهـك هـذا
فقضيت الحيـاة فردا كئيبـا
ثم راح الشبـاب واشتعـل الرأ
س، كما تبصرين، همـا وشيبـا
وإذا بي ألقى الحبيب الـذي قضـ
ـيت عمري في البحث عنـه غريبـا
ليتني كنت في شبـابـك هـذا
لقضيت الحيـاة منـك قريبـا
ظلمتني الأيـام حين أقـامت
بيننـا بـالسنين سـورا رهيبـا

المشهد الثالث عشر

الأمير : (ينصرف داخلا المدينة)

الرسامة : (تتابعه ببصرها وبنظرة إعجاب غريبة ثم تنشد) :

مـــا للعجــوز ومـــالي ؟
هفـــا إليــــه خيـــالي
صبـــــا إليــــه فــؤادي
وهــو العــزيــز المنــــال
ولم تشـــح عنــــه عيني
وهي الخبير المثــــــــالي
بكل مـــــــــا يفتن القلــ
ــب من ضروب الجمـــــال

الفصل الثاني

المشهد الرابع عشر

حفـل استقبـال الأمير بعـد عـودتـه من رحلتـه الطـويلـة، الفتيـان والفتيات يرقصون وينشدون :

مرحبـــــا أهــلا وسهـــلا
بـــك يـــا زين الشبـــاب
مرحبـا يـا عـــائـــدا بعــ
ـــــد غيـــاب واغتراب

☆

أطفىء النـــــار التي أشـ

ـعلتهـــا يــوم الرحيــل

في قلـــوب أنت فيهـــا

أبـــــدا أغلى نـــزيـــل

☆ ☆

وهنيئـــــــا للتي يختـ

ـتـــارهـــا قلبـــك إلفـــا

ســـوف تحيـــا في نعيم

من نعيم الخلـــــد أصفى

☆ ☆

الأمير : (يجيب على الترحيب بعودته) :

تجـولت في طـول البـلاد وعرضهـــا

فلم أر أحلى من بـــــلادي وأجمـــــلا

وعـــاشرت أقـوامـــا كرامـــا أعــزة

فلم أر من قـــومي أعـــز وأنبـــــلا

فــأقسمت لا فــارقت قـومي ومـوطني

ولـــو أسكنـــوني جنـــة الخلـــد منزلا

المشهد الخامس عشر

ينتهي الحفـل ويخرج الجميـع يبقى الأمير وحـده ـ تخفت الأضـواء يتذكر الفتاة الرسامـة ـ يسلـط الضوء على وجهها في جـانب المسرح الآخر ينشد الأمير) :

سمعت عن الحب طـــول حيـــــاتي
وأخبـــار أهــل الهــوى بــــالمئــــات

وشـــــاهـــــدت أعراضــــه في وجـوه
الرجــــــال، وفي أدمــع الفتيـــــات

فلم أستطــــــــــــــــع فهم أسراره
ولا كشف مــــا فيــــه من مبهمات

ولمــــــا سخرت من العـــــــاشقين
أشــاحــوا، وقـــالـوا : «نهـــارك آت»

فهـــا أنـــــا ذا غـــــارق في الغرام
بقلبي، وعقلي، وروحي، وذاتي

الملكة (يسلط عليها ضوء أزرق وهي تنصت إلى ابنها سعيـدة بحبـه ـ تظهر له حين ينتهي من غنـائـه سائلـة) : عزيزي.. أصحيح مـا أسمع ؟.. أحقا انك غـارق في الغرام بقلبـك، وعقلـك، وروحـك، وذاتـك ؟ من هي هذه السعيدة يا ولدي من هي ؟ (موسيقى ـ تنشد) :

ســـأخطبهـــا لـــك يـــا ولـــدي
وتبقى عروســــــك لـــــلأبــــــد

الأمير (يغني) :

لا تخطبيهــــــــــا، إنني
أريــــــــــد أن تحبني
كما أنـــــا، لا لإمــــــا
رتي، ولا أبي الغني

المشهد السادس عشر

الرسامة : (أمام لوحتها في نفس المكان وبملابس أخرى ترسم وتغني).
الأمير : (يظهر الأمير أثناء الأغنية بشكله الطبيعي العادي، ودون تنكر - يقف خلفها ينصت إلى الأغنية وينظر إلى اللوحة) -

الرسامة (تغني) :

وهبت للفن عمري
فبلغوا الحب عذري
فليس لي غير قلب
يدق داخل صدري
به أحب وأهوى
إليه سلمت أمري
فاختار أن يعشق الفـ
ـن دون زيد وعمرو
من يعشق الفن يسعد
بدفئه المستمر
ولا يخاف عليه
غدرا ولا ذل هجر..

الأمير (مخالفاً لها) :

هو الحب يعمي أهله ويصمهم
ويرمي بهم في لجة ما لها قعر

فـلا تـأمني أمـواجـه وريـاحـه
على قلبـك الخـالي فكم مثلـك اغتروا
الرسامة (مستغربة) :
أراك مجربـــــــا حر الغرام
وقلبـــك قـــد تعرض للسهـــام
فهـل خـانتـــك أو هجرتـــك أنثى
أم اختطفت هـواك يـــد الحمـــام ؟
الأمير :
أبـــدا.. لا شيء من هـــذا جرى..
فـــــالتي أحببتهـــــا لا تعلم
أنني أعبـــــدهـــــا، وهي التي
ســـوف تحيي أملي أو تعـــــدم
الرسامة : (مستغربة تنصحه) :
لمــــاذا إذن لا تبـــوح لهـــا
بحبـــك هـــذا، وتنهي شقـــاك
فـــأنت فتى لا غبـــار عليـــك
وكم من فتـــاة تـــود لقـــاك
الأمير : (مستبشرا مسرورا) :
أحقـا كـلامـك هـذا ؟ أحقـا ؟
أم القلب منـــك لحـــالي رقـــا ؟
إذا كان هـــذا شعـــورك نحـــوي
فمـــا سمـع القلب منـــه أرقـــا

(يذهب عنها مودعا بقبلة في الهواء، وهو يردد آخر كلماته راقصا سعيدا)

الرسامة : (تبقى تنظر إليه بابتسامة فيها تساؤل وحيرة ـ تنشد) :

لقـــد سمعت صــوت هـــذا الفتى
من قبــل، أين، يــا ترى، أينــا ؟
لم ألـــق إلا الشيـــخ من قبلـــه
مــا أشبـــه الصـــوتين إذ رنــا

(تلغي الفكرة من ذهنها بحركة من يدها، وتعود إلى الرسم.
ثم تتوقف قليلا وتنظر إلى حيث اختفى الأمير، وتنشد).

أحب الصغير ولكنـــــه
مصــاب بسهم هــوى شــارد
وأهـــوى الكبير لحكمتـــه
وسر على نبلـــه شـــاهـــد
فيــــا ليت أنهما اجتمعـــا
معــا لي في رجــل واحـــد

(ستار)

المشهد السابع عشر

(في مخدع نوم الأمير ليلة دخلته.. موسيقى العرس تقترب.. موكب العروس يدخل تسبقه الشموع، والراقصات، والهاتفات بحياة الأمير وعروسه، والضاربات على الدفوف.

(تدخل العروس ـ الرسامة ـ مغطاة الوجه بقناع شفاف تقودها الماشطة حتى تجلسها على حافة السرير، وتبدأ في خلع زينتها، وتمشيط شعرها.

(تسمع الموسيقى من بعيد).

العروس : (بلفهة) : ما شطتي العزيزة.

الماشطة : (بسرور) : لبيك يا قمري..

العروس : استحلفك بالله أن تجيبني عن سؤالي.

الماشطة : (بأسلوب فكاهي) على رأسي وعيني.. إذا لم أكن أقسمت ألا أجيب عليه.

العروس : بالله، ياعلياء، ما شكل الأمير ؟

وهل صغير السن أم هو كبير ؟

وهل جميل، الوجه أم دميم ؟

وهل غليظ القلب أم رحيم ؟

وهل كريم النفس أم أناني ؟

وهل يحبني ؟ وهل رآني ؟

وكم له من زوجة وجارية ؟

لست بهذه الأمور دارية ؟

الماشطة : (وهي تمشط شعرها من الخلف) : لا تقلقي.. ستعرفين الجواب على كل هذا هذه الليلة.

العروس : (مستعطفة) ولكنك تعرفينه؛ فماذا يضيرك لو أخبرتني..

الماشطة : هذا هو السؤال الذي أقسمت ألا أجيب عليه.

العروس : (خائبة الأمل) : ولكن لماذا ؟ أليس من حقي أن أعرف

الرجل الذي سأربط مصيري به قبل أن يدخل على مخدع الزواج ؟

الماشطة : (غير مهتمة) وماذا في ذلك ؟ أنا نفسي لم أر زوجي حتى ولدت طفلي الأول.

العروس : (غير مصدقة) ماذا ؟ أتسخرين مني ياعلياء ؟

الماشطة : (جادة) : لا والله، يا أميرتي..

العروس : ولكن كيف ؟

الماشطة : لأنه كان جنديا وكنا في حرب فقضى معي ثلاثة أيام فقط بعد عرسنا، كان يأتي فيها متأخرا جدا بالليل، ويخرج مبكرا جدا في الفجر، ولم يكن يحب النور.

العروس : ومتى رأيته ؟

الماشطة : حين انتهت الحرب، وولدتُ، فجاء للاحتفال بعقيقة الطفل. وحينئذ رأيته، وحمدت الله على أنه كان بشرا.

العروس : (مستغربة) وماذا كان يمكن أن يكون ؟

الماشطة : (رافعة أكتافها) : أي شيء. قردا مثلا !

العروس : (ضاحكة) وماذا لو كان قردا ؟

الماشطة : كنت سأحمد الله على أنه قرد. (تضحك على نكتتها ـ تسمع حركة على باب المخدع فتسارع بالخروج.. هامسة) : لعله العريس قادم. اسمعي.. لا تقلقي أبدا.. إذا لم يعجبك العريس فحدّثيه عن إبنتي. قولي له إنها فاتنة !

(تضحك وتخرج)

المشهد الثامن عشر

العروس : (تنتظر لحظة على أنغام موسيقى بدأت خافتة قبل خروج الماشطة. تنشد) :

صلـوا لأجلي يـــا مـلائكـــة السماء
في ليلتي الــزوجيـــــة العـــــذراء
صلـــــوا لأجلى كي يرق فـــــؤاده
لبراءتي، ومخــــــاوفي الخرســـــا
صلـــــوا معي ليحبني وأحبــــــــه
ويطــول عمر سعـــــادتي وهنــــائي

المشهد التاسع عشر

العروس : (تنتهي من غنـائهـا وابتهـالهـا.. تسمع حركـة خلف استـار الشرفـة، فتقـوم وتـزيـح الستــار فتجـد الأمير في ثيــاب العجـوز المسـافر الـذي تعرفت عليـه وهي ترسم على بـاب المدينة.. تصيح فيه مستنكرة، وكاتمة صوتها :

ويلـــك يـــا مغفـل !
مــــاذا أتيت تفعـــل ؟
كيف دخلت مخـــــــدع الأمير ؟!
يـــالـــك من مغـــامر كبير !!

العجوز :

ان الأمير رجـــل مسن
تحت ركام سنـــــه يئن

إلى الغرام لم يعـــد يحن

وبـالغـواني لم يعـد يجن

العروس : (غاضبة) :

عيب عليك، أيها العجوز !

ان اغتياب النـاس لا يجوز

مثلك بالشباب مـا تبـاهى

ان الجبال لا ترى ذراهـا !

العجوز : (يخرج من مرقعته ويخلع لحيته) :

صـــدقت، فــــإني كنت أحسب انني

صغير، وسني لا يفـــوق أصـــابعي

ســــأخرج من شيخـــوختي غير آسف

عليهـــا، إلى عمر الـــزهـــور اليـــوانـــع

العروس : (فاغرة فمها في اندهاش) ؟

أنت الـــــــذي...

الأمير :

أنـــا الـــذي أتـــاك

في زي شيـخ مـاكر افـاك

وزي شـاب عـاشق يهـواك

العروس : (خائفة عليه) :

أنت، أكيـدا، يـافتى مجنون

سوف تحوم حولنـا الظنـون

فلـو رآك هـا هنـا الحراس

لم يبق بين كتفيك رأس....!

الأمير : (بصوت عال)

أصـابني حبـك بـالجنـون

فليقتلـوني، أو يعـذبـوني

يا يـأيها الحراس امسكوني

ولأمير قصركم خـــذوني

المشهد العشرون

(يـدخل الحراس والـوصـائف، فينحنـون أمـام الأمير إجـلالا، تـدرك العروس أنـه زوجهـا المجهـول، فتركـع هي الأخرى أمـامـه، فيمسـك بيـدهـا ويوقفها إلى جانبه.

(رقصة النهاية على أغنية) :

أنـــا الحب، أنـــا الحب

وقلبي مـــالـــه قلب

أنـــا طفـــل صغير لم

يـــزل في مهـــده يحبـــو

ولكن لي جنـــاحـــان

وقـــوس سهمـــه صلب

تصيب القلب عن بعـــد

فمـــا تخطي ولا تنبـــو

بهـــا أرمي قلـــوبـــا لم

تـــذق حبـــا ولم تصب

(ستار النهاية)

الرباط **أحمد عبد السلام البقالي**

الثقافة المغربية
من منظور تاريخي

عبد القادر زمامة

هناك في حياتنا المغربية وأمام تيارات المفاهيم في هذا العصر.. ما يجعلنا نقف لحظات تأمل، من أجل ربط الحلقات، وإحكام الصلات بين عناصر الثقافة المغربية الأصيلة، ومفاهيمها، ومعطياتها، وخطواتها نحو أداء رسالتها في هذا العصر، كما أدتها في عصور سالفة...

ولعله من المفيد في لحظات التأمل هاته. أن نولي قضية الموضوعية والمنهاجية بعض ما يليق بها من اهتمام لتتضح أمامنا سبل الدراسة والبحث عن هذه الثقافة من منظور تاريخي...

وإنه مهما اتجهنا إلى محاولة التدقيق في تصنيف المفاهيم لا يمكننا عمليا أن ننسى أو نتناسى تلك الخطوط التي تلتقي عندها مفاهيم عديدة : الثقافة، التعليم، التربية، الحضارة، الفنون...

ومن باب المنهاج والموضوعية بذلت مجهودات لإبراز خصوصيات كل مفهوم من هذه المفاهيم غير أن الممارسة في باب البحث كافية لإقناعها إن لم نكن مقتنعين أن هناك خطوطا للقاء... ونقطا للإشتراك... إن لم نقل للتداخل، والتكامل بين هذه المفاهيم في مختلف العصور...

على ضوء هذه النظرة، المتعلقة بتحديد المفاهيم، أو على الأصح بمحاولة تحديد المفاهيم ـ نجد أن الثقافة المغربية ككل الثقافات، تعني عصارة مستخلصة من معارف متنوعة، وتجارب متعددة، وألوان، ورواسب، بعضها يرجع إلى ما ورثناه عن الماضي القريب والبعيد.. وبعضها يرجع إلى ما نعيش فيه من بيئة طبيعية واجتماعية، وهذه العصارة المستخلصة لها أثر واضح في توجيه الإنسان، والتحكم إلى حد ما في طبع شخصيته، وسلوكه، وتعامله مع الحياة، والأحياء...

وبهذا الاعتبار يكون للثقافة مفهوم نظري... له معطيات عملية... متسلسة... متدفقة مع تيارات الحياة... في جدها.. وهزلها... ومحاسنها... ومباذلها... وتطورها.. وجمودها...

وهنا نجد العنصر التاريخي، يفرض نفسه علينا عند محاولة إعطاء صورة متكاملة عن الثقافة المغربية سواء تعلق الأمر بمفهومها المتجدد... أو تعلق الأمر بعطائها المتدفق في عدة ميادين...

ونحن نعلم موضوعيا ومنهاجيا، أن التاريخ ليس في حقيقة الأمر صفحة تنشر وتطوى في ضباب القدم... وليس ـ كما يقال ـ خطا متوهما ترسمه حركات الزمان، بين حقبة وأخرى، لتقول لنا بلسان الحال :

ـ هذا ماض أدبر...!

ـ وهذا حاضر أقبل...!

بل إن التاريخ أحببنا أم كرهنا هو عند التعمق في الفهم، والدرس ذلك الجسر الطويل الذي تمر به تجارب الإنسان مع الحياة، أخذا وعطاء... تكون في الغالب نتيجة لما قبلها... وعلة لما بعدها...!

فالثقافة بهذا الاعتبار وهذا المعيار، لا يمكن أن تتخلص وحدها من العامل التاريخي، القابض على زمام العلل، والأسباب والمقدمات والنتائج... وتصل إلينا دون تأثر بما صادفته على هذا الجسر الممتد عبر القرون... ودون أن يترك فيها التاريخ رواسبه المتنوعة : ابداعا... وتقليدا... وجدا... وهزلا... وخيرا... وشرا...

وغني عن الإيضاح هنا، أن المنظور التاريخي ليس رجوعا عابثا إلى الوراء... وليس وقوفا بليدا عندما خلفه لنا السابقون... ولكنه منظور متزن يمدنا بثروات مكنونة تكسبنا قدرة على التحليل والتركيب، وتثبت أقدامنا في خطواتنا نحو التقدم والتجديد ليلا نتزلق إلى هوتي : الجمود... من جهة... والميوعة من جهة أخرى...!!

والمنظور التاريخي ليس وقفا على المثقفين الباحثين، الدارسين، أصحاب المناهج، والرسائل، والكراسي... ولكنه يتعدى ذلك إلى المثقفين أصحاب التجارب الذاتية، والطموحات الإبداعية...

فكل من الصنفين يجد في المنظور التاريخي للثقافة المغربية، أرضية صلبة تحته لاستيعاب الماضي... وتجديد البالي... وتكميل الناقص...

وتـوسيـع المفـاهيم... وتنميـة العطـاءات... سـواء تعلـق الأمر بـدراسـة موضوعية... أو إبداع ذاتي...!

بعد التـذكير بهذا المسلمـات، يمكننـا على ضوء المنظور التـاريخي أن نلتفت إلى الثقافة المغربية باعتبارها نسيجـا دقيق الخيوط.. وإلى الإنسـان المغربي بـاعتبـاره صـاحب هـذا النسيج الـذي جمع هـذه الخيـوط، ولـونهـا، ونسقهـا، وشكلهـا... ترفعـه رافعـة الإبـداع والإبتكار... وتخفضـه خـافضـة الاقتباس، والتقليد...

فالبنية المغربية المتنوعـة بين الخصب، والجـدب، والغـابـة، والصحراء، والسهل، والجبل، والهضـاب، والسواحل، والتيـارات البشريـة المتـدفقـة على هذه البيئة منذ فجر التاريخ. كونت مجتمعا متماسك البنية. متميز الشخصيـة، قادرا على التكيف والهضم والاستيعاب...

وسواء عـاش هـذا المجتمع حـول الـواحـات، أو المروج أو الأنهـار أو في المدن والقرى، فإن أعرافه، وعـاداتـه، ومعتقـداتـه وأنمـاط العيش، ووسـائل الاكتساب، أكسبته تجارب، ومعارف، كانت نواة ثقافته...

كما أن الحضـارات الوافـدة عليـه هيـأت لـه فرصـا متعـددة للاختيـار والاقتباس، والمقارنة، والتقليد، والتجديد، وزادت فهيـأت لـه فرصـا أخرى لاكتساب المناعة أمام تحديات وابتلاءات متعددة...

ومـع الامتـداد الإسـلامي ومـا حملـه من سبـل للمعرفـة، والحضـارة، والثقافة، وما حرك من سواكن، وما أحدث من روابـط اجتماعيـة، ومشـاعر اخلاقية، ودينية. شاهدنا تحولا ثقافيا شمل الحياة المغربيـة، تعبيرا، وتفكيرا،

وتنظيما لأصناف من المعرفة، اتخذت لغة الضاد وسيلتها للتعبير إلقاء وتحملا...

وبذلك ارتبط الإنسان المغربي بمصادر جديدة للمعرفة، وأمكنه أن يستكمل العناصر المؤهلة لتحقيق طموحاته الذاتية، والتعبير عن هويته، خلال عصور كان المغرب فيها محورا لعدة إشعاعات حضارية، وثقافية، في أقطار الغرب الإسلامي...

وعندما يصل بنا المنظور التاريخي إلى محاولة تقديم عناصر الثقافة المغربية التي نبضت بها الحياة المغربية، وما زالت تنبض بها إلى الآن ـ مع تطور في المفاهيم وتنوع في العطاءات أشرنا إليها سابقا ـ نجد أنفسنا أمام أشياء متفاوتة، في القيم والأهمية، ولكنها ذات ملامح معبرة عما وراءها في كل عصر من عصور التاريخ المغربي...

فمن ناحية المبدأ هناك عنصران أساسيان : عنصر الثقافة المكتوبة التي نتتبعها في عدة موضوعات من كتب التاريخ والجغرافية، والرحلات، والأدب والقصص وما إليها.. وهي تعين لنا ملامح خصوصيات ثقافية.. وعنصر الثقافة المسموعة في الأمثال، والأساطير، والحكايات، والمأثورات الشعبية بسائر أقسامها وأسمائها المتعددة في كل إقليم...

وإلى جانب هذين العنصرين، نجد عناصر أخرى تزخر بها العادات، والمناسبات، كما يزخر بها الذوق المغربي، وحاسة شعوره بالجمال المطبوع، والمصنوع... فينطلق معبرا بالكلمة، وبالحركة، وبالرسم، واللون، والنقش والتخطيط... وتاخذ هذه الأشياء مما ذكرنا، ومما لم نذكر، أسماء متعددة في معجم الثقافة المغربية، المتضخم عبر الأجيال...

وهكذا وبمنظور تـاريخي نجـد الثقـافـة المغربيـة ذات جـذور عميقـة، ولذلك استطاعت أن تحتفظ بكثير من ملامحها وعطـاءاتهـا ورواسبهـا، وأن تأخذ تلك العطاءات ـ ولا سيا ما كان منها من المـأثوراث الشعبيـة ـ حيزا متميزا في عدة أقاليم... بدوية وحضرية...

والمثقف المغربي يظهر لنا في ملامحه التاريخية التي تصورها لنـا كتب التاريخ، والجغرافية، والرحلات وما إليهـا يوم كانت أقطـار الشرق والغرب الإسلامية تمثل الملتقى الدائم لنتاج العبقريات فيبدو هـذا المثقف هنـاك ذا خصوصيات في اهتماماته وسلوكه وتمسكه بمأثوراته المغربية، ينشرها، ويدافع عنها الشيء الذي لفت إليه الأنظـار وجعل النـاس يختلفون في الحكم لـه... وعليه... بما هو معروف في كتب الأندلسيين... والمشرقيين..!

وتعطي الفنـون المغربيـة مـادتهـا المتسعـة المتنـوعـة في النغم الآلي، والصـوتي، وأنـواع المـوسيقى، والرقص، وقصـائـد الشعر المـوزون والملحـون، لتكون معالم للثقافة المغربية المتميزة المرتبطة بحلقات تاريخية متسلسة عبرت إلينا بوسائل شتى... لا مجال هنا لتتبعها... واستقراء مواردها ومصادرها...

وكان اللقاء الذي تم بين الثقافة المغربية وبين الثقافـات الوافـدة منـذ مطلع القرن العشرين، مناسبة أظهرت فيها ثقافتنـا منـاعتهـا، وحصـانتهـا، وقوتهـا... فرغم الفتور والتوقف والـدهشـة الحـاصلـة أول الأمر، كان هنـاك انبعاث، وحيوية، وتجديد، وتلقيح، وإضافات... كما كان هنـاك تمييع يخشى أن تنتقل عدواه إلى عناصر من ثقافتنا فتفقدها ذلك الإشعاع الذي يحتفـظ به منذ قرون...

وأخذ البحث في ألوان من الثقافة المغربية المكتوبة والمسموعة حيزا من أبحاث ودراسات، لدوافع شتى، وأهداف عديدة، وكانت حصائل هذه الدراسات والأبحاث مما يؤيد عمق الثقافة المغربية وارتباط معطياتها بالذاتية المغربية من جهة... والعقلية المغربية من جهة أخرى...

واستكمالا للمنظور التاريخي واستنادا عليه ينبغي عند الدراسة، أو العرض، أو التصنيف، ألا نسرف على أنفسنا، وألا نسرف على الثقافة المغربية بذلك الفيض من التعميمات، والتفسيرات البعيدة شكلا، ومضمونا، عن حقيقة الأشياء، ومنطق التاريخ، وميسرة الحضارة...

فمن أصناف الثقافة ما يدور في نطاق جزئي محدود..! ومنها ما يدور في نطاق محلي معروف..!

فينبغي ألا نتجاوز بها عند الدراسة والعرض والاستنتاج نطاقها ومجالها وواقعها من الثقافة المغربية في كلياتها ومظاهرها العامة..!

وفي مقابل هذه الجزئيات والمحليات نجد الكليات ذات الطابع العام الأصيل المرتبط بالعقلية المغربية الخصبة، حضاريا وتاريخيا...

والخصوصيات التي طبعت المثقف المغربي عبر القرون هي بطبيعة الحال خصوصيات اشترك في تكوينها جميع المؤثرات المادية والمعنوية التي عاش تحت ظلالها...

والمنظور التاريخي يعطينا صورا متعددة ومتكاملة عن الثقافة المغربية البارزة في كل عصر من العصور، مع تعليل يفسر الاهتمامات، ونقط القوة والضعف، والجد، والهزل، والإيداع والتقليد...

وغني عن البيان أن المنظور التاريخي للثقافة المغربية ليس حاجزا.. وليس عائقا عن التطور، والتجديد، والتفاعل مع معطيات وعبقريات العصر في العلوم والفنون والآداب.

فـــاس **عبد القادر زمامة**

شعر السلاطين والأمراء المرينيين

رضوان ابن شقرون

لقد أسهم السلاطين والأمراء من الأسرة المرينية التي قادت الحركة السياسية والحضارية والفكرية بالمغرب في ازدهار النهضة الشعرية إسهامات مشهودة، واكبت جهودهم السياسية والفكرية في قيادة المغرب إلى مشارف الرقي والحضارة والوحدة.

وتحتفظ لنا المصادر بنتف من أشعار السلاطين والأمراء المرينيين، نؤجل الحكم عليها إلى حين، ونسوق أمثلة منها لبعضهم، تحمل دلالات صريحة ناطقة بالقدرة اللغوية والملكة الشعرية التي كانوا يتمتعون بها، مبتدئين بالسلاطين، معقبين بالأمراء، منتهين إلى التقويم العام.

شعر السلاطين :

كان السلطان يعقوب بن عبد الحق[1] يحرر كتبه إلى ملوك تلمسان من بني زيان بنفسه، ومما ورد في رسالة وجهها إلى يغمراسن بن زيان كلام طويل يشتمل على عتاب على طول العناد، ودعوة إلى التقوى والتعاون والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وقد ضمنه هذه الأبيات (رجز) :

واعمل على الجهاد والرباط	وكن بغزو الروم ذا اغتباط
حتى متى لا ترعوي، حتى متى ؟	لابد من كأس الحمام للفتى
فإن أبيت السير للجهاد	وحدت عن مناهج الرشاد
فلتترك الناس إلى جهادهم	مؤمنين في حمى بلادهم
واقعد ولا تنهض إلى تجين	فإنهم في العهد مع مرين[2]

ولعل أهم ما يسترعي الانتباه في هذه المقطوعة أنها سلسة لا تعقيد فيها ولا صنعة.

وكان السلطان أبو الحسن[3] معروفا بالعلم والأدب، مشتهرا بذلك، بارعا في الشعر خاصة. له موشحة بديعة يصف بها منتزها في قرطبة، اسمه

1) أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو، السلطان السادس في قائمة ملوك الدولة المرينية، تولى بين سنة 656 وسنة 685 هـ (1258 ـ 1286م).

2) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، طبعة دار المنصور، الرباط 1973 ص 335 ـ 336.

3) أبو الحسن علي ابن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، السلطان الحادي عشر، تولى بين 731 و752 هـ (1331 ـ 1351م).

«منتزه السد» وقف عليه وأعجب به فألهمه شعرا فيه رقة الشعراء، ونخوة الأمراء، ونفحة المجددين، وأوصاف البارعين. وذلك قوله : (موشح)

في نَغمـة العـود والسُّلافَـةْ والرَّوض والنهر والنَّـديم
أطـال من لا مني خِـلاَفَـةْ فظـلّ في نُصحـه مُليمْ

دعني على منهـج التصـابي مـا قـام لي العـذر بـالشبـاب
ولا تُطِـل في المنى عتـابي فلست أُصغي إلى عتـاب
لا ترج ردي إلى صـواب والكأس تفترّ عن حبـاب

والغصنْ يبـدي لنـا انعطـافَـةْ إذا هفـا فـوقـه النسيمْ
والروضُ أهـدى لنـا قِطـافَـةْ واختـال في بُرده الرقيمْ

يـا حبـذ اعهَـدي القـديمْ ومن بـه هِمتُ مُسعِـدي
ريم عن الـوصـل لا يَريمْ مـوَلّـعٌ بـالتّـودّدِ
مـا تمّ إلا بـه النعيمْ طـوعـاً على رغم حُسّـدي

معتـدل القـدّ، ذو نحـافَـةْ أسقمني طرفـه السّقيمْ
ورام طرفي بـه انتصـافَـةْ فخـدّ في خَـدّه الكليمْ

غضُّ الصّبـَا عـاطِرُ المقبّـلْ أحلى من الأمنِ والأمـلْ
ظـامي الحشـا، مفعم المخلخـل حلـو اللمى، سـاحر المُقَـلْ
لكلّ مَن رامـه تـوصّـلْ لم يخش ردا بمـا فَعـلْ

أشكــو، فيُبْـــدي لي اعترافَـــهْ إن حــــاد عن نهجـــه القــويمْ
لا أعـــدَمُ الـــدهرَ فيـــه رافَـــهْ فحــــق لي فيـــــه أن أهيم

للـــــــه عصرٌ لنـــــا تقضىَّ بـــــالسّـــدِّ والمنبر البهيـــجْ
أرى ادكّاري إليــــه فرضـــــا وشـــوقــــه دائمــــاً يهيـــجْ
فكم خلعنـــا عليـــه غمْضـــا وللصّبـــــا منسرح أريــــج

وِردٌ أطـــال المنى ارتشــــافَـــهْ حتى انقضى شربـــــــه الكريمْ
للـــــه مـــــا أسرع انحرافـــــه وهكـــذا الـــدهرُ : لا يــــديم

يـــــا من يحثّ المطيّ غربـــــا عَـــرِّج على حضرة الملـــــوكْ
وانثر بهـــا إن سفحت غربـــا من مــدمـع عـــاطـل سلـوك
واسمــع إلى من أقـــام صبّـــا واحـــك صــــداه، لا فض فــوك

بلــغ سـلامي قصر الرصـــافــه وذكروا عهــــدي القــــــديم
وحي عني دار الخـــــلافـــــه وقف بهــــا وقفـــة الغريم[4]

ولأبي الحسن كـذلـك شعر في الفخر، منـه قولـه يفتخر بـالاستقـامـة والإباء والكرم والشجاعة، وهي موضوعات تقليديـة، لـذلـك نرى عبـاراتها غاية في التقليد، خلافا لما نلاحظه في الموشحة الآنفة (وافر) :

4) الموشحة من روضة النسرين، لابن الأحمر، المطبعة الملكية، الربـاط 1982 ص 26، ومن نفح الطيب، للمقري، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة بيروت 1968 : 22/2.

أُرضّي اللــــــــــه في سرٍّ وجهر   وأحمي العِرض عن [كل][5] ارتياب
وأعطي الوفر من مــالي اختيــارا   وأضرب بـالسيـوف طلى الرقـاب[6]

واشتهر لأبي الحسن أيضا بيت أنشده لما تم بناء المدرسة الجديدة بمكناسة الزيتون، وقدم إليها من عاصمته فاس، ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها؛ فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتقييدات اللازمة فيها، فغرقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها، وأنشد (رجز) :

لا بـأس بـالغـالي إذا قيـل حسن   ليس لمـا قرَّت بـه العين ثمن[7]

فسار البيت مثلا يتردد على ألسنة المغاربة منذئذ.

وكان السلطان أبو عنان[8] كذلك ذواقة للشعر مشاركا فيه بمقطعات نظم بعضها على البديهة مثل قوله في رجل يتظاهر بالصلاح ولكنه في واقعه بعيد عن صفات الصالحين وسلوكهم (وافر) :

تراهم في ظـــواهرهم كرامـــا   ويخفـون المكيـدةَ والخـداعـا[9]

---

5) في المصادر : «عن دنس وارتياب»، ولا يستقيم الوزن به، فلعله تصحيف.

6) ابن الأحمر : نثير الجمان، تحقيق د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1976 ص 68.

7) المقري : نفح الطيب 614/6 والناصري : الاستقصا، طب. دار الكتاب، الدار البيضاء 1954 : 177/3.

8) أبو عنان فارس ابن أبي الحسن، السلطان الثاني عشر، تولى بين 752 و759 هـ (1351 - 1358م).

9) نثير الجمان 70.

وكان يوما في مجلس مع جارية يحبها، فأخذ تفاحة ونقش عليها بيتين، ورمى بها لجاريته، وهما قوله (مجزوء الكامل) :

خذها إليك هدية من كف ملك مالك
يبدي العطايا دائبا ويبيد شمل الفاتك[10]

وكانت لهذا السلطان دواة زاهية مزخرفة نقشت عليها الأبيات الخفيفة الآتية (مجزوء الرجز) :

أنا دَواهٌ فارسٍ أبي عنان المعتمد
حلفت من يَكتبُ بي بالواحد الفرد الصمد
أن لا يَمدّ مدةً في قَطع رِزقٍ لأَحَد[11]

وله كذلك في النسيب مقطوعة يعبر فيها عن تباريح الصبابة، ويصف من رماه بنبال الدلال ونصال النظرات الفتاكة، وصفا تستمد صوره وأدواته من أجواء الشاعر الأمير عبد الله بن المعتز العباسي، المعروف بأوصافه الحسان واستخدام الهلال واللؤلؤ والفضة والزورق والعطر... ويستعمل السلطان المريني أبو عنان مثل هذه الأدوات في قوله (منسرح) :

يا رامياً بالنبال من غَنج وصائلا بالنصال من دَعَج
وبادياً كالهِلال في سُحب وطافحاً من سُلافة الفَلَج

10) المصدر المتقدم نفسه.

11) المقري : أزهار الرياض، تحقيق جماعة من الأساتذة، طب، 1978 : 40/1.

وبــــــــــاسماً عن لآلئ نُسقت ونـــــــاسماً كل عــــــــاطرٍ أرج
رفقــا بقلبي فــإن فيـــه هــوى ولا تطــل في المــلال والحرج[12]

وله في نفس المعنى مقطوعة أخرى يدعي فيها أن السقام والسهاد قد نالا منه (الكامل المجزوء المذيل) :

جسمي أضرَّبـــــه السَّقـــــام والجَفنُ قـــد عُـــدِم المنـــام
يـــــا هــــــاجري، مِنّي على أنـــوارِ غرتـــــك الســـلام[13]

وتبدو الصنعة جلية في البيتين الآتيين الذين يظهر أنه قصد فيهما إلى «العكس والتبديل» المعروف عند أصحاب البديع، وكأن أبا عنان لم يكن يقصد إلا إلى ذلك قصدا (مجزوء الكامل) :

رمى تصــــــــــــــــوّب حبي حبي تصــــــــــــــــوب رمي
نهى تقــــــاصـــــــــد خلّي خلي تقــــــاصـــــــد نهي[14]

ويروى له في الحكمة بيت مفرد اشتهر على ألسنة الناس إلى اليوم، لم نقف له على زيادة، وذلك قوله (الكامل) :

---

12) عبد الله كنون : النبوغ المغربي، طب (2). دار الكتاب اللبناني، بيروت 728/3.
13) المرجع المتقدم نفسه.
14) ابن الأحمر : روضة النسرين، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1982 بتحقيق عبد الوهاب بن منصور 27.

وإذا تصدّر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج[15]

وكان للسلطان أبي فارس عبد العزيز[16] مشاركة في دنيا القريض، وقد أكمل بيتي أبيه، السلطان أبي الحسن المتقدمين[17] بقوله (وافر) :

وأُرغِّبُ خـالقي في العفـو عني وأطلُب حِلمه يـومَ الحسـاب
وأرجـو عَـوْنَـه في عِـزِّ نَصر على الأعـداء محروس الجنـاب
وعبدُك واقفٌ بـالبـاب فـارحَم عُبيـداً خـائفـاً ألمَ العقـاب[18]

ومن شعره أيضا، وفيه شيء من الصنعة البديعية تظهر في «التضمين» (كامل) :

اللـه يلطِف بـالعبـاد فـواجبٌ أن يشكروا في كل حـالٍ نِعمتـه
فهْـو الـذي فيهم يُنزِلُ غَيثـه من بعد ما قنطوا وينشر رحمته[19]

---

15) النبوغ المغربي 810/3.

16) أبو فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن، السلطان الثامن عشر في قائمة ملوك الدولة المرينية، تولى بين 767 و774 هـ (1365 ـ 1372م).

17) راجع ص 225.
(يراعي فيها ترقيم الصفحات في المجلة).

18) الاستقصا 59/4.

19) النبوغ المغربي 738/3.

شعر الأمراء :

ومن الأمراء المرينيين الذين شاركوا في هذه الحركة الشعرية الأمير أبو مالك عبد الواحد ابن يعقوب بن عبد الحق، والأمير أبو علي ابن السلطان أبي سعيد الثاني، والأمير أحمد بن إبراهيم بن أبي الحسن، والأمير علي بن بدر الدين بن موسى.

فللأمير أبي مالك في الإقدام والجهاد من أجل نصرة الإسلام وتوحيد الصفوف ـ وكان هذا الأمير من قواد الجيش المريني، ومعروف عن ملوك هذه الدولة أنهم كانوا يعينون أبناءهم أمراء على البعوث العسكرية، أو حكاما على الإيالات المغربية ـ (كامل) :

فرقتَ في الميدان كل مليك وجمعتُ بين جَراه ونُسوك
وجعلتَ للإسلام حدّاً مالكاً كي لا يُعيّره العدا بسلوك[20]

وله أيضا يفتخر بالجود والشجاعة والإسهام في المغازي وحماية الثغور وإلحاق الهزائم بالأعداء (طويل) :

أجود بمالي لكل العْفاة وأقتَحِم الهَول في المعْضِلات
أقودُ الجيش وأصلى الحروب وأقتطف الهام بالمرْهفات
وأحمي ثغوري من أن تُنال وأغزو، وأنهَبُ أرضَ العُدات[21]

---

20) الأنيس المطرب 308.

21) الذخيرة السنية 140.

ولـلأمير أبي علي[22] في النسيب شعر تتجلى فيــه ألـوان من الصنعــة البديعية، كالطباق والمقابلة والجناس، ولكنها لا تخرج به عن حـدود الطبع، ولا تنال من سمات الجودة، كقوله (طويل) :

أغالب فيـك الشوق والشوقُ أغلبُ   وأطلبُ منك الوصل والنجم أقرب
ويُطمِعني قلبي بـــوصــــلٍ، وإنني   ســأعلم حقــا أن قلبي يكـــذب
حيــاتي ومـوتي في يــديــكَ وإنني   أمــوت وأحيي حين ترضى وتغضب
فلا الوصل يحييني، ولا الهجرُ قاتلي   ولا منك بُدٌّ، لا، ولا عنـك مهرب[23]

ولـه في الموضوع نفســه قطعـة تحمل نفس الطـابع الـذي يميز القطعـة السـابقـة، وكلاهمـا يـدل على قـدرة فنيـة عنـد الأمير أبي علي، وفيهـا يقول (كامل) :

مِـل يــا نسيمُ على غصـون المنـدَل   وأَنعِم بتلــك المــائســـات المُيّــل
وإذا مَررتَ على الـديـار فسَل بهـا   عن راحــلٍ منهــا ومن لم يَرحَــل
زمــوا المطيّ وخلّفــوني بعـــــدهم   تجري دمـوعي في رســوم المنزل[24]

وله يخاطب أخاه أبا الحسن أيـام حصـاره لـه، وقـد أيقن بزوال أمره (بسيط) :

---

22) هو شقيق السلطان أبي الحسن، وابن السلطان أبي سعيد عثمان الثاني، المتقدم الذكر.
23) النبوغ المغربي 727/3.
24) المرجع السابق 728/3.

فلا يَغرنــك الــدهر الخــؤونُ فكم أبـاد مَن كان قبلي يـا أبـا الحسن
الدهرُ مـذ كان لا يُبقي على صِفـةٍ لابــد من فَرَح فيـــه ومن حـَزَن
أين الملــوك التي كانت تهــــابهم أُسدُ العرين ؟ ثووا في اللحد والكفن
بعـد الأسِرَّة والتيجــان قــد مُحيت رسـومُهـا وعفت عن كل ذي حسن
فـاعمل لأخرى، وكن بـالله مؤتمِرا واستغنِ بـــاللـــه في سرٍّ وفي عَلَن
واختر لنفســــــك أمرا أنت آمره كأنني لم أكن يــومــــاً ولم تكن[25]

وللأمير أبي العباس أحمد بن إبراهيم[26] في الهوى الذي يقول إنه اتخذه مذهبا له، وامتاز فيـه عن غيره بـالوفـاء، رغم أن الفراق ينغض عليـه هواه، وذلك قوله (كامل) :

أمّا الهـوى يـا صـاحبي فـأَلِفتُـه وعَهِـدتُــه من عهـد أيـام الصبـا
ورأيتــه قــوتَ النفــوس وحَليَهَـا فتَخِـذتُــه دينـا إلي ومــذهبـــا
لكن رأيتُ لـــه الفراق منغصّــا لا مرحبـاً بفراقنـا، لا مرحبـا[27]

ويقول في التعلق بمدينة فاس ومغانيها التي تؤنسه وتنعشه (بسيط) :

---

25) الاستقصا 121/3.
26) من أمراء أواخر العهد المريني الـزاهر : أواسـط القرن الثـامن الهجري (14م)، وهـو حفيـد السلطان أبي الحسن.
27) النبوغ المغربي 738/3.

يا فاسُ إني وأيمُ الله ذو شَغَف بكل ربع به مغناه يسبيني
وقد أنِست بقرب منك يا أملي ونظرة فيك بالأُنْس تحييني[28]

وللأمير علي ابن بدر الدين بن موسى[29] قصيدة طويلة تفيض صبابة وشوقا، ولكنها تقصر دون المستوى الفني الرفيع لما حملت من التكلف الظاهر، والعنت في نظم الكلام، وهي بسبب ذلك تمثل مرحلة الانحطاط الذي آلت إليه دولة الشعر في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع، ومن هذه القصيدة قوله (طويل) :

أرقتَ وقد نام الخليُّ المسلّمُ وبي من أليم الشوق ما ليس أكتم
شهودي نجوم (راكدات)[30] كأنما عدت عن طريق القصد والليل مظلم
تُذكّرني من قد ُبليت بحبّه وفي القلب والأحشاء نار تضرم
قضيب من الريحان غصن منعّمٌ ولكنه بالوصل لي ليس ينعم
وضعتُ له خدي وقلت لعبرتي همي فوق خدي علّه لي يرحم

---

28) المرجع السابق نفسه.

29) من أمراء فترة الضعف والانحطاط في تاريخ المرينيين، التي بدأت مع نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع. وينظر في مراحل تاريخ الدولة : د. محمد ابن شقرون : مظاهر الثقافة المغربية، مطبعة الرسالة، الرباط 1982 ص 44 ـ 50. ود. إبراهيم حركات : معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب... مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد الثاني 1977 ص 205 ـ 243.

30) في الأصل : «راكدة»، ولا يسلم الوزن به، فلعله تصحيف.

لزمتَ البكا والشوقَ بعد فراقه	وقلتُ لـذي بثٍّ ودمعي يسجم
له مقلةٌ ترمي إذا اللحظ نالها	وثغرٌ كمثل الدُّرِّ حين ينظَّمُ
مريض، عليلُ الطرف من غير علة	فما أحد من سحر عينيه يسلم
نهيتُ فؤادي عنه فازداد لوعة	وهل يستطيع الصبرَ صَبٌّ متيَّمٌ ؟
يسرك يا مولاي إن متُّ بالهوى	وحسبك ما ألقاه والله أعلم
حكمتَ على قلبي فعذبتَ مهجتي	وللحب سلطان على الصَّبِّ يحكم
بعينيك ما ألقاه فيك من الأسى	وإني في حبي إليك مصمم
كتبت، فخذ من كل بيتي أولا	ودبِّره أحياناً لعلَّك تفهم[31]

تلك بعض أشعار السلاطين والأمراء من الأسرة المرينية. وقد كان القصد إلى عرضها حتى تكون أساسا لمعرفة حالة الشعر عامة في هذه الفترة الزاهية من تاريخ الأدب المغربي، ومعرفة خصائص القريض عند هذه الفئة من الشعراء خاصة، وهم الذين كان الشعر لديهم هواية ومتعة وفلتات فقط، لا صنعة أو حرفة أو دأبا.

ولعلنا نستطيع أن نستنتج مجموعة من الملاحظات النقدية، تسهم في إعطاء نظرة عما نهدف إليه :

أولا : فالموضوعات متنوعة على الرغم من قلة هذه النصوص، وهي تتناول الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام والمسلمين، وتتكلم في الزهد والتقوى، وتنطق بالحكمة؛ وفيها نسيب، وفخر، ووصف؛ وتلك كلها موضوعات تقليدية معروفة.

---

31) نثير الجمان 74، 75.

ثانيا : والبحور متنوعة تنوعا لافتا للنظر، لأن هذه المقطوعات القصيرة القليلة، وقد كنا هادفين حين بينا البحر الذي نظمت عليه كل واحدة منها، تتوزعها تسعة بحور شعرية، ثمانية منها قديمة خليلية هي : الطويل، والبسيط، والوافر، والكامل، ومجزوء الكامل، والرجز، ومجزوء الرجز[32]، والمنسرح؛ وواحد متطور جديد في عصره هو الموشح الذي ظهر في العصر المريني بالمغرب وانتشر بأثر الأندلسيين وبظهور وشاحين مغاربة بارعين، كما ظهر معه في الفترة ذاتها فن الزجل الذي برع فيه المغاربة كذلك لأسباب ليس هنا مجال البسط فيها.

كما أن القوافي متنوعة أيضا إلى حد يجعل الناظر في شعر هؤلاء السلاطين والأمراء يستيقن من قدراتهم اللغوية والفنية، ومن إدراكهم لقيمة القافية والروي وأثرهما في جمال الإيقاع وفي روعة التعبير وفي الدلالة على المقاصد، بل في عملية التواصل بين الشاعر والقارئ أو السامع.

ثالثا : لغة الشعر عند هؤلاء سليمة قوية دالة على تمكن الشعراء من لغتهم وعلى حضور البديهة عندهم، وهم يستخدمون الأساليب المناسبة لظروف الخطاب ولحظة الشعور : فالشعراء هنا ملوك أو أمراء، لذا يكثر عندهم استعمال أساليب الأمر والنهي والتحذير والزجر والتعجب والنداء والاستفهام بمعانيه المجازية لا بمعناه الحقيقي؛ وأحيانا يعمدون إلى أسلوب التقرير والإخبار، وذلك أيضا مناسب للأحوال والملابسات المتقدمة الإشارة إليها، ولا سيما عند السلاطين والأمراء الذين عاشوا في فترة الازدهار من حياة الدولة المرينية؛ أما أولئك الذين تأخر بهم الزمن إلى مراحل الضعف

32) نفضل أن نعد كلا من مجزوء الكامل ومجزوء الرجز بحرا مستقلا.

والانحلال والانحدار إلى السقوط، فإن أشعارهم ولغتها مالت مع هذه الرياح الهوجاء، وأصابها ما أصاب الحياة العامة من الضعف والانحدار، كما نلاحظه في شعر الأمير علي ابن بدر الدين، أو الأمير أحمد بن إبراهيم.

ففي النص الأخير من المختارات المتقدمة[33] نلاحظ أننا إذا تتبعنا الأبيات الثلاثة عشر أمكننا ـ استجابة لطلب الشاعر نفسه في البيت الأخير ـ أن نأخذ من كل بيت أول حروفه، ونجمع هذه الحروف فتتألف لدينا جملة مصطنعة عامية : «أشتقول لمن يحبك» !!

رابعا : أشعار هؤلاء المرينيين غنية بالصور الفنية بمختلف أشكالها وعناصرها وأدواتها. وهي مستمدة في أغلبها من أجواء الملوك والأمراء وحياتهم وأدواتهم وظروفهم، مع دقة في التصوير، وتتبع موفق لجزئيات الصورة، وفي موشحة أبي الحسن المتقدمة شاهد ناطق على هذا الزعم.

فأما مصادر الصورة عندهم فهي إما الطبيعة كالروض والنهر والغصن والنسيم، وإما جو الجد والحزم والاستقامة كالرباط والجهاد والغزو والحمام والرشاد، وإما صفات الشهامة والافتخار والتمدح كالكرم والسخاء والشجاعة والإخلاص، وإما جو المرح والسمر كالعود والنديم والسلافة والتصابي...

وأما أدوات التصوير عندهم فهي التشبيه وأنواع المجاز المعروفة، وبعض الصور البديعية التي تزين الأشعار المطبوعة، وتشين الأشعار المتكلفة المصنوعة :

---

33) راجع قصيدة الأمير علي ابن بدر الدين الميمية : أرقت وقد نام الخلي المسلم»... ص 232 و 233.

فمن التشبيه قول أبي عنان :

وبــــاديــــا كالهــلال في سحب   وطــافحــا من ســلافــة الفلــج

ومن الاستعارة قول أبي مالك :

أقـــود الجيـــوش وأصلي الحروب   وأقتطف الهـــام بـــالمرهفـــات

ومن التضمين قول أبي فارس :

فهــو الـــذي فيهم ينزل غيثــــه   من بعـدما قنطـوا وينشر رحمتـه

ومن الطباق قول أبي علي :

حيــاتي ومـوتي في يـديـك وإنني   أمـوت وأحيي حين ترضى وأغضب،

فلا الوصل يحييني ولا الهجر قـاتلي   ولا منك بد، لا، ولا عنـك مهرب

ومن الجناس قول أبي الحسن في الموشحة :

ورام طرفي بــــه انتصــــافــــه   فخـــــد في خـــــده الكليم

والموشحة زاخرة بـالصور والأدوات الفنيـة البـارعـة. كما وأن الجنـاس الحرفي وغير الحرفي من أنواع الجنـاس موفور في أغلب هـذه النصوص، يسبغ عليها حلة موسيقية مثيرة.

الدار البيضاء   **رضوان ابن شقرون**

أنا والمُعْتمدُ(*)

علي الصقلي

رنَّ في أعمــــاق أعمــــاقيَ صــوتُــــكْ
وتراءى لي، على بعــــــدك، سمتُــــكْ
ولــــو آني قِستُ يــــومــــا شـــــاعرا
بـــك في أحــلامــه، بي كنتُ قِستــكْ !
أنـــا لــولا الملــك مرفــوع الـــذُّرى
قلت : قـــد كنتَ أنـــا، واليــومَ كُنتُــكْ
فَكِــلانـــــا، نحن، قـــــد ذاق الهـــوى
والأسَى، لم تمض إلاَّ وتَلــــوتُـــــكْ
طــــاب وقتي بـــــالهـــوى رغم الأسى
مثلمــا، رغم الأسى، قــدْ طــابَ وقتــكْ

(*) ألقيت هذه القصيدة بقصر الثقافة في مختتم ندوة المعتمد بن عباد بمهرجان أصيلة الثقافي التاسع بتاريخ 1986/8/13.

بينَ آلافِ وجــــــــوهٍ تتجلىَ
لِي نعــوتٌ غير أن النعتَ نعتُــكْ

أنــا في ريـحِ الخُـزامى، في شـذا
زَهَرَاتِ الفُـلِّ نشـوَى قـدْ وجـدتُـكْ

في ائتـلاقِ الـوَردِ، في إيمـاضِـهِ
في ابتسـام الفجرِ، في الأنـداءِ، شمتُـكْ

في الليـالي البيضِ عشقـاً وجـوىً
في رحـابِ الخُرَّدِ الغيـدِ عرفتُـكْ

بينَ أسرابِ العـذارَى طـائرا
ثـائرَ الشّـوقِ، كَليمَ القلبِ، مِـزْتُـكْ

غَيرَ أنيِّ، ثَمَّ، في سَـاحِ العُلىَ
والمنـايـا زَاحِفـاتٌ، قَـدْ قَـدَرْتُـكْ

إذ رأيتُ العِـزَّ في ذِرْوَتِـهِ
والنَّـدَى في أوْجِـهِ حينَ رأيتُـكْ

هِمَّـةٌ ليسَ لهَـا إلا السُّهَـا
مَطْمَـحٌ، إنيِّ لهـذا قـدْ شُغِفْتُـكْ

وَجِـلَادٌ لم يَشبْـهُ خَـوَرٌ
وبـهِ في كل رَوْعٍ كانَ بَتُّـكْ

وإذا خَصمُـكَ يجَنُـو خَـاضِعـاً
لِثَبَـاتٍ في مجَـالِيـهِ افتقَـدتُـكْ

هُــــوَ مَــــــا يَحفِـــزُني نحـــوَ العُلَى
كلَّمَـــــا في غَمرةِ الهَـــوْلِ ذَكَرتــــــكْ

مَـــــــــــا رأيتُ الشعرَ والحبَّ على
أثَرِ الأَمجـــــادِ إلا مُـــذْ بَلَـــوْتُـــكْ

فَلَهَـــا، يـــــاشَهمُ، مَـــاهِمتَ بِـــهِ
وَلَهَـــا مَـــا صُغتَ، فـــالأمجـــاد بَيتُــك

وَبُثَيْنٌ خيرُ من تُنبِئُنَـــــــــــــا
إنهَـــا بِـــــالسِّرِّ أدرَى فهْيَ بِنْتُـــكْ

☆ ○ ☆

يَـــا ابنَ عَبَّـــادٍ، وفي قُرطُبَـــــةٍ
وبــــإشبيليــــةٍ أينَـــعَ نَبتُـــكْ

لَمْ تَرَ العُشَّـــــــــــــاق لاَ يَسحَرُهُمْ
ثَمَّ إلا اسمُـــكَ مِعطـــاراً وَصَـــوْتُـــكْ

في العُيــونِ النُّجْـــلِ في إِنسـانِهَــــا
في أسَـــاريرِ المعَـــامِيـــدِ اكْتَشَفْتُـــكْ

في حــــديثِ الحُبِّ مـــا بينَ المهَـــا
أنَـــا كَمْ عِشتُ الهـوَى حقـّـاً وعِشْتُـــكْ

لَم يفُتني منـــكَ لفـــظٌ واحِـــدٌ
لاَ ! وَلاَ يــومـــاً برُوحِي أنَـــا فُتُّـــكَ

☆ ○ ☆

أيُّهَـا النَّـاحتُ تِمثَـالَ الهَـوَى
يبَـدِ الصبِّ المُعَنَّى، جَـلَّ نَحتُـكْ
نحنُ مِنْ حَـوْلِـكَ أوعَى بِـالَّـذي
رُمْتَـهُ، ليسَ بِشيء هُـوَ صَمْتُـكْ
خَـالِـدٌ أنتَ، وتَبقَى خَـالِـدا
مـا بِـأنغمـاتَ أكيـداً كان مَـوْتُـكْ

أصيلة علي الصقلي

وثائق جديدة
عن الحركة الفكرية في العهد السعدي

محمد رزوق

بدأ في السنوات الأخيرة الاهتمام ببعض الوثائق التي ظلت مهمشة لفترة طويلة. فإلى وقت قريب كان المؤرخ للحياة الفكرية يتجه إلى كتب التاريخ التقليدية ليستقي منها مادته، فيصاب بخيبة أمل عند أول مواجهة مع المصدر، لقصوره، عن كتابة التاريخ الفكري والاجتماعي للمغرب. ولهذا السبب فقد اتجهت أبحاث عديدة إلى مناهج جديدة في محاولة منها لفك (الحصار المضروب على الوثائق الوطنية)، وادخالها إلى ميدان البحث التاريخي، مستخدمين في ذلك مناهج العلوم الأخرى كمناهج علم الاجتماع والانتربولوجيا، والاتنولوجيا، والاقتصاد، والاحصاء. وقد أعطت هذه الأبحاث بالفعل في مرحلتها الأولى نتائج مشجعة. ومن الوثائق التي بدأت تدخل ميدان تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب : الفهارس والإجازات لما لها من أهمية في إبراز نوعية العلوم الملقنة، وطريقة تلقينها، ودراسة سلوك

المشرفين عليها. ولاشك أنه بتجميع هذه الفهارس والإجازات يمكن أن نرصد الحركة الفكرية ونتتبع تطورها، وإشعاعها داخل المغرب وخارجه، وبالتالي فإن هذا النوع من الوثائق يوفر لنا مادة خام لا توفرها لنا المصادر التقليدية.

وسنعرض في مقالنا هذا الأنواع من الإجازات لعلماء من العصر السعدي عاشوا في فترة معينة، هي فترة أحمد المنصور الذهبي.

وتضم هذه الوثائق[1] :

- أربع إجازات.
- تدبيج واحد.
- فهرس واحد.

أولا : إجازة أبي القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف لأحمد ابن القاضي سنة 999 هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما[2].

وبعد، فيقول أقل عبيد الله تعالى : أحمد بن محمد بن أبي (العافية الشهير)[3] بابن القاضي - خار الله له بمنه، وأدخله برحمته في...[4] - :

---

1) مخطوط خاص بالرباط.
2) بياض بالأصل وما بين المعقوفين إضافة من إجازاته الأخرى.
3) بياض بالأصل والإضافة من إجازاته الأخرى.
4) بياض بالأصل.

قرأت...[5] الصالح المحدث المتفنن...[6] سيدي أبي القاسم بن عبد الواحد المخلوف...[7] الابر، الرحالة، قدوة أهل زمانه، وفريد وقته[8]، مالك بن أنس، واجازنا...[9] وحديث الرحمة المسلسل بالأولية، وأجازنا في كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه بحق روايته لذلك عن عدة مشايخ اعلام وعلماء عظام كالشيخ الصالح المقطوع بولايته المحدث أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي، والشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي، والشيخ العالم العامل، محدث الأنام، رجل الليالي والأيام : الشيخ قطب الدين العجمي المكي، عن استجازة والده ـ رحمه الله ـ عن مشايخ اعلام، كالشيخ نجم الدين الغيطي، والشيخ أبي الحسن البكري[10]، أبي إسحاق[11] بن عبد الرحمان العلقمي، والشيخ الطبلاوي، وجماعة وافرة. وأخذ شيخنا المذكور عن والده، عن نجم الدين الغيطي، وعن أبي الحسن البكري، وعن والده، وعن العلقمي، والطبلاوي المذكورين. وأجاز لنا ـ أبقاه الله ـ كل ما يحمله من الكتب الحديثية وغيرها بشرطه المعتبر عند أهله. وكان السماع المذكور بمراكش المرحوسة، وحضرة جماعة من الأصحاب،

---

5) بياض بالأصل.

6) كلمة غير مقروءة.

7) بياض بالأصل.

8) كتب بالأصل هكذا : (ولو أنه صدرا)، ولم نهتد إلى قراءتها.

9) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.

10) بياض بالأصل.

11) بالأصل : (أبي عبد الله)، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه. أنظر فهرس ابن القاضي **رائد الفلاح**، مخطوط غير مرقم، مخطوط بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ عدد 17 كينكس، وهي بخط المؤلف.

كإمام الدين محمد بن قاسم بن علي الخليلي، وأبي حفص عمر البسطي الفاسي...[12] بن سيدهم المحمدي، وأبي علي بن محمد الدرعي والحاج ابراهيم بن محمد...[13]، وأبي عبد الله بن مسعود الدرعي، وأبي سرحان مسعود بن عمرو الشباني في يوم الجمعة الثامن عشر من المحرم الذي من شهور سنة تسع وتسعين وتسعمائة.

وكتب للعبد المذكور، حامدا الله تعالى، ومصليا ومسلما ومحوقلا ومحسبلا، وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

صحيح ذلك، وكتب عبيد الله الفقير إليه : أبو القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف ـ وفقه الله لما يرضيه تعالى بمنه ـ. ومولدي تقريبا سنة اثنتين وستين وتسعمائة[14]... والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وأنشدنا مجيزنا المذكور عن قطب الدين العجمي المذكور :

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى	توهمته قد عاش (من أول الدهر)[15]
وتحسبه قد عاش (آخر عمره	إذا هو قد أبقى الجميل من الذكر)[16]
فكن عارفا أخبار (من مات وانقضى	وعش ذا نوال واغتنم أطول العمر) [17]

---

12) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.

13) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.

14) بياض بالأصل.

15) ما بين المعقوفين إضافة من **درة الحجال**، 1 : 5 ـ 6.

16) ما بين المعقوفين إضافة من المصدر السابق.

17) ما بين المعقوفين إضافة من المصدر السابق.

ثانيا : إجازة علي بن أحمد القرافي لأحمد بن القاضي مؤرخة في 11 ذي القعدة سنة 986 هـ/9 يناير 1579[18].

الحمد لله العظيم الأمجد، والصلاة والسلام على أشرف العالمين أحمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحزابه على الدوام.

وبعد، فقد قرأ علي المولى الأجل العالم العلامة أبو العباس أحمد بن مولانا أبي عبد الله محمد بن القاضي المغربي الفاسي - نفع الله تعالى به - فاتحة الكتاب المبين بقراءتها مني على مولانا قاضي قضاة المالكية بمصر أبي عبد الله محمد التتائي المالكي، شارح مختصر مولانا الشيخ خليل وغير ذلك من كل مؤلف جليل بقراءته إياها على شيخه مولانا شيخ مشايخ الإسلام برهان الدين اللقاني المالكي، بقراءته إياها على الشيخ علم الدين سليمان معلم أولاد الجان بقراءته إياها على شمهروس قاضي الجان بقراءته إياها على رسول الله - ﷺ، سيد ولد عدنان. وسمع ذلك علي بقراءته مولانا أحد مشايخ الإسلام الشيخ زين الدين أبي بكر الغمري وولده النجيب محمد وكذا الشيخ العالم العلامة زين الدين بن عبد الرحيم بن عبد الله[19] من أعمال فاس، وأجزت كل من ذكرمنهم بها وبجميع ما يجوز لي وعني روايته بشرطه المعتبر عند أهل الحديث والأثر في صبيحة يوم الجمعة المبارك حادي عشر ذي قعدة الحرام سنة ست وثمانين (وتسعمائة).

---

18) أنظر نص الإجازة أيضا عند أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور**، رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 2 : 687 - 688، وهي بتحقيقنا.

19) أنظر ترجمته عند ابن القاضي، **درة**، 3 : 116 رقم 1054.

وكتبه علي بن أحمد بن علي الأنصاري القرافي الشافعي حامد مصليا مسلما.

انتهى بنصه ومن خطه ـ رضي الله عنه ـ

ثالثا : إجازة جماعية للمفتي عبد الواحد الحسني السجلماسي في أواخر شوال عام 998 / غشت 1590 لأحمد بن القاضي ومحمد التواتي، ومحمد بن يعقوب الايسي جميع ما اشتمل عليه فهرسه.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما.

وبعد، فيقول أقل عبيد الله تعالى، وأحوجهم إليه : أحمد بن محمد ابن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي ـ خار الله له بمنه وأدخله برحمته في فضله وأمنه ـ : قرأت هذه **الفهرسة** المباركة على مؤلفها الشيخ العالم العلامة، المتفنن الفهامة السيد[20]... المسند حجة الاعلام، وحسنة الليالي والأيام، لسيدي وسندي ومفيدي ومعلمي أبو مالك سيدي عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني ـ أبقاه الله ملاذا للمسندين، ومطافا للمتعلمين، محمد وءاله ـ.

وإجازتي فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهله[21]، وكانت القراءة المذكورة بلفظي وحضرها جم غفير من طلبة العلم : كالشيخ الفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي،

---

20) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.

21) كتب مباشرة بعد كلمة (أهله) كلمة (في يوم).

والفقيه أبي عبد الله محمد ابن يعقوب الايسي الراوية الأديب الحافظ المتفنن وجماعة. وأجازني[22]... حضر بمثل الإجازة المذكورة في أواخر شوال المبارك عام ثمانية وتسعين وتسعمائة.

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما. آمين. صحيح ذلك.

قاله وكتبه بخطه عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن الحسن الحسني غفر الله لمنه.

رابعا : تدبيج[23] أحمد بن القاضي مع محمد بن أبي بكر التواتي (24 شوال عام 998 هـ/26 غشت 1590).

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما.

وبعد، فيقول كاتبه أقل عبيد الله تعالى أحمد بن محمد بن محمد ابن أحمد بن علي بن أبي العافية الشهير بابن القاضي ـ خارا لله له بمنه، وأدخله برحمته في فضله ويمنه ـ : قرأت على الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن الحاج موسى التواتي الذي ولد سنة إحدى وأربعين وتسعمائة بعض صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، وأجازني فيه بحق قراءته إياه على الشيخ الفقيه محمد بن

---

22) كلمة غير مقروءة.

23) التدبيج من مصلطحات المحدثين، وهو أن يروي قرين عن قرين، كأن يروى صحابي عن صحابي، أو تابعي عن تابعي، أو أي راو عن آخر يساويه سنا وسندا. وتوسع المتأخرون فجعلوا كل رواية بين الأقران في أي علم كان تدبيجا. أنظر محمد حجي، **الحركة الفكرية**، 1 : 110.

محمود بن أبي بكر بَغَيْغُ عن أبي عبد الله اندغمحمد بن محمد بن أحمد الدثر التازيختي، عن الشيخ أبي الفتح ابراهيم ابن علاء الدين القرشي القلقشندي، عن ابن حجر إلى آخره... ونص إجازته بعد البسملة والتصلية : الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، وأفضل الصلاة وأتم السلام على أفضل المخلوقين سيدنا ومولانا محمد رسول رب العالمين، وعلى ءاله وصحابه السادات البررة الأكرمين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين، وذلل كل وسائر عباد الله الصالحين. أشهد ألا إلاه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، الحق المبين، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الصادق الأمين.

وبعد فقد أجزت للأخ في الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن الحاج موسى التواتي - نور الله قلبي وقلبه بأنوار اليقين، وشرح صدري وصدره لتلقي فوائد العلم والدين - أن يروي عني صحيح الإمام الحجة أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن بردزبة البخاري - رضي الله عنه وأرضاه، وأعاد علينا من بركاته وبركات علومه - لسماعه مني قراءتي من أوله إلى آخره سوى فوتات يسيرة. وقراءته له علي من أوله لآخره عموما، فأجزت له روايته عني بالأمرين المذكورين لما تحققه - مع ذلك - من تأمله لذلك وصلاحه له - نفعه الله بذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم - وذلك بحق روايتي له عن شيخنا ناصر السنة وحامل لوائها أبي عبد الله اندغمحمد بن الفقيه محمد بن أحمد الدثر التازختي - رحمه الله مع أسلافه وأشياخه، وجازاه عنا وعن رسوله أفض وأحسن ما جازى به حملة حديثه ونقلة سنته - قراءة منه وسماعا من لفظه غير ما مرة قائلا : أخبرنا أجازة شيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة جمال الدين أبو الفتح ابراهيم بن علاء

الدين القرشي الشافعي القلقشندي ـ رحمه الله ونفعنا بعلومه وبركته ـ قال أخبرنا الحافظ أبو الفضل أحمد بن حجر، أخبرنا أبو علي محمد بن أحمد بن علي بن عبد العزيز المهدوي أذنا مشافهة، عن يحي بن محمد بن سعد، عن جعفر بن علي الهمداني، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الديباجي إجازة، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن علي الباهلي. حدثنا الحافظ أبو علي الجياني، أخبرنا أبو عمر بن محمد بن الحداء سماعا، وأبو عمر يوسف بن عبد الله إجازة. قالا أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن أسد الجهني. أخبرنا أبو علي سعيد بن[24]... بن السكن. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن مطر البربري. أخبرنا الحجة أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخاري ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ قال هذا وكتبه فقير رحمة ربه القدير محمد بن محمود بن أبي بكر بَغَيْغُ ـ لطف الله بهم ءامين ـ مسلما على من يقف عليه، وطالبا منه الدعاء بخير الدارين.

انتهى من لفظه.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه.

صحيح ما ذكر السيد الفقيه أبو العباس أحمد المذكور خبره، وأجزت له رواية ما ذكره على شرطه.

وكتب بذلك عبيد الله تعالى، أحقر عبيده محمد بن محمد بن أبي بكر ابن الحاج موسى التواتي في الرابع والعشرين من شوال سنة ثمان وتسعين وتسعمائة.

24) كلمة غير مقروءة.

خامسا : إجازة عبد الواحد السجلماسي لأحمد بن القاضي فهرسه.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما.

وبعد، فيقول أقل عبيد الله تعالى وأحوجهم إليـه : أحمـد بن محمـد بن محمد بن أحمد بن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي ـ خـار الله بمنـه، وأدخله بفضله في رحمته وجنته ـ : قرأت جميع هذه **الفهرسة** المباركـة على مؤلفها الفقيه المحدث، العـالم الفـاضل، العلامـة المشـاركـة، المتفنن الفهـامـة، وحيـد عصره، ومصبـاح دهره : أبو مـالـك سيـدي عبـد الـواحـد بن أحمـد الشريف الحسني ـ أبقى الله به النفع للمسلمين بجـاه سيـد الأولين والآخرين ـ، وأجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهله.

سـادسـا : فهرس إمـام الـدين الخليلي مـؤرخ في 5 محرم عـام 999 هـ/3 نونبر 1590.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيـدنـا محمـد خـاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابته والتابعين وتـابع التـابعين لهم بـإحسـان إلى يوم الدين، صلاة وسلاما دائمين متعاقبين ما أسفر صبـاح، ودعـا داع إلى الرشـد والفلاح. وبعد، فيقول العبد الفقير الراجي فضل ربه القـدير، الواضع اسمـه عقب تاريخه أدناه ـ أصلح الله له دنياه وأخراه ـ لما دخلت في المرة الثالثـة أرض المغرب ـ حماها اللـه ـ قـاصـدا حمى مولانـا أمير المؤمنين، ابن الخلفـاء الراشـدين، والأئمـة المهـديين، الليث الهصور، والصنـك المنصور، مولانـا أبـو العباس أحمد المنصور، وحصل من إحسانـه مـا أعجز لسـاني عن آداء شكره،

وكنت أتخلل مجالس العلماء والأدباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الإسلام بمصر والشام، وأن لي سندا امتد بواسطتهم إلى ابن حجر العسقلاني وغيره، فرغب إلي من له الفضل علي مفيدنا وبركتنا الإمام الفاضل، والعلامة الكامل، الخير الدين النقيل[25] الرحالة مفيد الطالبين، وليي أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي العافية الشهير بابن القاضي، والأديب الفاضل العلامة الأوحد المتقن المتفنن المفيد الرحالة سيدي : الحسين بن أبي القاسم بن أحمد الدرعي ثم الجوزي الملولي ـ خار الله لهما ونفعهما باعتقادهما ـ أن أخبرهما بمن أجازني من العلماء المشهورين والأئمة المهديين وأن أصل سندهما بهؤلاء السادة الآتي ذكرهم لاسيما[26] في كتب الحديث كما جرت بذلك العادة في القديم والحديث، فاعتذرت إليهما بأنني لست أهلا لذلك فأبيا ألا تكليفي فصرت أقدم رجلا وأؤخر أخرى لأنه كما قيل صاحب البيت بالذي فيه أدرى، ثم توكلت على الملك الرحمان وقلت ـ وبالله المستعان ـ.

لقيت من العلماء المشهورين بمصر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة الشيخ الإمام محدث زمانه الشيخ نجم الدين الغيطي، ثم الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد الخطيب الشربيني، ثم الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي الأنصاري، ثم الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد المحلى، واستجزت هؤلاء المذكورين فأجازوني باللفظ مشافهة، وكتبوا إلي بذلك

---

25) النقيل : في **القاموس والتاج :** كأمير : الغريب والذي يقيم في القوم وليس منهم، والكلمة في المخطوطة مشكولة بكسر النون مشددة القاف. ولعل المجيز أراد بها صيغة المبالغة لتكون من باب السكيت والسكير...

26) بالأصل هناك (واو) مباشرة بعد كلمة (لاسيا). ولا معنى لها هنا.

إجازة بقراءتي عليهم في مواضيع من **الجامعين الصحيحين** فأجازوني بذلك وبباقيهما وبجميع مالهم من منظوم ومنثور مقروء ومسموع ومجاز واستيجاز بحق ما لهم روايته عن شيخ الإسلام القاضي زكريا، عن ابن حجر العسقلاني، والسند منه إلى النجاري معلوم، ثم قرأت على ابن القاضي زكريا نفسه ـ وهو الشيخ الإمام العلامة الشيخ جمال الدين بن القاضي زكريا ـ مجالسا كثيرة من فنون شتى من العلوم من مؤلفات والده المذكور، ومن علم الحديث، وغير ذلك، فأجازني بذلك وبجميع ما له من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيحاز بحق روايته عن والده القاضي زكريا قال : وبحق روايتي أيضا عن الشيخ جلال الدين السيوطي قال لي مشافهة وأنا أدركت عصره، ثم بعد أن تلفظ لي بالإجازة كتب لي بخط يده وأنشدني لنفسه :

يارب إني عاجز والعجز باب المغفرة وعلى عذابي قادر والعفو عند المقدرة

ولقيت من العلماء بمصر أيضا الشيخ نور الدين علي بن غانم المقدسي الحنيفي، والشيخ يحي القرافي والشيخ نور الدين الزيادي والشيخ محمد البلبيسي والشيخ ابراهيم العلقمي والشيخ عمر بن عبد الحق السنباطي وأخوه الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي والشيخ زين الدين الجيزي والشيخ عبد الدائم البقري، والشيخ محمد البنوفري، وهؤلاء الثلاثة الأخيرة مالكيون وأجازوني باللفظ وبالكتابة ما عدا الأخير فباللفظ فقط، ولقيت الشيخ الإمام العلامة محمد بن ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ العلامة محمد الصفدي الواعظ المفيد، والشيخ الإمام العلامة أبو عبد محمد البرهمتوشي، والشيخ محمد بن سراج الدين الحانوتي إمام الحنفية برواق الترك

داخل الجامع الأزهر - عمره الله -، والشيخ محمد النصراوي، والشيخ محمد الذيب، والشيخ علي الطوري، وهؤلاء الخمسة (الأخيرون حنفيون، وأجازوني باللفظ والكتب لي بالإجازة إلا البعض منهم فباللفظ فقط، والشيخ الإمام العلامة صالح بن أحمد البلقيني وأخوه الشيخ يحي بن أحمد والشيخ محمد البهنسي وآخرين ممن يطول ذكرهم وقد تركتهم خوف الملل، ولي مع كل فرد منهم مجالسات ومخاطبات ومحاورات وغير ذلك وكتبوا لي إجازات أطالوا فيها إلا القليل فباللفظ والكل شافعيون إلا من نصصت عليه.

ولقيت الشيخ الإمام بركة الأنام، خاتمة علماء الإسلام، الولي، بل القطب بلا نزاع ولا خصام، شيخي وأستاذي وبركتي الغوث الفرد الجامع الرباني مفتي المسلمين، مفيد الطالبين مربي السالكين : أبو عبد الله شمس العارفين محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي سبط آل الحسن - نفعني الله والمسلمين ببركته وأعاد علي وعليهم من سره ومدده -، فلقد لازمته مدة طويلة سكنت عنده بداره المعروفة به بباب الشعرية بمصر ثلاثة أعوام فكنت أنسخ له **شرح العباب** تأليف والده -، رحمها الله -، وكنت كثير التردد إلى مجالسه بالجامع الأزهر وغيره.

شاهدت من أحواله ما لا يمكن التعبير عنه، أشهد بالله لقد امتحنته في إهلاك رجل بذي اللسان وقع في حقه وحق والده فما كان الأصيل ومات غريقا. أشهد بالله لقد سألته مسائل أشكل علي أمرها وسألته أن يسمح لي في السؤال عنها فقال لي : سل ما شئت فهو مغفور لك ومسامح فيه. فقلت له : تحير الناس في أي معلوماتكم أكثر ؟ فقال لي بما نصه : الحمد لله، الحيرة في هي عين الكمال، أما علم التصوف فهذا أمر مقطوع لنا به فلا

يحتاج أن نقيم لك الدليل عليه، وأما علم التفسير فقد حضر مجلسي فلان من علماء العجم وكنت أفسر في آية كذا فأخذ معي في البحث في تفسيره إلى أن قمنا من ذلك المجلس على غير طائل، فقلت له : من الغد تأتي إلى هنا فقمنا على غير طائل، ثم قلت له. ومن الغد أيضا، فبينما نحن في أثناء البحث من اليوم الثالث إذ حسر عن رأسه وجاءني حاسر الرأس وأقسم لابد أن تمدد رجليك فصار يقبل بطن هذه مرة والأخرى مرة أخرى في ذلك الملأ ثم قال لي : الله أعلم من كان يتعب في المطالعة، معناه أنني ما راجعت ولا طالعت في كتب التفسير، وأما الفقه، فهل حضرت مجلس قراءتي فيه ؟ قلت : نعم، في كتاب **البهجة**، في باب التيمم، قال : كيف سمعتني أقرر الفقه ؟ قلت : سمعتكم تقولون هذا من تفقري، وهذه المسألة لي ولم أر من سبقني إلى ذلك، فقال لي : يكفيك هذا حيث كنت أقول ذلك على رؤوس الاشهاد وبحضرة العلماء في الجامع الأزهر، فرأيته - رضي الله عنه - وكأن حالته تقول : أنا كامل في كل العلوم وهو كذلك، ثم قلت له : حب الناس فيكم حملهم أن قالوا : إن النبي - ﷺ - قال لكم : لك البشرى أو مرحبا بك، وسيدي أحمد البدوي قال لكم : لك البشرى أو مرحبا بك، فإن كان ما تكلم به الناس حق فمرادي أن أسمعه منكم وأرويه عنكم وإن كان من شدة محبتهم تكلموا بذلك فمرادي أن أعلم حقيقة الحال، فقال : اسمع مأقول لك وأخذ يستشهد بأمور هي خرق عوائد ويقيم البرهان حتى كان ذلك مشاهد عيان ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا مما قال لي. والحاصل قال لي : نعم كان ذلك، وها أنا ذكرت ذلك في قصيدتين سردهما علي، ذكر لي الواحدة مقالة النبي - ﷺ - له مرحبا بك أو لك البشرى، وفي الأخرى مقالة سيدي أحمد البدوي : مرحبا بك أو لك البشرى، وهما مثبوتتان في ديوانه

الذي أنشأه وأبدع ما شاء فراجعه (وقع الشك عندي أي لفظـة النبي - ﷺ - كانت مرحبا بك أو لك البشرى، والـذي ترجع عنـدي هي لـك البشرى، بل هو كذلك، فاعلم). فقلت لـه : هل ورد على قلبكم أنها تكلما بـذلـك أو كان ذلك من صريح الكلام، وصوت النبي ﷺ بذلك وكذلك سيدي أحمـد البدوي - رضي اللـه عنـه - وحضرت معـه فيما دون الثمانين وتسعمائـة زيـارة سيدي أحمد البدوي - رضي الله عنه -، وبعد انفصالـه عن مقـامـه قـال من على رؤوس الاشهاد سمعت منه دعوة والله ما سمعتها من غيره قط، قال لـه بعض من حضر ما هي ؟ قال : قال لي : «حفظك اللـه للإسلام، وحضرت معه أيضا في التـاريخ. وقـد توجـه إلى زيـارة خليل الرحمـان - على نبينـا وعليه وعلى سائر أنبياء الله أفضل الصلاة والسلام -، وبيت المقدس - شرفـه الله تعالى - زيارة كليم الله موسى - عليه السلام -، وما هنا لك من أمـاكن يتبرك بها بجوار المسجد الأقصى وقـد شـاهـدت من أحوالـه مـا أدهش عقلي وحير لبي فلا تسأل عن قبائل انقادت إليه تبلغه من درك إلى آخر، وعلمـاء تمثلت بين يـديـه وأمراء أكبت على قـدميـه تقبلها وقـد امتـدحتـه الشعراء وأطنبوا في مدحه وأرخوا تلك الزيـارة فكان تـاريخهـا رحلـة قطب الأنـام مقبولة، ثم لما انفصل عن مقام الخليل - عليه السلام - سـألتـه هل سمعتم من الخليل - عليه السلام - في هذه الزيارة ما نرويه عنكم قال : نعم، عاهـدت الله تعالى أن لا أصدر عن الحضرة الابراهيمية الخليليـة حتى أسمع منـه شيء، قـال فسمعت الخليـل - عليـه السـلام - من القبر الشريف، يقـول لي : أنت ومن معك في ضيافتنا، انتهت.

ومدينة الخليل - عليه السلام - هي بلـدتي محل أنسي ومسقـط رأسي، وليت إمامة الشافعية بذلك المكان المشرف موافقة لغرض والـدي، ثم تفرغت

عنها باختياري وأعدتها له ـ رحمه الله ـ. أقام والدي بها إماما مدة تزيد على سبعين عاما وليها والدي محمدا استقلالا عن والده يوسف، وكان يوسف جدي نائبا فيها مدة حياته أو أنه استقل بها أثناء مدته. ووالد جدي هذا هو الإمام العلامة الأوحد المفيد الرحالة الشيخ علاء الدين علي بن قاسم الادبيلي البطايحي الخليلي المقري مفتي المسلمين، توفي في شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة، وله ضريح مشهور داخل القلعة هنالك ـ رحمه الله ـ والإمامة بذلك المقام هي الآن بيد أخي شقيقي أبو السعادات بن محمد والتأذين بيد ولده أحمد. رجعنا.

وكرامات الشيخ الأستاذ البكري أجل من تحصر فلو تصدى أحد لذكر بعضها وأن أطنب وأسهب وأطال ومد الباع وقال فقد قصر ولولا خوف الإطالة والسآمة والملالة لذكرت لك نبذة أخرى من مناقبه وفيما ذكرت مقنع، فإن الذكي يفهم بالمثال الواحد ما لا يفهمه البليد بألف شاهد، توفي ـ رحمه الله ورضي عنه ـ بعد التسعين وتسعمائة ـ ودفن بجوار الإمام الشافعي بالقرافة الكبرى بمصر.

ولقيت بمكة شرفها الله، الشيخ الإمام العلامة عبد العزيز الرامزمي وحضرت مجلسه، والشيخ الإمام محمد بن فهد، والشيخ الإمام قطب الدين العجمي المؤرخ الحنفي، والشيخ جار الله بن أمين الحنيفي أيضا، والشيخ عبد القادر والفاكهي والشيخ الإمام العلامة مفتي مكة ـ شرفها الله ـ أبو عبد محمد الخفاجي، وقرأت عليه وأجازني وكتب لي إجازة بخطه عام أربعة وسبعين وتسعمائة، ولقيت بها آخرين ـ رضي الله عنهم وعنا بهم، أمين.

ولقيت بمدينة صفد من أرض الشام عام سبعة وسبعين وتسعمائة الإمام يحي بن حامد وحضرت مجلسه في الحديث وأجاز في باللفظ من جملة من حضر هنالك.

ولقيت بدمشق الشام الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد الحجازي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس العيشاوي، والشيخ محمد البهنسي الحنيفي، والشيخ بدر الدين بن رضى الدين الغزي، وقرأت عليه مواضع من الجامع الصحيح بعد أن اسمعني من لفظه الحديث المسلسل بالأولية.

وهو ـ الراحمون يرحمهم الرحمان ـ تبارك وتعالى ـ، ﴿**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**﴾. ثم ناولني الجامع الصحيح وأجازني بما قرأته عليه منه وبباقيه وبماله من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيجاز إلى غير ذلك، وكتب إجازة أطنب فيها، وكتب ما نصه أو معناه : أنا ملحق الاحفاد وبالأجداد، ومؤلفاتي تناهز المائة، منها تفسيري الذي لم أسبق إليه نظمته في مائة ألف بيت وأحد وعشرون ألف بيت، ومنها **شرحي لشرح الشيخ جلال الدين المحلي على المنهاج الموسوم إحداهما بالمحلى لمشكلات المحلى والآخر المحلى لجيد المحلى**، ومنها... وذكر عدة من مؤلفاته، قال : ومن نظمي مضمن الحديث الشريف :

عن النبي أتانا من رأى امرأة ... أحل في قلبه للحسن موقعها
فليأت زوجته وليقض حاجته ... فإنما معها مثل الذي معها

وأثبت من نظمه في إجازته التي كتبها لي شيئا كثيرا، توفي رحمه الله ـ فيما بين الثمانين إلى التسعين وتسعمائة بدمشق رحمه الله تعالى.

ولقيت من العلماء بحمص، وحماة، وحلب، وانطاكية، وقسطنطينية العظمى، ثم طرابلس الشام، وطرابلس المغرب، وتونس، والجزائر ما لا قرابة له ولا حصر، وقد استخرت الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأجزت من ذكر فيه **بالجامعين الصحيحين**، وبجميع مالي من منظوم ومنثور من مقروء ومسموع ومجاز واستيجاز وغير ذلك حسبما أجازني من أجازني ممن ذكر. سئل والدي ـ رحمه الله ـ عند سبب تسميتي إمام الدين قال : رجاء أن يكون إمام مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام ـ. وقد حقق الله رجاءه كما ذكرت، وهذا الإسم انفردت به في بلدتي بل جلت الأقاليم فما رأيت ولا سمعت من سمي به غير رجل بأرض صعيد مصر في الصدر الأول وسني من الخمسة والثلاثين إلى الثامنية والثلاثين وفي هذا القدر كفاية. وفي الليلة المسفرة عن خامس محرم فاتح عام تسعة وتسعين وتسعمائة.

كتبت بمنزلي «بأسْبَسْت»[27] من حاضرة مراكش ـ كلأها الله ـ، و...[28] أفقر.[29] إمام الدين بن محمد بن يوسف بن علاء الدين بن قاسم البطايحي الخليلي...[30] الخزرجي نسبا، غفر الله لي ولوالدي ولمن دعى لهما وللمسلمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

البيضاء　　　　**محمد رزوق**

---

27) حي من أحياء مراكش. والناس ينطقونه «ازبزط».

28) بياض بالأصل.

29) بياض بالأصل.

30) بياض بالأصل.

قصة

بحث عن ابن رشد (*)

للكاتب الارجنتيني: خورخي لويس بورخيس
ترجمة: ابراهيم الخطيب

S'imaginant que la tragedie n'est
autre chose que l'art de louer...
Ernest Renan : Averroés, 48 (1861)

كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (وسيتأخر هذا الاسم الطويل قرناً ليصير Averroés ماراً بـ Benraist وبـ Avenryz، وحتى بـ Aben – Rassad و Filius Rosadis) يملي الفصل الحادي عشر من كتاب «تهافت التهافت» حيث يبرهن، رَدّاً على المتصوف الفارسي الغزالي مؤلف كتاب «تهافت الفلاسفة»، بأن الذاتَ الإلَهيَّةَ لا تعلم سوى قوانين الكون العامة، أي ما يتصل بالأصناف لا بالأفراد. كان يكتب باطمئنان بطيء من اليمين إلى اليسار. ولم تكن ممارسةُ القِيَاسَاتِ المنطقيةِ ولا وَصْلُ طويلِ الفقراتِ مما يمنعُه من أن يشعر، كما لو كان الأمر سعادةً، بالمنزل البارد

(*) قصة من مجموعة EL ALEPH، طبعة Alianza / Emecé برشلونة 1977.

العميق الذي يحيط به. ففي عمق القيلولة يَهْدل حمام مُدَلَّـه، ويَرْتَفِعُ من بهو غيرِ مرئي خريرُ فسقيةٍ : شيءٌ مـا في جسم ابن رشـد، الـذي جـاء أجـداده من الصحـاري العربيـة، كان يُسَرُّ بتـدفُّق المـاء. وكانت الحـدائق في أسفـل، وكذا الوادي الكبير المنهمك، وبعدَ ذلك مدينة قرطبـة المحبوبـةُ التي لا تقل اتساعاً عن بغداد أو القاهرة، وتشبه آلةً معقدةً ودقيقـةً. وحَوَالَيْ ذلـك كلِّـه (وهذا ما كان ابن رشـد يشعر بـه أيضـاً) تمتـد حتى التُّخُومِ أرضُ إسپـانيـا، حيث لا توجد إلا أشياء قليلة، بيد أن كل شيء منهـا يبـدو قـائمـاً في وضع حقيقي وأبدي.

كان القلم يجري على الورقة، والبراهين تترابط ولا تقبل الـدحض، غير أن هماً طفيفاً كَـدَّر سعـادة ابن رشـد. لم يكن «التهـافت» سبب ذلـك، فهو عملٌ عرضي، وإنما مشكلة ذات طبيعة لغويـة متصلـة بـالمؤلف العظيم الـذي سَيُبَرِّرُهُ بين الناس : شرح أرسطو. لقـد مُنِحَ النـاس هـذا اليونـاني، نَبْعَ كلِّ فلسفة، كَيْ يُعَلِّمهم كل ما يمكن أن يعرف؛ وكانت غايـةُ ابن رشـد العسيرة أن يُؤَوِّل كتبه مثلما يؤول العلمـاء القرآن. ولن يسجل التـاريخ سوى أمور قليلة تضاهي في جمالها وشدة تأثيرهـا مـا كَرَّسَـه طبيب عربي لأفكار رجل تفصله عنه أربعة عشر قرناً. ويجب أن نضيف إلى الصعوبـات الجوهريـة أن ابن رشـد، الـذي لم يكن على علم بـالسريـانيـة واليونـانيـة، كان يعمل على كتاب مترجم عن ترجمة. وبـالأمس استوقفتـه كلمتـان مريبتـان وردتـا في بداية كتاب «الشعر» هما : تراجيديا وكوميديـا. لقـد عثر عليهما سنوات من قبل في الكتاب الثالث من «الخطابـة»؛ بيـد أن أحـداً، في مضمار الإسلام، لم يخمن معناهما. تَعبَ، دون جـدوى، من مراجعـة صفحـات أَلِيخَـانْـدْرُو دِي أَفْرُودِيسْيَا، كما قارن، دون جـدوى، بين الترجمتين اللتين أنجزهمـا النسطوري

حنين بن إسحـــاق وأبـــو بِشْر مَتَّى. والكلمتـــان اللُّغـــزان تتكاثران في نص «الشعر» ولذا كان تلافيهما مستحيلا.

وضع ابن رشد القلم. وحَدَّث نَفْسَهُ (دون ثقة مفرطة) بـأن مـا ننشـده يكـون قريبـاً من متنـاولنـا في العـادة، ثم ترك مخطـوط «التهـافت» واتجـه صوب الخزانة حيث تصطف مجلدات كثيرة من كتـاب «المُحْكَم» للأعمى بن سيده، منسوخةٌ بأقلام خطاطين فُرس. لقد كان من الهُزء الاعتقاد بـأن ابن رشد لم يراجِعْهَا من قَبْل، وإنما استهوته الآن لذة كَسْلَى دفعته إلى تَصفُّحهـا مجدداً. وسرعان ما انتزعتـه من هـذه التسليـة صُـدْفَـةُ صوتٍ رخيم. نظر من الشرفـة المشربيـــة فرأى، تحتـــه، في البهـو الأرضي الضيـق، بعض الصبيـــان يلعبون شبـه عراة. كان أحـدهم، واقفـاً على كَتِفَيْ آخر، يمثل المؤذِّن بصورة جلية : عيناه مغمضتان بإحكام، بينما كان يتلو «لا إله إلا الله». أما الصبي، الذي يحمله دون أن يُصْدِر نَأْمَةً، فكان يمثل الصومعـة. وكان الآخر، راكعـاً على ركبتيه جاثياً في التراب، يمثل جماعة المصلين. استمر اللعب أمـداً وجيزاً، فقد كان كلُّهم يريد أن يكون المؤذِّنَ ولم يكن أحد يريد أن يكون المصلين أو الصومعة. وسمعهم ابن رشد يتبارون في لهجـة بـذيئـة، يمكن القول بـأنهـا الإسپـانيـة الأوليـة للعـوام المسلمين في شبـه الجـزيرة. فتـح «كتـــاب العين» للخليل، ففكر مزهوا بأن قرطبة كلها (وربما الأندلس كلـه) تخلو من نسخـة أخرى من هذا المؤلف الكامل الـذي أرسلـه إليـه الأمير يعقوب المنصور من طنجة. وذكره اسم هذا الميناء بأن الرحالة أبـا القـاسم الأشعري، الـذي عـاد من المغرب، سيتنـاول وإيـاه طعـام العشـاء هـذه الليلـة في منزل فرج عـالم القرآن. يزعم أبو القاسم أنه بلغ مما لك إمبراطورية الصين؛ ويُقْسِم المشنِّعون، اعتمادا على ذلك المنطق الفذ الذي يتولَّد عنه الحقد، أنه لم يطأ الصينَ قـط،

وأن الله يُسَبُّ في معابد هذا البلد. إن الاجتماع سيستغرق ساعاتٍ لا محالة، ولهذا عاود ابن رشد كتابة «التهافت» مُعْجلاً. وظل يعمل إلى حين الغروب.

انتقل الحوار، في منزل فرج، من مزايا الحاكم الفريدة، إلى مزايا أخيه الأمير؛ وبعد ذلك تحدث الجمع، وهم في الحديقة، عن الزهور، فأقسم أبو القاسم، الذي لم يكن رآها قط، أنه لا توجد زهور تضاهي الزهور التي تزيِّن الحدائق الأندلسية. لم يترك فَرَج لنفسه فرصة الاغتباط، فلاحظ بأن الفقيه ابن قتيبة قد وصف أنواعاً مدهشةً من الوردة الدائمة التي تنمو في حدائق الهندوستان، والتي تَعْرِضُ وريقاتها، ذاتُ الحمرة القانية، أحرفاً تقول : «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مضيفاً بأن أبا القاسم يعرف هذه الزهور، دون شك. نظر إليه أبو القاسم هَلِعاً. فإن أجاب بنعم، اعتبره الجميع، عن حق، من أكثر الدجالين حضوراً ومصادفة؛ وإن أجاب بلا، اعتبروه كافراً. واختار أن يُغَمْغِمَ بأن سيد الكون يملك مفاتيح الغيب وأنه لا يوجد شيء في الأرض، أخضر أو يابس لم يُسَجَّل في كتابه. تنتمي هذه العبارات إلى إحدى أوائل السُّوَر؛ ولذا قوبلت بهمهمة إجْلاَل. وعزم أبو القاسم، مزهواً بهذا النصر في الجدال، أن يتلفظ بأن الله كاملٌ في أعماله، متعذِّرُ التخمين، فَصَرَّح ابن رشد عندئذ، مستبقاً العِلَلَ القاصِيَّةَ لـ (هيوم) الذي كان لا يزال بعد طيَّ الإبهام.

ـ قد أَقبل، دون مشقةٍ تذكر، بوقوع الفقيه ابن قتيبة أَو نُساخه في الخطأ، ولا أقبل إلا بمشقة أن تُعْطِيَ الأرض زهوراً تعلن إيمانها.

قال أبو القاسم :

ـ صدقت. كلمات عظيمة وحقيقية.

وتذكر الشاعر عبد الملك :

ـ يتحدث رحالة عن شجرة ثمارها طيور خضر. ولست أجد في الاعتقاد بما يقول مقدار المشقة التي أجدها في الاعتقاد بزهور ذات أحرف.

قال ابن رشد :

ـ يبدو أن لون الطيور يسهل الأعجوبة، فضلا عن أن الثمار والطيور تنتميان إلى العام الطبيعي. أما الكتابة فهي فن. فالانتقال من الأوراق إلى الطيور أسهل من الانتقال من الزهور إلى الحروف.

وأنكر ضيف آخر، بغَيْظٍ، أن تكون الكتابة فنّاً، ما دام أصل القرآن ـ أم الكتاب ـ سابقا على الخلق ومحفوظاً في السماء. وتحدث غيره عن الجاحظ البصري القائل بأن القرآن ماهية يمكن أن تتشكل في صورة إنسان أو صورة حيوان، وهو الرأي الذي يبدو موافقا لرأي الذين ينسبون إليه وجهين. وعرض فرج، بتوسع، المذهب السني فقال بأن القرآن إحدى صفات الله مثل رحمته، يُنْسَخُ في كتاب، ويُتْلى باللسان، ويُذْكَر بالقلب؛ إن اللغة والعلامات والكتابة من عمل الناس، أما القرآن فهو قَطْعِي خالد. وكان بإمكان ابن رشد، شارح كتاب «الجمهورية»، أن يقول بأن أُمَّ الكتاب شيء من قبيل نموذجه الأفلاطوني، بيد أنه لاحظ أن علم اللاهوت لم يكن موضوعاً في متناول أبي القاسم.

ولاحظ آخرون ذلك أيضاً، فناشدوا أبا القاسم أن يحكي لهم أعجوبةً ما. إذ ذاك، كما هو الشأن الآن، كان العالم فظيعاً؛ فالجُسَرَاءُ بإمكانهم السير فيه، وكذلك البؤساءُ الذين يستطيعون تطويع أنفسهم لكل وضع. وكانت ذاكرة أبي القاسم مرآةً لنذَالاتٍ خاصة، فماذا يستطيع أن يحكي ؟ ثم إن الجمع

يطالب، فضلاً عن ذلك، بالأعاجيب والأعجوبة قد لا تكون قابلةً للتبليغ: فقمر البنغال لا يشبه قمر اليمن، ومع ذلك سُمِحَ أن يوصفَ بنفس الأصوات. تَرَدَّدَ أبو القاسم، ثم تحدث فيما بعد معلناً بِتُقَى :

ـ إن من يتجـولْ في المنـاخـات والمُـدُنِ يَرَ أمـوراً كثيرةً جـديرة بـالتصـديـق. ولنقـل بـأنني رويت هـذه الأعجـوبـة ذات مرة لملـك الترك. وقعت في صينْ كَلاَنْ (كانطون)، حيث يندلق نهر ماء الحياة في البحر.

وسأل فَرَج ما إذا كانت المدينة تَبْعُد فراسخ عديـدة عن السور الـذي رفعـه الإسكنـدر ذو القرنين لصَدِّ يـا جوج ومـا جـوج، فقـال أبـو القـاسم بعجرفةٍ غير إرادية :

ـ صحاري تفصل بينها. وتستغرق القافلة الواحدة أربعين يومـاً قبل أن تَلْمَح صوامِعَهَا، ويقال بأنها تستغرق قـدر ذلـك لبلوغهـا. ولم أعرف من امرئ في صين كلان أنه رآها أو رأى من رآها.

ومس ابن رشـد، لحظـةً، خوفٌ من لامتنـاهٍ ثخين، ومن مَحْضِ المكان ومحض المادة. نظر إلى الحديقة المتناظرة الهيـأة، فـأدرك أنـه شـاخ ولم يعـد نافعاً ولا حقيقياً. قال أبو القاسم :

ـ ذات مسـاءٍ، قـادني تجـار مسلمـون من صينْ كَـلاَن إلى منزل من خشبٍ مصبوغ، يعيش فيه قوم عديدون. لا يمكن وصف هيأة ذلـك المنزل، الذي كان، على التقريب، حجرة واحـدة بهـا صفوف من خزائن أو شرفـات بعضهـا فوق بعض. وكان في هـذه الثغرات قومٌ يـأكلون ويشربـون، ومثلهم على الأرض، ومثلهم في الساحة. وكان أشخاصٌ في هذه الساحة يـدقون على الطبـل ويعـزفـون العـود، عـدا خمسـة عشر منهم أو عشرين (على وجـوههم

أقنعة من لون قرمزي) يُصَلُّون ويُنْشِدُون ويتحاورون : يُعـانون الأسْرَ، ولا من رأى سجنـاً؛ ويمتطون فـلا يُبْصَرُ الفرس؛ ويتقـاتلـون بيـد أن السيـوف كانت من قصب؛ ويموتُونَ ثم ينهضون قياماً بعد ذلك.

قال فرج :

ـ إن أفعال الحمقى تتجاوز توقُّعات الرجل العاقل.

فكان على أبي القاسم أن يوضِّح :

ـ لم يكونوا حمقى، بل قال لي تاجرٌ بأنهم كانوا يمثِّلون قصةً.

لم يفهم أحدٌ مراده، ولم يَبْدُ أن أحداً أراد أن يفهم. فانتقل أبو القاسم، وقد ارتج عليه الأمر، من الحكاية المروية إلى العلل الخائبة. قـال، مستعينـاً باليدين :

ـ فلنتخيَّلْ شخصاً عرض قصةً عوض أن يحكيها، ولتكن القصةُ قصـةَ نُوَّم أفْسُوس. إننـا نراهم ينسحبون إلى الكهف، نراهم يصلون وينـامون، نراهم ينامون بعيون مشرعـة، نراهم وجسومهم تنمو بينمـا ينـامون، نراهم يستفيقون بعد مرور تسع وثلاثمائة عام، نراهم يدفعون للبائع قطعة نقود قـديمـة، نراهم يستيقظون في الجنة، نراهم يستيقظون صحبـة الكلب. شيءٌ من هـذا القبيل ما عرضه أمامنا، تلك الأمسية، أشخاص الساحة.

وسأل فرج :

ـ وهل يتحدث أولئك الأشخاص ؟

فأجـاب أبو القـاسم، وقـد تحول إلى مـدافع عن عرض لا يتـذكره إلا لماماً، وكان أرهقه أيَّما إرهاق :

ـ بطبيعة الحال يتحدثون ! يتحدثون، ويُنْشِدون، ويلقون خطباً.

قال فرج :

ـ لا يتطلب الأمر، في مثل هـذه الحـال، عشرين شخصـاً. فتحـدث واحد يمكن أن يحكي أي شيء، مهما كان معقداً.

وافق الجميع على هذا الرأي. وأُطريت فضائلُ اللغة العربيـة، التي هي اللغة التي يخاطِبُ الله الملائكة بها، وفيما بعد فضـائلُ شِعْر العرب. وبعـد أن تفحَّصَ عبد الملك هذا الشعر كما ينبغي، نعتَ بـالقِـدَم الشعراءَ الـذين كانوا، وهم في دمشق أو قرطبة، يتمسكون بمشاهد رعوية، ومعجم بدوي، قائلاً بأنه من العبث أن يحتفل رجل بماء بئرٍ والوادي الكبير يمتد أمام ناظريه. ودعـا إلى ضرورة تجديد المجازات القديمة قائلاً بأن زهيراً عندما شَبَّه القَـدَرَ بنـاقـةٍ عشواء فإن هذه الصورة البلاغية أمكن أن تثير دهشة الناس في حينها، بيد أن خمسة قرون من الإعجاب ابتذلتهـا. ووافق الجميع على هـذا الرأي، الـذي استمعوا إليه عدة مرات، ومن أفواه كثيرة. كان ابن رشد صامتاً. وفي النهايـة تَحَدَّثَ، إلى نفسه أكثر منه إلى غيره. قال ابن رشد :

ـ لقد دافعت ذات مرة، وببراهينَ من نفس الجِبِلَّـة، عن القضيـة التي يؤيدها عبدُ الملك. يقال في الأسكندرية بأن المعصوم عن الزلل هو من زلَّ وتـاب، ونضيفُ أنـه لكي نتحرر من خطـإ فمن المنـاسب أن نقر بـه. يقـول زهير، في معلقته، أنه رأى القدر، خلال انصرام ثمـانين حولاً من الألم والمجـد، يصطدم مراراً وعلى حين غرة بأناس مثلما تخبط ناقة عشواء؛ ويعتقـد عبـد الملك بـأن هـذه الصورة لم يعـد بـإمكانهـا أن تثير دهشـة أحـد. بوسعي أن أجيب على هذه الملاحظـة بـأمور عـدة : الأمر الأول، أنـه إذا كانت غـايـة القصيدة إثارة الاستغراب فَزَمَنُها لن يقاس بالقرون وإنما بالأيام والساعـات

وربما الدقائق. أما الأمر الثاني فهو أن الشاعر الذائع الصيت مكتشفٌ أكثر مما هو مخترع. وبغية مدح ابن شرف البرجي، قيل وأعيد أنه وحده استطاع أن يتخيل النُّجوم في الفجر تتساقط رويدا كأوراق الشجر؛ وذلك، إذا كان صحيحاً، يبرهن على أن الصورة مبتذلة. إن الصورة التي يستطيع امرؤ فرد تشكيلها هي تلك التي لا تؤثر في أحد. توجد على الأرض أشياء لا حصر لها؛ وأيٌّ منها يمكن أن يضاهى بغيره. فتشبيه النجوم بالأوراق أقل تحكما من تشبيهها بأسماك أو طيور. وخلافاً لذلك فإن أحداً ما كان بإمكانه ألا يشعر ذات مرة بأن القدر قوي، شارد اللب، وأنه بريءٌ وغير إنساني أيضاً. من أجل هذه القناعة ـ التي يمكن أن تكون عابرة أو متصلةً، لكن لا أحد يستطيع تلافيها ـ كتب بيت زهير، ولن يقال أفضلُ مما فيه. زد على ذلك (وهذا ربما هو جوهر تأملاتي) أن الزمن، الذي يَنْهَبُ القصور، يُثْري الأشعار. لقد استُعمل بيت زهير، حينما صاغه هذا الرجل في جزيرة العرب، للمقابلة بين صورتين هما صورة الناقة العجوز وصورة القدر؛ وحين يتردد الآن يَصْلُح لتَذَكُّر زهير ولمزج همومنا بهموم ذلك العربي الذي قضى. كان للصورة البلاغية طرفان، فأصبح لها اليوم أربعة. إن الزمن يكبر مضمار الأشعار، وأعرف من بعضهم أنها، على غرار الموسيقى، تشكل جماع الأشياء بالنسبة لكافة الناس. وعلى هذا النحو، حينما أرقتني منذ سنوات، بمراكش، ذكرى قرطبة، كنت أُسَرُّ بترديد البيت الذي خاطب به عبد الرحمان، وهو في حدائق الرصافة، نَخْلَةً إفريقيةً :

نشأْتِ بأرضٍ أَنْتِ فيها غريبة   فمثلك في الإقْصَاء والمُنْتَأى مِثْلي

فائدة شعرية منقطعة النظير : فالكلمات التي قالها ملك يتشوق إلى الشرق، تَصْلُح لي، أنا المُبْعَدَ في إفريقيا، للتعبير عن حنيني إلى إسبانيا.

وتحدثَ ابن رشد، بعد ذلك، عن أوائلِ الشعراء، أولئك الـذين قـالوا، في عصر الجـاهليـة قبـل الإسلام، كُـلَّ شيء بـواسطـة لغـة الصحـاري اللا متناهية. ولأن ترهات ابن شرف أزعجته، ليس دونما سبب، فقـد قـال بـأن كلَّ الشعر اختُصِر في القـدمـاء وفي القرآن. وأدان بـالجهـل والغرور كل طموح في التجديد. واستمع إليه الآخرون بسرور، لأنه كان ينتقم للقديم.

كان المؤذنون ينادون لصلاة الفجر عندما عـاد ابن رشـد للـدخول إلى مكتبته (في قـاعـة الحريم عـذبت الإمـاء ذوات الشعر الأسود أمـةً ذات شعر أحمر، غير أنه لن يَطَّلِع على الحدث إلا عند المسـاء). لقـد كشف لـه أمرٌ مـا معنى الكلمتين الغامضتين، فأضـاف، بخـط ثـابت ومُعْتَنَى بـه، هـذه الأسطر إلى المخطوطة : «يسمي أرسطو قصـائـد المـدح تراجيـديـا، وقصـائـد الهجـاء والقذف كوميديا. وتَزْخَرُ صفحـات القرآن ومعلقـات الكعبـة بتراجيـديـات وكوميديات رائعة».

شعر بالنوم، وشعر ببعض البرودة. وحينما فك العمامة، نظر إلى نفسه في مرآة من معدن. لست أدري ماذا أبصرت عيناه لأن أحدا من المؤرخين لم يصف ملامح وجهه. لكنني أعرف أنه اختفى فجـأة، كما لو صعقتـه نـار من غير ضوء، واختفى معه المنزلُ وفسقيةُ الماء اللا مرئيةُ والكتُب والمخطوطـاتُ والحَـامُ والإمـاء الكثيرات ذوات الشعر الأسود والأمـة المـذعورة ذات الشعر الأحمر وفَرَج وأبو القاسم والورود وربما الوادي الكبير أيضاً.

أردت في القصة السَّالفـة حكايـةَ سيرورة انـدحـار. فكرتُ، بَـدْءاً، في رئيس-أساقفة كَانْتِرْبْري ذاك الذي اقترح البرهنَة على أن هناك إلهاً واحـداً؛ ثم في خِيميائِيِّي القرون الوسطى الـذين كانوا يَنْشُـدون الحجرة الفلسفيـة؛ ثم

في قطاعات الزاوية الثلاثة الباطلة، ومُقَوِّمي الدائرة. وفكرتُ، بعد ذلك، أن الأكثر شاعريةً حالةُ رجل عَيَّنَ لنفسه غايةً لم تُحظر على غيره، لكنها حُظرت عليه هو. تذكرت ابن رشد الذي لم يستطع مطلقاً، وهو مُنْغَلِقٌ في مجال الإسلام، أن يُدرك معنى كلمتي تراجيديا وكوميديا. حَكَيْتُ الحدث، وفيما كنت أَتَقَدَّم شَعُرْتُ بما يُحتمل أن يكون ذلك الإله الذي ذَكَرَهُ (بورتن) قد شعر به إذ عَيَّن لنفسه أن يخلق ثوراً فخلق جاموسةً. شعرت أن الأثر يَسْخَر مني، وأنَّ ابن رشد، حينما أراد أن يتخيل ما هي المسرحية دون أن يَرْتَابَ فيما هو المَسْرَحُ، لم يكن أكثر عبثاً مني أنا الذي أُريد تخيل ابن رشد دون أن تكون لدي مادة عنه عدا ذلك النَّزْر اليسير الموجود لدى (رينَانْ) و(لِينْ) و(آسِينْ پَلاَثْيُوسْ). شعرت، عند الصفحة الأخيرة، أن قصتي كانت رمزاً للرجل الذي كُنْتُه حينما كنت بصدد كتابتها، وأنني، بغية إملاء هذه القصة، كان عليَّ أن أكون ذلك الرجل، ولكي أكونَهُ كان عليَّ أن أُمْلي تلك القصة، وهكذا إلى ما لا نهاية. (في اللحظة التي أتوقف عن الإيمان به، يختفي «ابن رشد»).

مليلة[1] الأسيرة

بعد أيام قليلة من الإحتلال الاسباني

حسن الفكيكي

لم يتأت لمدينة مليلة استرجاع حريتها من أسر استغرق مدة طويلة من العصور القديمة[2]، إلا في خضم حركات الفتح الإسلامي للمغرب الكبير، في تاريخ قدرناه بأواخر القرن الأول الهجري. ومنذ ذلك التاريخ استمتعت بكامل حريتها في ظل السيادة الوطنية مدة تسعة قرون[3].

والذي لا مراء فيه أن عهد الحرية أهل المدينة لاحتلال مكانة مرموقة إلى جانب أخواتها مدن الساحل المتوسطي. وبسبب مساهمتها في

1) نحتفظ بالاسم المغربي الأصيل للمدينة، الذي عرفت به منذ القرن الأول الهجري ولا نرى أية ضرورة للاستمرار في فرض التبعية للنطق الإسباني Melilla حين ننطق بالاسم مليلية محولا عن أصله.

2) ظلت مليلة في اليد الأجنبي منذ العهد الفينيقي إلى العهد البيزنطي معروفة باسم رس در (الرأس الأكبر).

3) انظر ما نشرناه في مجلة دار النيابة، العدد 7 صيف 1985 ص 49، وفي العدد 9 شتاء 1986 ص 25.

الحركة الجهادية خلال محنة غرناطة، دبر زعماء حركة الاسترداد الإسبانية اغتصابها لتعود إلى الأسر من جديد. ولن يخفى على أحد منا تصور البون الشاسع، الفاصل بين العصور المزدهرة التي عاشتها المدينة المغربية وهي حرة طليقة، وبين حالة اليتم الذي بدأت تعاني منه منذ عودتها من جديد إلى قبضة الأجنبي.

ونسعى من خلال هذه الصفحات، إلى تقديم صورة معبرة عن رد فعل سكان قبيلة قلعية تجاه التسرب الإسباني خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الاغتصاب، وما تم أثناء ذلك من التدخل الوطاسي وظهور البوادر الأولى من تنظيم حركة الجهاد.

كل شيء كان ينبئ منذ عام 900 هـ. (1494م). أن الوضع ملائم بساحل الشمال الشرقي المغربي الذي تنتمي إليه قبيلة قلعية[4]، لتدخل البحرية الإسبانية[5]. ولم يحل دون قيادة الحملة آنذاك سوى انشغال الإسبان بمسألة نابلي[6]. وحينما انفرجت تلك الأزمة عادت مسألة مليلة إلى ذهن العاهل الإسباني إثر وصول خبر تخريب المدينة على أيدي سكانها[7].

---

4) قبيلة قلعية هي المجموعة السكانية المحيطة بمليلة والناظور وازغنغان وتألفت في وقت التسرب الاسباني من بني شكر ومزوجة وبني يفرور والكعدة (بني سكدال) وبني جافر.

5) يتعلق الوضع الذي كانت عليه قلعية بالأزمة الشاملة التي عاشتها المنطقة، نتيجة تطورات أحداث الأندلس، انتهت بأزمة معنوية سهلت مهمة الزحف الإسباني لاغتصاب المدينة.

6) إشارة إلى التنافس الإسباني الفرنسي على الأراضي الإيطالية على عهد فرناندو والكاثوليكي وشارل السابع الفرنسي.

7) تم تخريب مليلة في صيف 1496م (902 هـ) أولا على أيدي سكانها وعلى يد الجيش الوطاسي ثانيا. حينما علم الأولون بتفاهة النجدة الوطاسية المزمع إرسالها، وحينما أراد الأخيرون تثبيط عزائم الإسبان للنزول بالمدينة. الحسن الوزان. 266 ـ برانتس في المصدر السابق. ـ لورنثودي بضيا.

ومرة أخرى لم يقف في وجه المتحمسين الإسبان للتدخل السريع[8]، سوى تقرير مرتين كلندو[9]، الذي أعده بأمر من الملك فرناندو، عن زيارته لخرائب مليلة في أواخر سنة 1496م (902 هـ). وحسب «برانتس»[10] فإن ما أدلى به القبطان إلى عاهله كان السبب الوحيد الذي وقف وراء تراجع هذا الأخير عن تنفيد مشروع الاستيلاء على المدينة. وهذه هي كلماته :

«إذا تمكن الإسبان من احتلال مدينة مليلة، فإن المكان سيتحول لا محالة إلى مقبرة للجنود، لكونهم سيتعرضون بصفة دائمة لغارات السكان المجاورين، وبالتالي فإن جميع التكاليف التي ستنفق من أجل المحاولة، وتلك التي ستترتب عن وسائل الدفاع، كل ذلك سيذهب سدى».

كان هذا الرأي الذي عاد به القبطان صادرا من رجل خبير بالشؤون الحربية وافقه عليه الملاح كريستوف كلومب، في وقت كان يجمع فيه العدة لرحلته الثالثة إلى جزر الهند الغربية[11].

من السهل أن نتوصل إلى أن الانطباع المتشائم الذي عاد به «كلندو» لم يكن مرتبطا بصعوبة الاستيلاء على المدينة، وقد تمكن من النزول بها

---

8) منهم السكرتير الملكي فرننـدو دي ثـافر (Fernando de Zafra) وهرننـدو دي طلبيرا قسيس غرناطة (Hernando de Talabera).

9) Martin Galindo قبطان البحرية الملكية الإسبانية.

10) Pedro Maldonado Barrantés صـاحب Ilustraciones de la Casa de Niebla ألفـه في منتصف القرن السادس عشر لأسرة مدينة صيدونيا آل عثمان، نسخة منه بالخزانة الوطنية بمدريد تحت رقم B/19.

11) Jeronimo Zurita في Historia del Rey Don Hernando ج 4 ص 136.

والتجول بين ثنايا خرائبها، أو بحال المدينة نفسها الباعث على اليأس حين وجد أسوارها وأبراجها انقاضا. لقد كان مصدر ذلك الشعور منبعثا من تواجد عدد هام من السكان بالمقربات حسب تعبيره هو.

لم يكن ليعني ما جاء في التقرير سوى التعبير عما شاهده القبطان معاينة من انتشار مدا شر بني شكر الموزعة على التلال الشمالية المجاورة للضفة اليمنى من واد المدور[12] من شبه جزيرة هرك. أقربها إلى مدينة مليلة مد شر «المعازيز»[13]، ومدا شر مزوجة المستقرة على السفح الشرقي من جبل قلعية على الضفة اليسرى من واد المدور، أدناها إلى المشاهدة من موضع المدينة، مدشر «سيدي محمد المجاهد»[14].

ومما زاد في اندهاش «كلندو»، انتشار القرى على وادى فرخانة، وتلك التي تراقب الساحل من علو جبل القرمود وقمتي متابل (باسبيل) والقلعة (القلة) المشرفتين من السفح الشرقي.

وليس بمستبعد كذلك أن تكون من ضمن مشاهدات «كلندو» بعض مخيات ما تبقى من سلكان مليلة، الذين مكثوا بالمقربات على التل الموافق لكدية «سيدي ورياش»، المعروفة في ذلك الظرف الحرج «بكدية العزاء»،

---

12) أهم مجاري قبيلة قلعية يصب عند الأسوار الغربية لمليلة. يدعوه الإسبان بواد الذهب (Rio de Oro).

13) هو الذي يدعوه الإسبان Cabrerizas، حاليا يدخل ضمن حدود المدينة المحتلة.

14) هو المعروف حاليا إزمنين وبه قبر سيدي محمد المجاهد، واقع على مقربة من الحدود الجنوبية الشرقية من الحدود المصطنعة للمدينة المحتلة.

حسبما تدل عليه إشارة واردة عند الحسن الوزان[15] وما أمكن استنتاجه من رواية شفوية تدور حول فرقة آيت مليلي الكبدانية[16].

هذه المجموعات السكانية، التي أمكن الوقوف على مواقعها من الساحل، كانت في واقع ما استنتجه رئيس البحرية الإسبانية، نذيرا خطيرا يهدد كل محاولة بالعزو أن تعود، ولو على المدى البعيد، على مدبريها بالخسران، مما تشكله تلك المجموعات من حصار عسكري محقق المصير يتوارى رجاله خلف التلال والشعاب التي تملأ الأفق الغربي من محيط مليلة.

بيد أن مشروع اغتصاب المدينة، لم يتسن له الركود كما كان متوقعا من خلال تقرير «كلندو». إذ أنه لم يلبث أن بادر إلى تبنيه ولحسابه الخاص، دوق مدينة صيدونيا[17] الذي ضرب للاغتصاب موعده في نهاية ربيع 1497م (903 هـ).

ومنذ صبيحة أول يوم من الوجود الإسباني بمليلة على القاعدة الصخرية التي حملت مباني المدينة، شعرت قبيلة قلعية بخطورة الوضع الجديد. فإذا كان إشعارها قد تجاوز حدود إقليم كرط[18]، إلى العاصمة الوطاسية، لإبلاغ محمد الشيخ ذلك الخبر المفزع، فإن أول شعور بضرورة

15) وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الخضر. الرباط 1980. ص 266.

16) أذاع الكتاب الإسبان هذه الرواية منذ بداية القرن العشرين، وتأكدت لدي بعد الاتصال بشيوخ الريف الشرقي، وقلعية وكبدانة بصفة خاصة. أثبتها لما توحيه من إشارات تاريخية.

17) أمير طريف وجبل طارق وفارس حروب الاسترداد، خوان دي غثمان (Juan de Guzman).

18) هو ما يوافق اليوم الريف الشرقي أو إقليم الناظور.

الدفاع عن هذا الجزء من الوطن كان قد ولد، حين تأسست أول نواة من المجاهدين بمدينة غساسة[19] لمراقبة تحركات الإسبان خارج محيط المدينة من علو القلاع الجبلية وأعرافها.

لم يكن الإسبان بالنسبة للقلعيين عدوا جديدا، يجهلون عنه كل شيء بل وجدوا أمام أنظارهم عدوا تقليديا تمرسوا على حربه بالمشاركة في خوض المعارك الأندلسية الكبرى[20]، وانتظامهم في سلك الغزاة[21] والمساهمة في حروب غرناطة[22]، ومن أجل ذلك لم تكن أطماع الإسبان بعيدة عن إدراك رجال القبيلة.

فمنذ الوهلة الأولى وطدوا العزم على مقاومة المعتدي وإشهار السلاح في وجهه. ومن تلك المواقف الجهادية ما سجله الإسبان بأقلام المعاصرين. فهذا «خرونغو ثوريثا» أثبت لنا لقاء بين جنود مليلة ومجاهدي قلعية وهو بذلك يقدم أول نموذج من المحاولات الجهادية التي ستكررصورها خلال الأيام والقرون التالية :

---

19) مدينة قلعية الثانية بعد مليلة، واقعة على الساحل الشمال من أراضي القبيلة.

20) أشير بذلك إلى معركة العقاب التي شارك فيها سكان الريف الشرقي بإعداد من حماتها، حسبما تدل عليه المصادر التي أرخت للدخول المريني إلى الإقليم، ونحيل على كتاب القرطاس بصفة خاصة. الجزء 1 ص 28.

21) خص ابن خلدون حديثا للغزاة المجاهدين بالأندلس. ونعرف من أبناء الإقليم المجاهدين أبناء عليّ أمحلي البطوئي وعليّ ما خوخ التوزاني. وكانت غساسة القلعية مرسى الجواز إلى الأندلس (المقصد الشريف. عبد الحق البادسي ص 114 ـ ابن خلدون. المجلد السابع ص 760).

22) بناء على ما جاء في Cronica de Reyes Católicos لصاحبه Fernando de Pulgar ص 145.

«...بعد احتلال مليلة بوقت وجيز، في شهر نوفمبر[23]، خرج القبطان بأربعين من فرسانه ومائتي وخمسين من المشاة، وتوجه الجميع إلى فرن الجير[24] لجلب ما كان به من تلك المادة، لشدة حاجتهم إليها في أشغال البناء. ولما كان المسلمون قد أعدوا الكمائن للجنود في عدد من المجازات على بعد فرسخ من المدينة[25]، وفاق عددهم 200 فارس و3000 من المشاة فإن «أندينو» (Andino) وجد نفسه قد أحيط به من جميع الجهات. وآنذاك بعث الحماس في نفوس رجاله وأمرهم باقتحام الجمع الذي كان في عداده شيخ بطوية[26] وأحد إخوته. فتم قتلهما في جمع كبير من كبار الرجال»[27].

من الواضح أن هذا الاصطدام لم يكن الأول من نوع المناوشات التي كان مسرحها الدائم في فحص المدينة بين الأسوار الغربية ومجرى واد المدور. فالجنود الإسبان كانوا من جهتهم قد اعتادوا الخروج من الباب الغربي منذ الساعات الأولى من فجر كل يوم على وجه التقريب، دون أن يغامروا بالإبتعاد كثيرا عن الأسوار، حدهم النهائي يقف عند الضفة اليسرى من واد المدور. والخروج إلى هذا المجال كان حيويا لرجال المدينة فمنه كان يتم الحصول على المياه ومواد البناء والعشب والحطب.

---

23) من سنة 1497 م الموافق لربيع الثاني 903 هـ.

24) كان موضعه على أغلب الظن بمقربة من مدشر المعازيز.

25) الفرسخ الإسباني يعادل 5.572,70 متر. أي أن المسافة التي كان بها تجمع القلعيين هي 8.258,85 متر. بالقياس إلى مليلة. وهو تقدير غير دقيق بالنسبة للفترة الأولى من الوجود الإسباني.

26) لم نتمكن من معرفة أي شيء عن هذا الشيخ الذي كان مقره بمدينة غساسة.

27) ثوريتا في المصدر السابق.

كما أن القلعيين من جهتهم كانوا على علم بـذلـك الخروج وتـوقيتـه واتجاهاته. مما لا يخفى على نقط الاستطلاع المحيطة بالمدينة. فهذا هو مـا تم التعرف عليه خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الوجود الإسباني.

وهذا مما لا يختلف مع ما أمكن استنتاجه من كتابات «برانتس» ونظيره «پدرو دي مدينا»[28]، الأمر الـذي اضطر الجنود إلى توقيف أشغال ترميم المباني لصد المهاجمين.

كان الإسبان قد شرعوا في إعادة التحصينات، منـذ الليلة الأولى من وجودهم بـالمدينـة، مولين اهتمامهم للواجهة الغربيـة، التي تـأتي منها جميع الغارات، وقد اقتضي الدفاع المستعجل على الاسبان إقامة سور من الصفائح الخشبية التي جيء بها خصيصا لتلك الغاية، مفككة يسهل إعادة تركيبها. وهذا هو ما أتاح للحامية الإسبانية مواجهة الغارات إلى أن يكتمل بناء الأسوار والأبراج[29].

يبدو واضحا أن الحامية الوطاسية لم يسجل لها أي وجود أثناء هـذه الأحداث التي حدد تاريخها بشهر نوفمبر 1497م (ربيع الثاني 903 هـ). وذلـك منـذ الانسحاب من قلعيـة في صيف 1496م، مباشرة إثر وصولها ومعاينـة المدينـة المخربـة. ولم يحركها للعودة نبـأ التسرب الإسباني لاهتمام

---

28) Pedro de Medina في Crónica de los Senõres de la Casa de Medina Sidonia ألف لأسرة مدينة صيدونيا.

29) برانتس في المصدر السابق.

السلطـة المركـزيـة الـوطـاسيـة بـإحـداث أخرى بعيـدة عن الشمال الشرقي المغربي[30].

غير أننا ندرك أن استشهاد شيخ بطوية استطـاع أن يثير المخاوف في نفس محمد الشيخ. فهذا هو مـا يعبر عنـه القرار الـذي اتخـذه في شـأن إنجـاد حركة مقاومة الإسبـان، حين أوفـد إلى عين المكان اثنين من أشهر قواده إلى حدود مليلة، حسبما أفادنا به «ثوريتا»[31] :

المدعو ابن الفلالي (Abenfelyle) الذي لا نعرف هويته أو أي دور لـه داخل البلاط الوطاسي. وما يهمنا من أمره أنـه بمجرد وصولـه تحصن بقلعـة تزوطا المرينية[32]، وتمكن من جمع 400 فارس و 1000 من الرجالة.

- عليّ العطار الأندلسي (Ali Alhatar)، الذي قال عنه «بضيا» إنه ابن قائد مـدينـة «لوشـة». وبـذلـك فهو عليّ بن إبراهيم العطـار، ابن أشهر قواد السلطان ابن الأحمر، المعروف بأعماله الحربية أثناءا لحصار الإسباني للوشينـة وغرنـاطـة. اجتـاز البحر إلى المغرب برفقـة ابن الأحمر إثر سقـوط غرنـاطـة ونزل بغساسة في 3 اكتوبر 1493م (899 هـ).

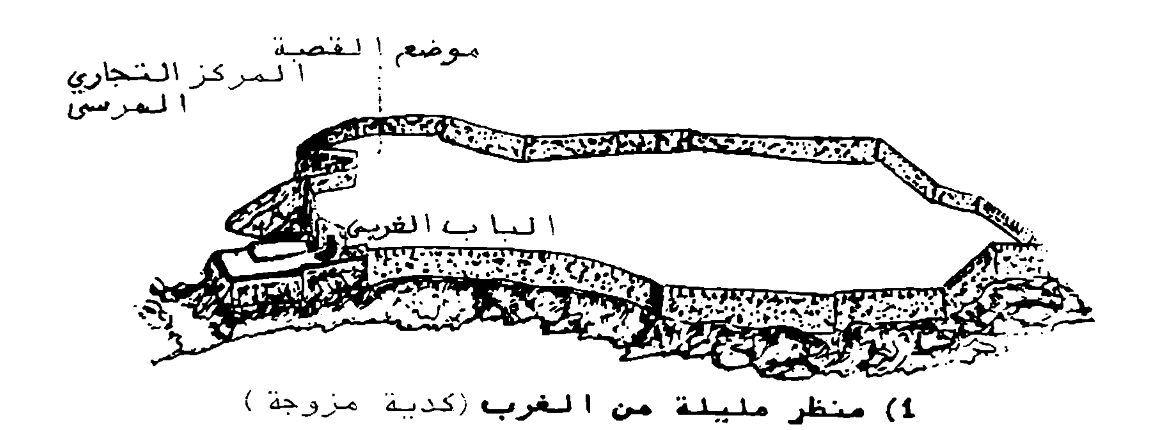
---

30) حسب الحسن الوزان فإن محمد الشيخ كان منشغلا بمحاربـة أحد أقربـائـه الثـائر عليـه في جهات تامسنا.

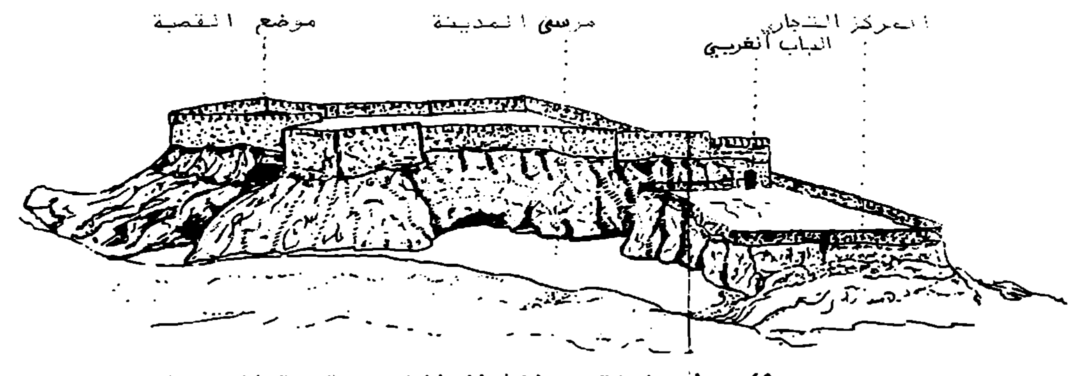
31) في المصدر السابق له.

32) تقع قلعـة تزوطـا المرينيـة في أعلى المخروط البركاني على هضبـة يصل ارتفـاعهـا إلى 670م. وهي قلعة قديمة تعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي للمغرب عرفت أثنـاء ذلـك بقلعـة جـارة (قلعة كرط). جـددهـا المرينيون وخربهـا يوسـف بن يعقوب المريني سنـة 692 هـ. وحينمـا حل بها ابن الفلالي وجدها كذلك، وربما أحدث بها بعض الإصلاحات.

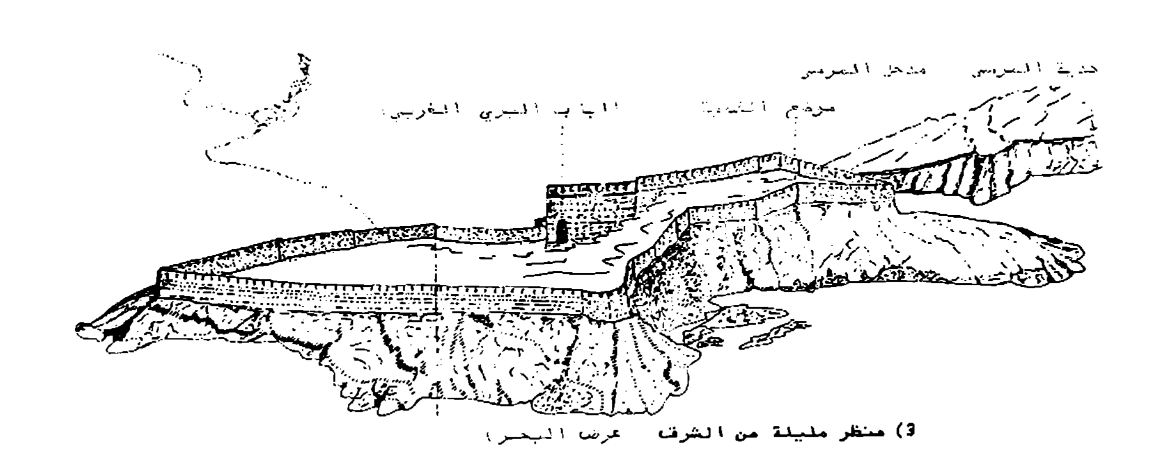
ومن هناك كان اختيار ابنه عليّ لمهمة تفقد أحوال قلعية، وتكليفه بالتحصن في غساسة. وفي أغلب الظن أن هذا الاختيار لا يعود إلى خبرة الأُسرة في الشؤون الحربية فحسب، بل أيضا لمعاينته أحوال قلعية أثناء مروره بها. وهذا الاطلاع المسبق هو الذي يفسر التمركز في المدينة ومحاولة تنظيم ما اختل من شؤونها إثر استشهاد شيخها.



1) منظر مليلة من الغرب (كدية مزوجة)



2) منظر مليلة من الشمال الغربي (كدية المرسى)



3) منظر مليلة من الشرق (عرض البحر)

وإلى قوات القائدين انضافت لفوف أخرى من المتطوعين، على رأسها من سماه ثوريتا باحمد مزوتبن (Hamet Maçoteben). ونفهم من تعبير المؤرخ الإسباني، انه لم يكن موفدا من محمد الشيخ، وهنا نفسح المجال لاحتمال انتمائه إلى المنطقة وإلى القبيلة بصفة خاصة، إذا قبلنا أن الاسم، كما قدم لنا، محرف عن الاسم القلعي «أحمد المزوجي»، حسبما أرجحه. وقد أمكن له بدوره أن يجمع 500 من الفرسان و 600 من المشاة.

نستخلص من هذا المصدر ومن آخر معاصر له، أن الهدف من مجيء القائدين ومن تعبئة تلك القوات، لم يكن لغاية الدفاع عن السكان أو عن الحدود التي فرضها الوجود الإسباني بالمدينة فحسب، بل إن تعليمات محمد الشيخ إليهما كانت ترمي إلي بذل الجهود لاسترجاع المدينة. وهذا يبدو من القيمة العددية العسكرية وتحركاتها في اتجاهها.

ففي يوم محدد زحف القواد الثلاثة إلى الفحص لاختبار قوة الدفاع، غير أن النتيجة كانت واضحة، فسرعان ما تبين أن المهمة جد عسيرة، بسبب مناعة التحصينات التي لعبت فيها الظروف الطبيعية بقدر كبير، نتيجة علو الكتلة الصخرية التي تعلو فوقها المباني ولوجود مسلك واحد فقط من جهة الغرب، تحرسه سلسلة من المدافع والأبراج.

وحينما علم محمد الشيخ بحقيقة الأمر رد الجواب إلى عليّ العطار هذا الجواب الذي قدم لنا فحواه «لورنثودي بضيا» :

«.. علم ملك فاس بعجز عليّ العطار عن الدخول إلى مليلة بذلك الجيش الهام، فبعث إليه يأمره أن يكتفي بالاستقرار بغساسة وترتيب

حامية مناسبة بها، وأن يسهر على وضع قوات أخرى بوادي بطوية، يتخذه الرجال مقرا لانطلاق الغارات نحو المدينة، بالكيفية التي يشعر بها المسيحيون أنهم محاصرون على الدوام».[33]

- ومن ترجمة هذه الدلالات التاريخية نتمكن من التعرف على الترتيبات الأُولى التي كان على العطار أن ينجزها قبل مغادرته لقلعية :
- استمرت مدينة غساسة في القيام بدورها كنقطة على الساحل القلعي لاحتضان رجال المقاومة.

- نلمس من ضمن التدابير التي كلف بها عليّ العطار، الإشارة الأُولى إلى تأسيس رباط دائم ينيط بمهمة مراقبة باب المدينة الغربي الذي منه مخرج الإسبان ووضع حراسة يقظة تحول دون تجاوزهم للحدود التي تمثلها الأسوار.

وتتم هذه الترتيبات، جملة من التعليمات التي تلقاها ابن الفلالي بدوره. أخبرنا بها «ثوريتا» :

«..وحصن المسلمون مدينة تزوطا لتكون أهم قاعدة عسكرية في البلد واعتنوا بها وبمتابل والقلعة، وهي مواقع منيعة مجاورة لمليلة، وتوجد عند قدم الجبل، ليتمكن لهم منها فرض الحصار على مسيحيي مليلة».[34]

- هكذا أصبحت قلعة تزوطا، بحكم موقعها وسط القبيلة وحصانتها الطبيعية موضع تفكير لاختيارها قاعدة عامة لحركة المقاومة.

---

33) Lorenzo de Padia في Cronica de Felipe I° الفصل 12 ص 49.

34) في المصدر المعلن عنه سابقا.

أحدثت مراكز للمراقبة من علو القمم التي يتجاوز ارتفاعها 700م. لتسجيل تحركات الاسبان خارج الأسوار وجولات السفن على الساحل. وعين منها نقطتان بارزتان من السفح الشرقي لجبل قلعية :

- متابل؛ بهذا الاسم عرف بها ثوريتا[35]، تظهر من مليلة وكأنها قلعة حقيقية، ويعود اختيارها كنقطة للمراقبة، زيادة على علوها، إلى مقابلتها للمدينة، ويكفي سطح القمة لبناء برج صغير أشار ثوريتا إلى وجوده في بداية القرن السادس عشر.

- القلعة : هي المعروفة حاليا «بالقُلّة»، والاسم دليل على وجود سابق للقلعة وتنتصب على الطرف الجنوبي من السفح الشرقي ويمكن أن تراقب ساحل مليلة إلى جانب ساحل البحر الصغير.[36]

تلك هي بوادر المقاومة الأُولى التي أردنا إبرازها إلى الوجود من ثنايا المصادر الإسبانية كخطوة أُولى قبل أن تتاح لنا فرصة بحث فترة استقرار أسس حركة الجهاد في بداية القرن السادس عشر على يد عليّ العطار بعد عودته الثانية إلى قلعية إثر احتلال الإسبان لمدينة غساسة سنة 1506م (911 هـ).

واحتلال الإسبان للمدينة القلعية الثانية دليل على تأرجح الأسس الأُولى التي وضعت قبل نهاية 1497م. وبدأ هذا التأرجح بعد انسحاب ابن الفلالي وعلي العطار من قلعية، تلبية لنداء محمد الشيخ الذي استلزمته مواجهة الخطر البرتغالي الزاحف على الشواطئ الأَطلسية.

سلا **حسن الفكَيكَي**

35) يطلق عليها «باسْبِيل» و «بازْبِيس» ولا نعرف أصل ومعنى الكلمتين.

36) البحيرة المجاورة لمدينة الناظور.

الأرجوزة في الأدب المغربي

عبد الجواد السقاط

تعتبر الأرجوزة من بين الأنماط التعبيرية التي عرفتها الساحة الأدبية في المجتمع العربي منذ الفترة الجاهلية، حيث يحتفظ لنا التاريخ ببعض الأسماء التي اشتهر أصحابها في هذا الباب أمثال العجاج[1] الذي كان كثير الأراجيز، وخاصة في غرض المدح، حتى عد إمام الرجاز في وقته، وأمثال ابنه رؤبة، وأبي نخيلة، وأبي النجم، ودكين، والأغلب، وعمر بن لجأ، وأبي الزحف[2] وغيرهم.

---

1) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر، ولد بالجاهلية، وفيها نشأ، ثم أدرك الإسلام، وعمر إلى أواخر القرن الأول للهجرة، انظره في الشعر والشعراء ج 2 ص 493 والأعلام ج 4 ص 217.

2) انظر هؤلاء بالترتيب في الشعر والشعراء ج 2 ص 495 ـ 501 ـ 502 ـ 508 ـ 511 ـ 570 ـ 578.

ويبدو من خلال ما تناقلته كتب التاريخ والتراجم من أخبار، أن الأراجيز كانت تتمتع بشهرة كبيرة، وأنها كانت لونا متداولا على صعيد واسع، بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أنها كانت أكثر الأوزان شيوعا في الجاهلية[3]. ويكفي أن نسجل ما رواه أبو الطيب اللغوي بإسناد عن أبي حاتم السجستاني حول العالم الأصمعي[4] حيث قال : «كان الأصمعي أروى الناس للرجز، سمعت مرة بحرانيا كان قد طاف بنواحي خراسان يسأله، فقال له : أخبرني فلان بالري أنك تروي اثني عشر ألف أرجوزة، فقال نعم، أروي أربعة عشر ألف أرجوزة»[5].

ويهمنا من هذه القصة ما تفيده من أن الأصمعي، وهو من رجال القرن الثاني للهجرة، قد كان يروي هذا العدد الهائل من الأراجيز، مما يدل على كثرة رواجها، وتوسل نفر من الشعراء بها كأسلوب لإفراز عواطفهم وتخليد مواقفهم.

وبغض النظر عن تعريف الرجز وتحديد الفروق التي وضعها بعض الباحثين من قدماء ومحدثين بينه وبين الشعر[6]، فإن الذي يجدر التنبيه عليه، أن الرجز يأتي في المرتبة الثانية بعد الشعر، أو بتعبير آخر «يوضع الرجز الممثل لطفولة الفن الشعري حيال الفن النبيل المجود، فن الفحول،

3) شوقي ضيف، العصر الجاهلي ص 186.

4) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب (122 هـ 216 هـ)، انظره في وفيات الأعيان ج 3 ص 170، وتاريخ بغداد ج 10 ص 410.

5) مراتب النحويين ص 57.

6) انظر مقالا حول الرجز والشعر وموقف القدماء منها للدكتور مصطفى الجوزو، مجلة الفكر العربي، عدد 25، يناير، فبراير 1982 من ص 318 إلى ص 328.

فهو فن بدائي ارتجالي، عامي في أكثره، قريب من البداوة، موافق لها»[7].
ومن هنا وجدنا البحر الشعري الذي يسمى باسمه[8] يمثل أسهل أوزان الشعر وأيسرها، حتى سماه بعضهم حمار الشعراء لشدة سهولته ويسره.

☆ ☆ ☆

وإذا نحن بعد هذا تساءلنا عن حظ الأدب المغربي من هذا اللون من التعبير، واستنطقنا رفوف تراثنا الشعري الزاخر، أدركنا أن الشعر المغربي قد انفتح على هذا الأسلوب كذلك، وأن هذا الانفتاح أخذ ينمو منذ العصر المريني مع شعراء مرموقين كعبد العزيز الملزوري[9]، والحسن بن عثمان بن عطية[10]. ومالك ابن المرحل الشاعر المشهور فقد ذكرت كتب التاريخ للأول أرجوزة توجه بها إلى الخليفة يقعوب المنصور المريني[11]، يمدحه فيها، ويستعرض أثناء ذلك بعض اللقطات والحقائق التاريخية، وفيها يقول مادحا :

رأيته يصحبه التمكين   مبارك طالعه ميمون
فأمن الغرب من الفساد   ونشر العدل على العباد

---

7) المصدر السابق ص 326.

8) هو بحر الرجز، ووزنه كما نظمه بعضهم :
في أبحر الأرجاز بحر يسهل   مستفعلن مستفعلن مستفعل

9) مات عام 697 هـ، انظر بعض أخباره وشعره في الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 2، ص 365 ـ 370، وجذوة الاقتباس ج 2 ص 548 والبنوغ المغربي ج 1 ص 236.

10) من أدباء مكناس في العصر المريني مات عام 781 هـ، انظره في الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 2، ص 478 ـ 479 والجذوة ج 1 ص 179.

11) هو يعقوب بن عبد الحق المريني، رابع الإخوة الأربعة الذين ولوا الأمر بالمغرب من بني عبد الحق، مات عام 685 هـ، انظره في الاستقصا ج 3 ص 20 ـ 65.

ولم يـــدع في الغرب من يجــور　　وزالت الأهـــوال والفجـــور
ورفـــع الظلم عن الرعيـــــه　　وقمـع الطغـــاة في البريـــه[12]

كما ذكرت للثاني أرجوزة تظلم بها عند السلطان أبي عنان المريني[13] وهو تظلم مشفوع بمدح السلطان كقوله فيها :

خليفـــة اللـــه أبـــا عنـــان　　لازال في خير وفي أمـــــان
ملكـــه اللـــه من البـــلاد　　من ســوسهـا الأقصى إلى بغـداد
ويسر الحجـــاز والجهـــادا　　وجعـل الكل لـــه مهـــادا[14]

هذا علاوة على أراجيز ابن المرحل في العروض وغيره.

واستمر هـذا النمو يزداد اشتـدادا وقوة مع العصر السعـدي، إذ نصـادف العـديـد من الشعراء الـذين مـارسوا هـذا اللون من التعبير أمثـال محمد بن الحسين التكمدارتي[15] صاحب الأرجوزة في قواعـد الإسلام[16] وأرجوزة درة العلائـق في تـوجيـه الصبيـان لـدين الخـالـق[17]، وعبـد اللـه بن سعيـد التيخفيستي[18] صاحب الأرجوزة في العمل بالمناسخات[19]، ومحمد العربي بن

12) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 2 ص 367.
13) من عظماء ملوك بني مرين، مات عام 759 هـ، انظره في الاستقصا ج 3 ص 181 ـ 208.
14) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 2 ص 479.
15) مات حوالي 1075 هـ، وكان فقيها وأديبا، انظره في الدرر المرصعة ص 410، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 2 ص 541.
16) ذكرها صاحب الحركة الفكرية بالمغرب، ج 2 ص 541.
17) نفس المصدر والجزء والصفحة.
18) من فقهاء أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري، انظره في خلال جزولة ج 2 ص 114 والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 597.
19) ذكرها صاحب الحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 597.

يوسف الفاسي[20] صاحب الأرجوزة في الذكاة[21]، وعلي بن محمد الدادسي[22] صاحب أرجوزة العمل بالكفة الواحدة[23] وأرجوزة المعونة[24] وأرجوزة اليواقيت لمبتغي معرفة المواقيت[25]، ومحمد بن سعيد المرغيثي السوسي[26] صاحب أرجوزة المقنع[27]، وغيرهم كثير.

ولعلنا نكتفي من هذا الفيض المتدفق بالاستشهاد بمقطعين اثنين، أحدهما مطلع أرجوزة محمد العربي بن يوسف الفاسي في الذكاة، وفيه يقول الناظم :

---

20) من شعراء القرن الحادي عشر الهجري، مات عام 1052 هـ، انظره في مرآة المحاسن ص 159 ـ 164، والصفوة ص 71 والمحاضرات ص 72، والتقاط الدرر ص 23، والسلوة ج 2 ص 313، 315، والزاوية الدلائية ص 113 ـ 114، وأبو عبد الله محمد المرابط الدلائي ص 41، والشعر الدلائي ص 367.

21) شرحها عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الزياتي، والشرح موجود بالخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق والمخطوطات، ضمن مجموع رقم د 2170 من ص 1 إلى ص 129.

22) ممن برزوا في التوقيت والحساب في القرن الحادي عشر الهجري، انظره في مصادر كثيرة منها ابتهاج القلوب ص 292، والصفوة ص 198، ونشر الثاني ج 2 ص 406، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 532.

23 و24 و25) ذكر هذه الأراجيز صاحب الحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 532.

26) عالم وشاعر من رجال القرن الحادي عشر الهجري، وأحد الاعلام الذين استقروا بالزاوية الدلائية للتدريس بها، انظره في الصفوة ص 177، 179، وخلاصة الأثر ج 3 ص 472، ومباحث الأنوار ص 85، والتقاط الدرر ص 49، ونشر الثاني ج 2 ص 241 ـ 245، والسعادة الأبدية ج 1 ص 136، والإعلام ج 5 ص 304، والزاوية الدلائية ص 96، والشعر الدلائي ص 368.

27) انظرها في مجموع رقم د 2046 من ص 147 إلى ص 154، وآخر رقم د 2233 من ص 107 إلى ص 113.

الحمـــد للـــــه على مـــــا أنعما	فضــلا وصلى ربنـــــا وسلمــــا
على النبي المصطفى الهــادي المكين	وآلـــه وصحبـــه والتـــابعين
هـذا بحمـد اللـه نظم في الـذكاه	قـلائـد التقـوى بـه منسبكـه
واللــه أســأل الإعـــانـــة وأن	يهـدينـا بـه إلى أهـدى سنن[28]

أمـا ثـانيهما فمطلع أرجوزة المقنع للمرغيثي، والتي اختصر فيهـا أرجوزة لمحمد بن علي البطيوي المعروف بابن مقرع[29] حيث جاء فيه :

يقـول بعـد حمـد مجري الفلـك	ثم على محمـــد الهـــادي الـزكي
أزكى الصـــــلاة وعلى الأشراف	آل النبي وكل ذي إنصـــــاف
محمـــد نجـل سعيـــد الســوسي	المرتجي مغفرة القـــــــدوس
يـــاســائـلا مختصرا يكـون في	نظم أبي مقرع المــــــؤلف
خــــذه بعـون القـــادر المهين	كما أردت وبــــه فـــاستعن[30]

وجدير بـالإشـارة أن التوسل بـأسلوب الرجز قـد واصل مسيرتـه مع العصر العلوي فيما بعد، حيث تطـالعنـا بعض الأسماء التي ثبتت عنهـا نماذج من هـذا اللـون، ومن هـذه الأسماء نشير إلى الشـاعر علي مصبـاح[31] الـذي

---

28) مجموع رقم د 2179 ص 2.

29) في موضوع التوقيت.

30) مجموع رقم د 2046 ص 147 وآخر رقم د 2233 ص 107.

31) من كبـار شعراء العصر العلـوي، مـات عـام 1150 هـ، انظره في النبـوغ المغربي ج 1 ص 3205، والحياة الأدبية في المغرب على عهد الـدولـة العلويـة ص 220، والشعر الـدلائي ص 78، وتاريخ الضعيف ورقة 50، والمنزع اللطيف ص 480، ومقدمة ديوانه.

نقف لـه على أرجوزة في أشراف العلم ونسب القطب المولى عبـد السـلام بن مشيش[32] وذكر أولاده وإخوانه، وفيها يقول :

ومنهم في الغرب أشراف العلم	نـــودوا برفـــع مثــــل مفرد علم
هم أنجم في الغرب طـــالعـــات	فـوق نجـوم الأفـق سـاطعـات
وهم بنــو القطب الجليـــل المرتضى	عبـد السـلام بن مشيش الرضى[33]

ومن هذه الأسماء أيضا نشير إلى العالم الشاعر أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي[34] الذي نجد له أكثر من أرجوزة، منها تلـك التي سماهـا عقد الجوهر في الربع المقنطر، والتي جاء فيها :

وإنني لمـــــا رأيت العلمــــــا	البعض يستقصى والبعض يرمى
ألفت في علم يكاد ينسى	من بعـد مـا قـد كان يبـدو شمسـا
رســـالــــة ظريفـــة عجيبــــه	تبلــغ الراوي لهــــا نصيبــــه
سميت نظمهـــا بعقـــد الجـوهر	لكــونــــه في الربــع المقنطر[35]

32) من كبـار المتصوفـة بـالمغرب، من تلاميـذه أبو الحسن الشـاذلي مؤسس الطريقـة الشـاذليـة المشهورة، وقد نظم فيه عبد السلام بن الطيب القادري أرجوزة أخرى سماهـا : الإشراف في نسب الأقطاب الأربعة الأشراف (إلى جانب عبد القادر الجيلاني وأبي الحسن الشـاذلي ومحمـد ابن سليمان الجزولي) (انظر فهرس المصادر والمراجع).

33) مجموع رقم د 2015 ص 1.

34) مـات عـام 1096 هـ، انظره في نشر المثـــاني ج 2 ص 325 ـ 329، وطبقـــات الحضيكي ص 252 ـ 253، والنبوغ المغربي ج 1 ص 295.

35) مجموع رقم د 2236 ص 63 وأخر رقم د 23 20 ص 387.

ومنها أخرى في الحسبة جاء فيها :

علم بــه يــزال غش البـــاعــه	ينظر في الميزان والبضـــاعـــة
وشرط قــــائم بــــه الإســـلام	والعـــــدل لا يضره مـــــلام
فظـــا برفــق بـــالغـــا وذكرا	ذا هيبــــة وهمــــة مــوقرا[36]

☆ ☆ ☆

على أننـا إذا حـاولنـا البحث عن مصـادر هـذه الأراجيز لوجـدنـاهـا متعددة متنوعة يمكن تصنيفها كالآتي :

1) الكتب التي أفرد كل واحد منها لأرجوزة معينة، تكون في أغلب الأحيان من المطولات.

2) المجاميع التي يضم كل منهـا جملـة من هـذه الأراجيز، ولعـل هـذا الصنف هو الـذي يتميز بـالغـزارة والكثرة، وهـو كسـابقـه لا يـزال معظمـه مخطوطـا دفينـا في رفـوف بعض الخـزانـات الخـاصـة، أو محفـوظـا في بعض المكتبات العامة كالخزانة الحسنية بالرباط، أو المكتبة العامة بالرباط كذلـك - قسم الوثـائق والمخطـوطـات - أو خـزانـة ابن يـوسف بمراكش، أو الخـزانـة العامة بتطوان.

3) الـدراسـات الحـديثـة التي أنجزهـا أصحـابهـا في مواضيـع مختلفـة، فأدرجوا ضمنهـا بعض الأراجيز أو بعض المقـاطع منهـا كلمـا دعتهم الضرورة

---

36) مجموع رقم د 2013 ص 2.

إلى ذلـك، على غرار مـا نجـد مثلا في كتـاب المعسول للمرحـوم محمـد المختـار السوسي.

☆ ☆ ☆

ويبـدو أن الأراجيز المغربيـة بهـذا الاتسـاع والشمول قـد تطرقت إلى مـوضـوعـات وأغراض مختلفـة، وسبحت في محيـط الكثير من المضـامين التي تطرق إليهـا الشعر، ويمكننـا أن نقسم هـذه الموضوعـات إلى ثلاث زمر هي الآتية :

1) زمرة الموضوعـات الأدبيـة التقليـديـة من مـدح وغـزل وسيـاسـة ووعظ وغيرها، وهي موضوعات لم تحظ إلا بنماذج قليلـة، ولعل ذلـك راجع إلى أن هذه الموضوعات مرتبطة أشد الارتباط بـأعمـاق الشـاعر ومعـانـاتـه، ومنطلقة من تجربته القويـة التي تفرض عليـه نوبـات وجـدانيـة وشحنـات عـاطفيــة رقيقــة، في حين أن الرجــز غــالبــا مــا يطبعــه عنصر السرد والاستعراض، بعيدا عن مواطن التأمل والتحليل، ومع ذلك تطـالعنـا بعض النماذج في المدح كالأرجوزة التي مرت بنـا لابن عطيـة، والتي تظلم فيهـا إلى أبي عنان المريني، حيث استغل الفرصة ليمدح هذا الخليفة، وبـالتـالي ليمـدح الدولة المرينية بصفة عـامـة، وكالأرجوزة التي نظمهـا محمـد بن عبـد الرحمن الكراسي[37]، والتي سماها «عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل»[38]، وهي أرجوزة يشيد فيها الناظم ببني وطاس، ويتغنى بأفضالهم ومحاسنهم.

---

37) فقيـه ومحـدث وقـاض ومـؤرخ وأديب، من رجـال القرن العـاشر الهجري، انظره في دوحـة الناشر ص 21 وتاريخ تطوان ج 1 ص 144، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 418.

38) طبعت بالمطبعة الملكية بالرباط 1383 هـ - 1963م.

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع المدح في الأرجوزة المغربية كثيرا ما يرتبط بالتاريخ والتراجم ويندمج معها في اتصال وتداخل، وفي هذا الإطار نجد مجموعة من الأراجيز التي جمعت بين هذين الطرفين كأرجوزة «درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك»[39] لأحمد بن القاضي المكناسي[40].

وفي موضوع الغزل تطالعنا أرجوزة لعلي الملزوزي[41] نظمها مبديا لوعته وهيامه نحو محبوبه، وفيها يقول :

من لي متى يبخل بأنـ	ـس كنت فيه مغرما
إنيّ ببذل النفس فيـ	ـه لم أطق أن أكتما
دعني فإني قد شغفـ	ـت حبه في كل ما
يقضي علي كيف لا	يقضي بما قد تيما
ذو الوجنتين كالشقيـ	ـق أو كرقراق الدما[42]

وهو غزل فاتر العاطفة ضعيف الانفعال، تكسوه مسحة من الهزال الفني، شأنه في ذلك شأن الكثير من أشعار صاحبه التي كانت بسيطة وأحيانا مسفة.

39) انظرها في مجموع رقم د 52.

40) من كبار العلماء في العصر السعدي، مات عام 1025 هـ، انظره في نشر المثاني ج 1 ص 213 والتقاط الدرر ص 11 والزاوية الدلائية ص 86 ـ 93، وطبقات الحضيكي ص 36 ـ 37.

41) كاتب وشاعر من أدباء العصر السعدي، انظره مع بعض أشعاره في الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 3 ص 675 ـ 677.

42) نفس المصدر السابق والجزء ص 676.

أما السياسة فنمثل لها بأرجوزة «ورد الشهي الطائش وصولة الإسلام بالعرائش»، وهي الأرجوزة التي نظمها أبو المحاسن يوسف بن محمد الشوردي التطواني[43] عقب فتح العرائش، والتي نقتطف منها هذا المقطع في وصف الأعداء وقد حلت بهم الهزيمة :

وأذ عنوا خوفا على الرقاب وانقطعت حبائل الأسباب
فأخرجوا وتركوا العرائشا وكلهم مما رآه دهشا
بين صفوف المسلمين خرجوا وفي قياد الأسر حقا ولجوا
وبرزوا إلى العراء كلهمْ بها انتهى صغارهم وذلهم
عددهم ألف وزد سبعمائه واثنان مع عشرين منهم فئه[44]

وأما الوعظ فنقتصر منه على أرجوزة مولاي محمد المصطفى[45] التي نظمها في التحذير من الكفار حيث يقول في ثناياها :

أحكامهم جور وظلم عدلهم ودينهم كفر وبيس عدلهم
أموالهم سم لدينكم وقيـ ـمة بلادكم عسى الله يقي
أسلافهم قبل لطه غادرون في عهدهم كيف لكم لا يغدرون
برئت الذمة ممن معهم في دورهم أقام أو جامعهم
وكل نفس بهواها تحشر من هوى الكفار معهم يحشر[46]

---

43) فقيه أديب من رجال القرن الثاني عشر الهجري، انظره في تاريخ تطوان، ج 2 ص 13.
44) نفس المصدر السابق والجزء ص 18.
45) ويعرف بمربيه ربي، من أدباء سوس المتأخرين، انظره في المعسول ج 4 ص 247 ـ 266.
46) نفس المصدر السابق والجزء ص 259.

2) زمرة الموضوعات الطريفة التي تعالج قضايا من الحياة العامة للمواطن المغربي، سواء منها ما تعلق بالجانب الاقتصادي كالأرجوزة التي نظمها ابن العربي الأدوزي[47]. حول أتاي (الشاي) وفيها يقول مبينا أن اتخاذ الطبلة (آنية الشاي) من دواعي الكرم عند الأثرياء :

لـــذاك فـــالرجـل ذو أمـوال	من عـــالم أو حـــاكم أو وال
لابـــد أن يتخـــذ الطبلـــة في	منزلـــه لـــوارد ذي شرف[48]

والأرجوزة التي نظمها الطاهر الإفراني[49] في الموضوع نفسه[50] حيث يقول في ثناياها :

فـاعلم بـأن صنعـة التشحير قـد	أحـدثهـا ذوو المجـانـة فقـد
أمـا الطبـاع المستقيمـة فـلا	ترضى بـأن تفعلهـا أو تقبـلا
لأنهـــا تسخم البرادا	وربمـا تفسـده إفسـادا
والكأس قـد شرط أهـل الظرف	فيهـا النقـاء وصفـاء الظرف
لـذا تغـالى النـاس في مـا عونـه	وبـذلـوا النفيس في شـؤونـه[51]

---

47) من كبار علماء سوس، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، انظره في المعسول ج 5 ص 113، والاعلام ج 9 ص 26، وسوس العالمة ص 27.

48) سوس العالمة ص 27.

49) من كبار شعراء سوس في القرن الرابع الهجري، انظره في المعسول ج 7 ص 69، والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 19 ـ 30، والشعر الوطني المغربي في عهد الحماية ص 216 والطاهر الإيفراني : حياته وشعره.

50) انظرها في المعسول ج 1 ص 53 ـ 54.

51) نفس المصدر السابق والجزء ص 53.

أو ما تعلق بالجانب الصناعي كأرجوزة في صناعة تسفير الكتب من نظم أحمد بن الحسن بن عرضون[52]، أو ما تعلق أخيرا بالجانب الرياضي كأرجوزة «تمية الأجياد في الصافنات النجباء الجياد»[53] من نظم عبد القادر ابن العربي القادري[54]، والتي نختار منها قوله :

والفرس المستحسن الجميل	ما في الرباط جيده يميل
يقال فيه فرس دواح	عليه قد تلتئم الأرباح
إن مال لليمين والشمال	يطلب رزقه من الحلال
وإن لجهة يميل واحده	ليس له في فعله من فائده
وجاء في التفسير أن الصافنات	هي التي على الثلاث واقفات[55]

3) زمرة الموضوعات العلمية المتنوعة، وهي الزمرة التي تميزت بحظ أوفر في النظم، وأسفرت المحاولات فيها عن سيل عارم من الأراجيز التي دلت على اهتمام المغاربة بشتى أصناف العلوم وتضلعهم فيها نظما وتأليفا. ونستطيع أن نصنف أراجيز هذه الزمرة في وحدات ثلاث هي الآتية :

---

52) من علماء شفشاون وقضاتها في القرن العاشر الهجري، انظره في الدر السني ص 43، والسلوة ج 2 ص 268، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 423، والتقاط الدرر ص 5.

53) انظرها ضمن مجموع رقم د 10 22 من ص 152 إلى ص 135، وهي هنا مبتورة الأول، وانظرها كاملة في مجموع رقم د 3640 من ص 255 إلى ص 271.

54) سمى أرجوزته هذه بالجواهر المنظمة في شرف الجياد المسومة كما سماها كذلك بتمية الأجياد في الصافنات النجباء الجياد.

55) مجموع رقم د 2210 ص 125 ومجموع رقم د 3640 ص 257.

أ) وحدة العلوم الدينية، وتشمل مواضيع مختلفة من تصوف وفقه وتوحيد وحديث وقراءة وما إليها.

ففي إطار التصوف، نشير إلى الأرجوزة التي نظمها عبد الله بن أحمد المسكدادي التيزركيني[56]، وتلك التي نظمها أحمد بن القاسم الصومعي الهروي[57] تحت عنوان : «وسيلة التصديق يصل به لكعبة التحقيق»[58]. ويبدو أن التعامل مع الأرجوزة في ميدان التصوف قد عرف ازدهاره في القرون الهجرية : العاشر والحادي عشر والثاني عشر، وهي المرحلة التي عرفت تراكما ملموسا لرجال التصوف، وخاصة في رحاب الزوايا التي انتشرت في هذه الفترة انتشارا ملحوظا.

وفي إطار التوحيد، نسجل أرجوزة «كفاية المريد وغنية الطالب للتوحيد»[59] لعلي بن العربي السقاط[60]، تلك التي تناول فيها الحديث عن صفات الله تعالى من نفسية[61] وسلبية ومعنوية، سواء منها ما هو واجب

---

56) انظر الأرجوزة في المعسول ج 13 ص 278، وانظر حول صاحبها نفس المصدر والجزء، وكذلك طبقات الحضنيكي ص 186 والحركة الفكرية ج 2 ص 599.

57) مات عام 1013 هـ، انظره في التقاط الدرر ص 5، ونشر المثاني ج 1 ص 119 والصفوة ص 27 ـ 29.

58) نشر المثاني ج 1 ص 115.

59) انظرها مشروحة في مجموع رقم د 2218 من ص 16 إلى ص 129.

60) حلاه الشارح بالشيخ الكامل والإمام الفاضل، الورع العفيف، والعالم العامل (نفس المصدر السابق ص 16).

61) الصفة النفسية، كما جاء في كلام الشارح، هي الحال الواجبة للذات لا لعلة ككون الجوهر جوهرا (مجموع رقم د 2218 ص 76).

في حقه تعالى أو ما هو جائز أو ما هو مستحيل، ومما جاء فيها قوله حول أقسام الحكم العقلي :

اعلم بأن حكم عقلنا انحصر	أقسامه ثلاثة كما اشتهر،
في واجب وجائز ومستحيل	فحصل العلم على النهج الجميل
فالواجب العقل نفي عنه العدم	والمستحيل ضده به حكم
والجائز الذي يصح عقلا	عدمه وللوجود أهلا[62]

ولعل هذه المفاهيم هي التي تطرق إليها راجز آخر هو محمد بن عبد الرحمن بن علي الجوطي[63] في أرجوزة سماها «واسطة السلوك»[64]، حيث جاء فيها حول أقسام حكم العقل :

القول في انقسام حكم العقل	بواضح البرهان لا بالنقل
ينحصر العقلي حتما بالدليل	في واجب وجائز ومستحيل
فالواجب العقلي أيضا علما	عدمه استحال عقلا فاعلما
والمستحيل علمه لا يوجد	تصورا في العقل حين يقصد
والجائز الذي يصح عدمه	أو الوجود فاستحال قدمه[65]

---

62) مجموع رقم د 2218 ص 44.

63) حلاه ناسخ الأرجوزة بالعالم الفقيه، انظره في الجذوة ج 1 ص 211.

64) انظرها في مجموع رقم 608 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

65) نفس المصدر السابق.

وفيما يخص الحديث نكتفي بالإشارة إلى أرجوزة في اصطلاح الحديث[66] من نظم أبي الحسن علي بن سليمان الدمناتي[67] تناول فيها التعريف بكافة المصطلحات التي توظف في ميدان الحديث من متواتر وصحيح وحسن ومضعف وضعيف ومرفوع وما إليها، وقد جاء في مقدمتها :

الحمد لله الذي نبأنا … بما لسان حبه أنبأنا
صلى عليه آله الرب القدير … كما هو الكل بذلك جدير
يا طالب الأخبار خذها بفرج … مبينا ومسقطا كل حرج
محتمل الصدق لذاته وضد … ذا خبر وهو للإنشاء ند
يعني به الحديث علمه انتمى … معرفة السند متن هل سما[68]

وأما ما يخص الفقه فالنماذج فيه كثيرة، منها «تحفة المحتاج في حكم أكل الناس الدجاج»[69] لمحمد بن سعيد السوسي[70] التي يقول فيها :

---

66) انظرها ضمن مجموع رقم د 1929 من ص 190 إلى ص 195.

67) عرف به ناسخ الأرجوزة فقال : قال الشيخ الإمام، العلامة الهمام، عمدتي ومولاي وملجئي سيدي أبي الحسن علي بن سليمان الدمناتي رضي الله عنه وعنا به آمين (نفس المجموع ص 190).

68) نفس المصدر السابق والصفحة.

69) انظرها في مجموع رقم د [illegible] من ص 353 إلى ص 358.

70) ورد خطأ في تقديم الأرجوزة أنها لسعيد بن محمد بن سعيد السوسي، ولعل الصواب محمد بن سعيد السوسي (انظره في الهامش رقم 26).

فصل : وما قد قيل في الدجاجه فالديك مثلها بكل حاجه
كذاك كل طائر مباح تفصيله كمثل ذا يا صاح
والطير إن يمت بلا ذكاة فبيضه يحرم بالوفاة
وفاسد البيض حرام لا كلام وكل ما يطبخ معه فحرام
وإن يك المطبوخ معه بيضا صحيحة فهي حرام أيضا[71]

ومنها كذلك الأرجوزة التي سبق أن أشرنا إليها في موضوع الذكاة من نظم محمد العربي بن يوسف الفاسي، ومنها أيضا أرجوزة في نظم بيوع ابن جماعة[72] من إنتاج أبي سالم العياشي[73]، والتي جاء منها في باب الاقتضاء والبيع والصرف :

من اشترى بدرهمين سلعا لأجل وحين حل دفعا
في ذاك دينارا ورد البائع دراهما فالمنع فيه ذائع[74]

ومنها، علاوة على ما تقدم، الأرجوزة التي نظمها محمد بن عبد الله الهبطي[75] في أقسام العدة وأحكامها[76]، والتي نجتزئ منها قوله :

71) مجموع رقم د 2214 ص 355.

72) هو الشيخ الإمام أبو يحي بن جماعة التونسي أحد الأئمة المحصلين والفقهاء المحققين، من رجال القرن الثامن الهجري، انظره في إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب ص 4.

73) من أقطاب الزاوية العياشية المشهورة وأحد شعرائها المرموقين، مات عام 1090 هـ، انظره في التقاط الدرر ص 50 ونشر المثاني ج 2 ص 254، والزاوية الدلائية ص 64 والشعر الدلائي ص 75.

74) إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب ص 59.

75) عالم متصوف من رجال القرن العاشر الهجري، انظره في الحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 468.

76) انظرها في مجموع رقم 355 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

عــــــــدة من تطلقت صغيره ثـــلاث أشهر كـــــذا الكبيره
أو بثــلاثـــــة من الأطهـــــار عـــدة من تحيض قــل للقـــاري
وإن تـــأخر مجيء حيضهـــا على التمام سنـــة تقعـــدهـــا
كمرضـع عــدتهـا أيضـا بعـام لفقـده لكنـه بعـد انفطـام[77]

وإذا كانت هذه الأراجيز تتناول موضوعا فقهيا واحدا، فإن منها ما كان يتناول مجموعة من القضايا كالأرجوزة التي نظمها الحسن بن مسعود اليوسي[78] «في قضايا فقهية متعددة كالوضوء بما له من فرائض وسنن وفضائل ومكروهات ونواقض، وما يتعلق به من غسل أو مسح أو تيمم، وكالصلاة والصيام»[79]؛ وكاستشهاد على ذلك نكتفي بقوله في موضوع الصيام :

صيـام شهر رمضـان قـد لـزم بـالعقـل والقـدرة كل محتلم
ثم النقـــاء من دم وهـــو يراعي ترك الطعـام والشراب والجمـاع
من طلعـــة الفجر إلى الغروب والفطر عن عجـز وعن عـزوب
فيـــه القضـــاء وإذا تعمـــدا ولا تـأول ولا الجهـل ارتـدى

77) نفس المصدر السابق.
78) من أبرز العلماء والشعراء في القرن الحادي عشر الهجري، مات عام 1102 هـ انظره في مصادر ومراجع متعددة جمعها الدكتور عباس الجراري في كتابه عبقرية اليوسي، وبعدها كتاب الشعر الدلائي ص 370 ـ 372.
79) الشعر الدلائي ص 233.

كفر بـــــالستين مسكينـــــا لكل مـــــدوذا أفضــل أو صــوم يحــل
شهرين مجمــــــــــوعين أو تحرير رقبـــــة مـــؤمنـــــة تخيير[80]

وأخيرا نشير في ميـدان القراءات إلى أرجـوزة ابن غــازي[81] بعنـوان «تفصيل الـدرر في القراءات العشر»[82] وأرجـوزة «الـدرر اللـوامع في أصـل مقروء الإمام نافع»[83] من نظم علي بن بري التازي[84].

ب ـ وحدة العلوم العقلية من رياضية وتجريبية ولسانية، وفي هـذا المضمار لابد من التأكيـد على مـا حظي بـه موضوع التوقيت والحسـاب من أهميـة يفسرهـا إقبـال المغـاربـة على دينهم، وحرصهم على معرفـة مـواقيت الصلوات وغيرها، مما جعل تراثنا حافلا بهذا الموضوع، بل قـد يكثر النـاظم الواحـد من التعـامل معـه في أكثر من أرجوزة، مثل علي بن محمـد الـدادسي المتقدم الذي نسجل من أعمـالـه أرجوزة «بـدايـة الطلاب في علم وقت اليوم بالحساب»[85] وأرجوزة «العمل بالكفـة الواحـدة»[86] وأرجوزة «المعونـة»[87] وأرجوزة «اليواقيت لمبتغي معرفـة المواقيت»[88] ومثل عبـد الرحمن بن عبـد

80) ديوان اليوسي ص 241.
81) من علماء فاس المشهورين، مـات عـام 919 هـ، انظره في جـذوة الاقتبـاس ج 1 ص 320، وسلوة الأنفاس ج 2 ص 73 والنبوغ المغربي ج 1 ص 217.
82) انظرها في مجموع رقم 213 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
83) انظرها في مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
84) هو علي بن محمد بن بري التازي، ماهر في القراءات وغيرها من العلوم، مـات عـام 731 هـ، انظره في النبوغ المغربي ج 1 ص 219.
85) انظرها في مجموع رقم د 2057 من ص 56 إلى ص 66.
86 و87 و88) انظر الهوامش رقم (23 و 24 و 25).

القادر الفاسي المتقدم صاحب أرجوزة «عقد الجوهر في الربع المقنطر»[89] وأرجوزة على الحسبة[90] وأرجوزة «الغرة في الكلام على بيت الإبرة»[91] وأرجوزة في الاسطرلاب[92] نستشهد بمقدمتها حيث يقول :

حمدا لمن وسم في بديع	مخلوقه غرائب المصنوع
من باهر الحكمة والأسرار	ومن عزيز الصنع الاقتدار
تعرفا بأنه الحكيم	سبحانه إفضاله عميم
نحمده حمدا يوافي نعمه	كثرا وإلزاما على ما علمه[93]

أما العلوم التجريبية فلم تخل هي الأخرى من رواد يوسعون لها في أراجيزهم أمثال عبد الرحمن بن محمد العربي[94] الذي نظم أرجوزة في علم الطب[95] تطرق فيها إلى علاج بعض الأمراض كوجع الرأس والعينين والأسنان، وغيرها، على غرار قوله في علاج الأسنان :

---

89) انظر الهامش رقم 35.

90) انظر الهامش رقم 36.

91) انظرها في مجموع رقم د 2003 من ص 276 إلى ص 278.

92) انظرها في مجموع رقم د 2237 من ص 1 إلى ص 23، وآخر رقم د 2128 من ص 20 إلى ص 25، وثالث رقم د 2187 من ص 132 إلى ص 139.

93) المصادر السابقة بالترتيب ص 1 ـ 20 ـ 132.

94) عرف به ناسخ الأرجوزة بقوله : قال الشيخ الفقير الطبيب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد العربي رحمه الله تعالى ورضي عنه (مجموع رقم د 2057 ص 156).

95) انظرها في مجموع رقم د 2057 من ص 156 إلى ص 175.

ومن خـــواص حجر العقيـــق   تنقيـة الأسنـــان يـــا صـــديقي
وتمنـــع الحفر وسيـــلان الـــــدم   إذا بـــه يستـــاك كل يـــوم
ومضمض الأسنـــان من وجعهـــا   بعـاقر القرحـاء بعـد طبخهـا[96]

وأما العلوم اللسانية فتتمثل فيما عني بـه الرجـاز المغـاربـة من قضـايـا نحوية ولغويـة متعـددة يكفينـا للاستـدلال عليهـا أن نشير إلى أرجوزة في المبنيات[97] لمحمد بن محمد الفلالي[98] جاء فيها :

يـــا ســائــلا عن البنـــا وسببـــه   ومـــا بني وأصلـــه وشكلتـــه
أذكر مـــا طلبت بـــالبيـــان   بعـون من خلقنـــا الرحمـــان
فـالبنـا مـا جيء بـه يـا سـائلي   لا لبيـــان مقتضى العـــوامـــل
وليس اتبـــاعـــا ولا نقـــلا ولا   تخلصـــا من ســـاكنين قـــل ولا
حكايـــة من شبـــه الإعراب   صح من التسهيـل بـالصـواب[99]

وإلى أخرى حول اللامات المختلفة[100] لمحمد بن علي[101] جاء فيها :

---

96) نفس المصدر السابق ص 158.
97) انظرها مشروحة في مجموع رقم د 2280 من ص 385 إلى ص 420.
98) عـالم متضلع في النحو واللغـة والعروض، انظره في مقـدمـة الشرح على أرجـوزتـه في مجـموع رقم د 2280 ص 385.
99) نفس المصدر السابق والصفحة.
100) انظرها في مجموع رقم 361 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
101) نعته جامع المجموع السابق بالفقيه العالم.

والقصـــد بـــالمعنى لمن تـــأمـــلا　　وفهم المعنى ورام الأفضـــــــــلا
الحصر لـــــلام على التفصيـــــل　　لأي معنى في التنزيـــــــــل
في أربعين حصرهـــــا للمقتفي　　وربمـا تـــداخلت في الأعرف[102]

وإلى ثـالثـة لا يخلو موضوعهـا من أهميـة علميـة وتـاريخيـة حيث إن ناظمها ابن بري التازي المتقدم عقدهـا على مخـارج الحروف كعنصر أسـاسي من عناصر علم اللسانيات، مما يدل على تعـامل المغـاربـة مع هـذا العلم منـذ أجيال خلت، ومما جاء فيها قوله :

فـــالهـــاء والهمـــزة ثم الألف　　من آخر الحلـــق جميعـــا تعرف
والعين من وسطـــه والحــــاء　　والغين من آخره والخـــــــاء
والقاف من أقصى اللســان والحنـك　　والكاف من أسفل شيئا تدرك[103]

جـ - وحدة العلوم الإنسانية، وهذه الوحدة أيضا حظيت بالعـديـد من الأراجيز التي نظمها أصحابها في استعراض منـاقب شخصيـات مرموقـة، وتخليد أحداث تاريخية هامة، يحـدوهم في ذلـك مـا عرف بـه المغـاربـة من اهتمام بهذا المجال، وما تميزوا به من ضبـط لجزئيـاتـه ودقـائقـه. ونستطيع أن نـذكر في هـذا الميـدان الكثير من هـذه الأراجيز التي حفظت لنـا جـوانب تاريخية بارزة كالأرجوزة التي نظمها عبد الرحمن بن عبد القادر الفـاسي في التعريف بصلحاء فاس[104]، وكالأرجوزة التي نظمها محمد تقي اللـه بن مـاء

102) مجموع رقم 361.
103) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
104) انظرها في مجموع رقم ك 1264 من ص 84 إلى ص 88.

العينين[105] في استعراض مناقب والده، وسماها : «سيرة كل سار لسيرة الوارث المختار»[106]، فقد جاء فيها :

وبعد فاعلم أن من أجل ... ما يعتني به كريم الأصل
سيرة أهل الله جل وعلا ... أهل العلوم العاملين الفضلا
لذا فقد جعلت نظما مختصر ... في سيرة الشيخ المفضل الأبر
ماء العيون السيد النحرير ... العالم العلامة الشهير[107]

ولا ننسى أن نذكر بالشاعر الدلائي محمد بن عبد الرحمن[108] الذي ذكرت له المصادر أكثر من أرجوزة، لم يحتفظ التاريخ له منها إلا بمطولة عنوانها «درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان»[109]، نختار منها قوله حول الرسول ﷺ وآله :

حب الرسول آية الإيمان ... حب بنيه مهيع الأمان
وبغضهم هو النفاق الأكبر ... وحال هذا في المصير أخسر

---

105) لعله محمد الإمام بن ماء العينين - كما سماه المختار السوسي - الشاعر الكبير، من مواليد سنة 1311 هـ. انظره في المعسول ج 4 ص 284 - 294.

106) انظرها في مجموع رقم د 2227 من ص 1 إلى ص 19.

107) نفس المصدر السابق ص 1.

108) من شعراء الأسرة الدلائية، مات عام 1142 هـ، انظره في البدور الضاوية ص 508 - 515، والسلوة ج 2 ص 100 - 101، والشعر الدلائي ص 347.

109) انظرها في مجموع رقم ك 1234 من ص 9 إلى ص 26، وآخر رقم ك 1180 من ص 485 إلى ص 494، وثالث رقم د 4 213 من ص 187 إلى ص 207.

والنـــاس في الخيرات لن يــزالــوا	مـــــــــــا دام فيهم للنبي آل
يعـــــاملـــونهم بـــــالاحترام	والبر والإعـــــــــزاز والإكرام
والجـــــاه والتعظيم في النفـــوس	كأنهم تـــــاج على الرؤوس[110]

كما لا ننسى التـذكير بـالنسـابـة الشهير عبـد السـلام بن الطيب القادري[111] الذي ـ هو الآخر ـ صدرت عنه أراجيز متعددة معظمها في الأنساب، نكتفي بالاستشهاد بواحدة منها نظمها في مناقب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي[112] وسماها : «فريدة الدر الصفي في وصف الجمال اليوسفي»[113] حيث جاء فيها :

القـــول في ذكر الإمـــــام الأشهر	أبي المحـــــــاسن الـــــولي الأكبر
هـــو الإمـــــام الغـــالم النظـــام	بحر العلـــوم الفـــائض الـــزخـــار
ذو الهمـــة السنيـــة القـــديســـه	والسمـــة العلـــويـــة العريســـه
ممكن محقــــــــق قــــــــوي	مكمـــل عرفـــانـــــه جلي[114]

☆ ☆ ☆

110) نفس المصادر السابقة بالترتيب ص 10 ـ 486 ـ 189.

111) مات عام 1110 هـ، انظره في التقاط الدرر ص 71 ـ 73، والمنزع اللطيف ص 309، ومجموع رقم د 1180 ص 481، والشعر الدلائي في صفحات متفرقة.

112) انظره في الهامش رقم 57.

113) انظرها في مجموع رقم ك 1234 من ص 27 إلى ص 42.

114) نفس المصدر السابق ص 27.

وإذا عدنا بعد هذا إلى النظر فيما تتميز به الأراجيز المغربيـة من سمات وخصائص، أمكننا أن ننتهي إلى المواصفات الآتية :

1) تكاد تكون الهندسة البنـائيـة التي تقوم عليهـا الأرجوزة المغربيـة متماثلة متشابهة، وهي هندسة تتشكل من مقدمة وعرض وخاتمة.

أما المقدمة، فغالبا ما تبدأ بالحمدلة والشكر لله تعالى مع التصليـة على رسوله الكريم ﷺ، فقد استهل الجوطي أرجوزته في التوحيد[115] بقوله :

الحمـــد للـــه الـــذي دل عليـــه	إيجـــادنـــا ثم افتقـــارنـــا إليـــه
الأول الفرد بـــلا بـــدايـــــه	الآخر البـــاقي بـلا نهـــايـــه
أحمـــده شكرا مـــدى الأزمـــان	على الهـــدايـــة إلى الإيمـــان
ثم الصـــلاة والســـلام سرمـــدا	على النبي المصطفى محمـــــــدا
وآلـــــه الغرّ الكرام الشرفــــا	وصحبـه أهـل التقى والخلفـا[116]

واستهل ابن بري التازي أرجوزته[117] بقوله :

الحمـــد للـــه الـــذي أورثنـــا	كتـــابـــه وعلمـــه علمنـــا
حمـــدا يـــدوم بـــدوام الأبـــد	ثم صـــلاتـــه على محمـــد[118]

---

115) انظر الهامش رقم 64.

116) مجموع رقم 608 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

117) وعنوانها : الدرر اللوامع.

118) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

كما استهل الشوردي أرجوزته[119] بقوله :

الحمـــد للـــه الـــذي قـــد أظهرا   عصـــابـــة الـــدين على من كفرا
ونصر الإســـلام والحـــق بـــــدا   وضـل من دين الصليب عبـــدا
ثم صـــلاة ربنـــا لـــلأبـــد   على النبي المجتبى محمـــد
وآلـــه وصحبـــه ومن غـــدا   لنصر دين الهـــاشمي مجتهـــدا[120]

وقد يتصدر هذه الحمدلة أحيانا إسم النـاظم، كما نقرأ في مطلع أرجوزة «المرشد المعين»[121] لعبد الواحد بن عاشر[122] :

يقـول عبـد الـواحـد بن عـاشر   مبتـدئـا بـاسم الإلـه القـادر
الحمـــد للـــه الـــذي علمنـــا   من العلـوم مـــا بـــه كلفنـــا
ثم الصـــلاة والســـلام أبـــدا   على محمـد ومن بـه اهتـدى[123]

وكما نقرأ أيضا في مطلع أرجوزة ابن أحمد التطواني[124] :

---

119) وعنوانها ورد الشهي الطائش.
120) تاريخ تطوان ج 2 ص 13.
121) انظرها في مجموع رقم 140 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
122) من علماء المغرب المشهورين، مات عام 1040، انظره في التقـاط الـدرر ص 91 والصفوة ص 59، والنبوغ المغربي ج 1 ص 258.
123) مجموع رقم 140 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
124) وعنوانها : رياض زهر المعتبر.

يقــول نجــل أحمـــــد التطـــواني   منزهـــا لخـــالـــق الأكـــوان[125]

وكذلك في أرجوزة محمد بن علي[126] حيث يقول في بدايتها :

قـــال محمـــــد فقير مـــــذنب   نجـــــــــــل علي راغب محتسب
الحمـــــد للــــــه اللطيف الأكرم   وغـــــافر الـــــذنب الحليم المنعم
ثم على عمـــــدة الكـــون فضـــلا   محمـــــد وآلــــه ذوي العـــلا[127]

وفي المقـدمـة نفسهـا نجـد النـاظم يحـدد الموضوع الـذي تـدور حـولـه الأرجوزة وهو تحديد تكاد صياغته تكون واحدة في معظم الأراجيز، حسبما يتبين لنا من خلال النماذج الآتية :

يقول ابن عاشر في أرجوزة المرشد المعين[128] :

وبعـد فـالعـون من اللــه المجيـد   في نظم أبيـــات لـلأمي تفيـــد
في عقـد الأشعري وفقـه مـالـك   وفي طريقـة الجنيـد السـالـك[129]

ويقول الجوطي في أرجوزته[130] :

---

125) مجموع رقم 462 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
126) في موضوع اللامات المختلفة.
127) مجموع رقم 361 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
128) انظر الهامش رقم (121).
129) مجموع رقم 140 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
130) في موضوع التوحيد.

وبعد فالتوحيد أشرف العلوم   فهو أساسها الذي به تقوم[131]

ويقول مولاي محمد المصطفى في أرجوزته[132] :

وبعد فالمقصود يامن أسلموا   إياكم والكافرين تسلموا[133]

ويقول ابن بري التازي في أرجوزته[134] :

فالقصد من هذا النظام المحكم   حصر مخارج حروف المعجم[135]

وبعد ذلك، وفي المقدمة نفسها، يحدد الناظم الطريقة التي سيسلكها في نظمه، أو بالأصح النمط التعبيري الذي سيتوسل به في طرح مضامينه وأفكاره، فقد حدد أحمد بن محمد الجكني[136] أسلوبه الشعري في إحدى أراجيزه[137] فقال :

في رجز مسهل مقرب   يكون نافعا لكل مكتب[138]

وحدد الجوطي هو الآخر نمطه التعبيري فقال[139] :

وقد سألت الله في تيسيري   أرجوزة مفهومة التعبير[140]

---

131) مجموع رقم 608 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
132) التي قالها في الوعظ والتحذير.
133) المعسول ج 4 ص 259.
134) في موضوع اللسانيات.
135) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
136) نعته جامع المجموع بالعالم الفقيه.
137) هي أرجوزة السراج في النظم.
138) مجموع رقم 140 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.
139) في أرجوزته واسطة السلوك.
140) مجموع رقم 608 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

وهو المسلك نفسه الذي نقف عليه في آرجوزة الشوردي[141] حيث يقول :

فخذ حديث فتحها تذكره ولا تبال بالذي ينكره
في رجز جمعته مفصلا منظما مرتبا مؤصلا[142]

وأخيرا يحدد الناظم العنوان الذي ارتضاه لهذا النمط التعبيري، وغالبا ما يكون هذا التحديد مصحوبا بلفظة «سميت» التي تكاد تكون قاسما مشتركا بين معظم الرجاز، فهذا ابن بري التازي يقول :

سميته بالدرر اللوامع في أصل مقروء الإمام نافع[143]

وهذا الدادسي يقول :

سميته لذاك باليواقيت في المبتغى من صنعة المواقيت[144]

وهذا ابن أحمد التطواني يقول :

سميته رياض زهر المعتبر في مبدعات قادر لمختبر[145]

وهذا محمد بن عبد الرحمن الدلائي يقول :

سميته بدرة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان[146]

---

141) حول فتح العرائش.

142) تاريخ تطوان ج 2 ص 13.

143) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

144) مجموع رقم د 2057 ص 67.

145) مجموع رقم 462 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

146) مجموع رقم د 1234 ص 9.

ونادرا ما تكون هذه التسمية في خاتمة الأرجوزة، كما نجد في أرجوزة المرشد المعين التي جاء في خاتمتها :

ذا القدر نظما لا يفي بالغايه	وفي الذي ذكرته كفايه
أبياته أربعة عشر تصل	مع ثلاثمائة عدد الرسل
سميتها بالمرشد المعين	على الضروري من علوم الدين[147]

أما العرض فلا يميزه شيء يذكر سوى أنه مرحلة تتسع لكافة المضامين التي يريد الراجز أن يطرحها، سواء كان ذلك بشيء من التركيز أو الاختصار أحيانا، أو كان بغير قليل من التوسع والإطناب، ولعلنا نكتفي بإدراج واحد من هذه المضامين، مأخوذا من أرجوزة ابن بري في مخارج الحروف حيث يفصل القول في نوعية هذه المخارج، مع ما يتعلق بها من صفات، يقول :

فالهاء والهمزة ثم الألف	من آخر الحلق جميعا تعرف
والعين من وسطه والحاء	والغين من آخره والخاء
والقاف من أقصى اللسان والحنك	والكاف من أسفل شيئا تدرك
والجيم والياء كذا والسين	منه ومن وسطه تكون
والضاد من حافته وما يلي	ذلك من أضراسها من أول
واللام من طرفه والراء	والنون هكذا حكى الفراء

147) مجموع رقم 140 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

والحـق أن الـلام قـد تنــاهى — لـه من الحـافـة من أدنـاهـا
والراء أدخـل إلى ظهر اللســـان — من مخرج النـون فـدونـك البيـان
والظـاء والتـاء وحرف الـدال — أعني بهـا المهملـة الأشكال
من طرف اللسـان مـع أصـول — عليـا الثنـايـا فـزت بـالـوصـول
ومنـــه يخرج ومن أطرافهـا — مـا امتـاز بـالإعجـام عن خـلافهـا
والصـــاد ثم الـــزاي ثم السين — منـــــه ومن بينهما تبيين
والفـاء من بـاطن سفلى الشفتين — وطرف العليـــا من الثنيتين
والميم من بينهما والبـــــاء — والـواو لكن مـا بهـا التقـاء
ثم لهـــذي الأحرف المـــذكـوره — صفـاتهـا المعلـومـة المشهـوره
فـالهمس في عشرة منهـا أتى — هجـاء «جث شخصـه» فسكتـا
وفي سـواهـا الجهر والشـدة في — «أجـدت قطبـك» ثمـان أحرف
ومـا عـداهـا رخـوة لكنـا — يقـل في هجـاء «لم يرعـونـا».
والانسبـال في سـوء هجــاء — «قط خص منغـط» ذات الاستعلاء
وأحرف الأطبـاق من ذي الطـاء — والصـاد ثم الضـاد ثم الظـاء
وغيرهـا منفتــح ثم الصفير — في الصـاد والسين وفي الـزاي الجهير
والمتفشي الشين والفـــاء وقيـل — يكون في الضاد ويـدعى المستطيل
والـلام مـالت نحـو بعض الأحرف — فسميت لــذاك بــالمنحرف
والراء في النطـق بهـا تكرير — وهـو إذا شـــددتـه كثير
والغنــة الصـوت التي في الميم — والنـون يخرج من الخيشـوم
فهـذه الصفـة بـاختصـار — تفيـد في الإدغـام والإظهـار[148]

---

148) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

وأما الخاتمة فتتميز غالبا بالدعاء والتصلية، وهو دعاء لا يفوت الراجز أن يتوسل إلى الله في تحقيقه بالرسول ﷺ، متخذا هذا التوسل مطية للصلاة مجددا على المصطفى ﷺ وآله وصحابته الكرام، ومن نماذج ذلك خاتمة الجكني في إحدى أراجيزه حيث يقول :

والله أسأل به أن ينفعا	وأن يعين من دعا ومن وعى
بجاه أحمد النبي الهادي	صلى عليه خالق العباد
وآله وصحبه الأعلام	ما عوقب الضياء بالظلام[149]

وكذلك خاتمة الخراز[150] في أرجوزة «مورد الظمآن في رسم القرآن» إذ يقول :

ويا إلهي عظمت ذنوبي	وليس لي غيرك من طبيب
فامنن علي سيدي بتوبه	عسى الذي جنيته من حوبه
يذهب عني وإليك رغبتي	في الصفح في مقترفي وزلتي
بجاه سيد الورى المؤمل	محمد ذي الشرف المؤثل
صلى الإله ربنا عليه	ما حن شوقا دنف إليه[151]

---

149) نفس المصدر السابق.

150) هو محمد بن إبراهيم الأموي الشريشي مات عام 818 هـ، انظره في النبوغ المغربي ج 1 ص 219.

151) مجموع رقم 364 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

2) ومن خصائص الأراجيز المغربية أيضا، وضع عناوين داخلية تنبئ عن المضامين التي سيطرحها الراجز في أرجوزته، وهي عناوين غالبا ما تتخذ شكل أبيات موزونة كذلك، حفاظا من الناظم على استمرار النغم الموسيقي الذي يحدثه هذا الوزن، والذي يحاول الناظم ألا يقطعه إلا في حالات قليلة، ومن نماذج ذلك قول محمد بن علي في أرجوزته حول اللاّمات :

- القول في اللام التي في الابتدا   تثبت في الصدر هديت أبدا
- القول في اللام التي للنهي   لطالب الترك أتت في الرأي[152]

ومنه قول ابن بري في أرجوزة الدرر اللوامع :

- القول في أحكام نقل الحركه   وذكر من قال به وتركه
- القول في الإظهار والإدغام   وما يليها من الأحكام[153]

ومنه أيضا قول الشريشي في أرجوزة مورد الظمآن :

- القول فيما سلبوه الياء   بكسرة من قبلها اكتفاء
- وهاك حكم الهمز في المرسوم   وضبطه بالسائر المعلوم[154]

---

152) مجموع رقم 361 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

153) مجموع رقم 346 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

154) مجموع رقم 364 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

3) تتميز معظم الأراجيز بخاصية الطول التي تـدل على ملكـة النـاظم من جهة، وعلى تمكنه من الموضوع الذي يتناولـه بـاستقصـاء يتتبع فيـه كل تفـاصيلـه ودقـائقـه، ويكفي أن نشير إلى أرجـوزة «مفتـاح السعـادة»[155] وأرجوزة «نتائج الأفكار»[156]، وكلاهما لأحمـد بن القـاسم الهروي الصومعي، حيث تنيف كل منهما على الألف بيت، وإلى أرجــوزة «التقـــاط اللــؤلــؤ والمرجان في تحريم الدخان»[157] لأحمد بن محمد الهشتوكي[158] التي تصل ألفـا وخمسمائــة بيت، وإلى أرجـوزة «مـورد الظمآن» التي تتجــاوز ستمائــة بيت، وأرجوزة «الدرر اللوامع» التي تقارب الثلاثمائة بيت، بل إننا نجد من الرجاز المغاربة من يعقد أرجوزته على رقم معين يرمز بـه إلى حـدث أو ظـاهرة أو ما أشبه، كمحمد بن عبد الرحمن الدلائي الذي جعل عـدد أبيـات أرجوزتـه درة التيجان على عدد أهل بدر، وبـذلـك تجـاوزت هي الأخرى الثلاثمـائـة بيت، يقول :

هـــذا تمـــام درة التيجـــــان ولقطـــة اللــؤلــؤ والمرجـــــان

أبيـــاتهـــا عـــدد أهــل بـــدر فيــالهــا من طــالــع كالبــدر[159]

وهو المسلك نفسه الذي انتهجه صاحب المرشد المعين حيث جعل عدد أبياتها حسب عدد الرسل.

---

155 و 156) ذكرهما صاحب نشر المثاني ج 1 ص 115.

157) ذكرها صاحب الدرر المرصعة ص 31.

158) من علماء سوس البارزين، انظره في الدرر المرصعة ص 31.

159) مجموع رقم ك 1234 ص 26 وآخر رقم 5 1180 ص 494 وثالث رقم د 2134 ص 206.

4) تكاد تكون الأراجيز المغربية، أو معظمها على الأصح، ذات لغة سليمة في بنيتها، إلا أنها لغة خالية من الجمال الفني، بعيدة عن أن تكون لغة مشحونة ذات أبعاد يستلهمها القارئ من بين العبارات والأبيات، ولعل مرد ذلك إلى أن الموضوعات التي توسلت بهذه الأراجيز، هي موضوعات علمية في معظمها، اعتمد فيها أسلوب الرجز لترسيخ العلوم وتيسير حفظها واستحضارها، ومن ثم كانت وسيلة للتعلم وليست تعبيرا عن تجربة ما أو معاناة معينة.

وتكاد تكون هذه الأراجيز، من جهة أخرى سائرة على نمط واحد في مجال التقفية، إذ نلاحظ أنها تحافظ على نفس القافية في شطري البيت الواحد فقط، وقلما تحافظ على نفس القافية في الأشطار كلها، إلا في حالات نادرة قد تعزى إلى إظهار الناظم مدى تملكه لناصية اللغة، وقدرته على تطويعها بسهولة ويسر، كما نجد عند الشاعر محمد بن محمد العلمي[160] في الأرجوزة التي نظمها تحت عنوان : رحلة الوحدة والنماء[161] في تمجيد رحلة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره إلى الأقاليم المسترجعة بصحرائنا الحبيبة، فقد التزم نفس القافية في الأشطار جميعها على غرار قوله :

تلك العيون أصبحت للرائي	تطفح بالعشق والاحتفاء
ومجلس النواب باعتناء	عقد فيها دروة استثناء

160) شاعر معاصر، لم يظهر له ديوان، وإنما ينشر أشعاره في بعض المجلات وابرزها مجلة دعوة الحق.

161) انظرها في مجلة دعوة الحق، عدد 252، ذي الحجة 1405 هـ، شتنبر 1985م من ص 117 إلى ص 119.

وذاك معنى الحـــــذق والـــــذكاء في الـوحـدة الـوطيـدة الإرسـاء
فشعبنـــــا في أجمـــع الأنحـــــاء ملتحم الـوجـدان والإنشـــاء[162]

5) تتميز الأراجيز المغربيـة، علاوة على كل مـا تقـدم، بكونهـا حولت الاتجاه الذي انتهجته الأراجيز العربية القـديمـة، واتخـذت لهـا اتجـاهـا متميزا جديدا.

فإذا كانت هذه الأراجيز العربية القـديمـة ينطلق معظمهـا من مفهوم تعليمي يقصد إلى ضبط شوارد اللغة وتداول غريبهـا كما هو واضح في أراجيز العجـاج وأضرابـه، فـإن الأراجيز المغربيـــة، وإن كانت قــد حـــافظت هي الأخرى على المفهوم التعليمي، إلا أنها صرفتـه عن الميـدان اللغوي إلى ميـدان غيره، يتجلى في ضبط المعارف العلمية المتنوعة، وتخليد الأحداث التـاريخيـة الهامة علمـا من أصحـابهـا بـأن تمثل هـذه المعـارف والأحـداث يكون أسهل وأقرب بالنظم منـه إلى النثر، ومن هنـا كانت غلبـة الموضوعـات العلميـة في الأراجيز المغربية على الموضوعات الذاتية من غزل أو مدح أو طبيعـة أو مـا إليها.

ولعلهم في ذلك جاروا بعض الأندلسيين الـذين انتهجوا نهج الأرجوزة في إبداعهم الأدبي[163]، ولكنهم تقيدوا فيه بالمجالات المعرفيـة والتـاريخيـة في

---

162) نفس المصدر السـابق ص 118.

163) أقصد بالأرجوزة هنا ما اتحدت فيها القافية إما على مستوى شطري البيت الواحد، أو على مـستوى الاشطـار جميعهـا، وإلا فقصـائـد كثيرة نظمهـا الأنـدلـسيون والتزموا فيهـا وحـدة القافية في الأعجاز فحسب، ومع ذلك سموها أراجيز كما يدل على ذلك كتـاب نفح الطيب مثلا، ولعل هـذا مـا دفع صـاحـب الـوافي بـالأدب العربي في المغرب الأقصى إلى أن يسمي قصيدة غزلية لعلي الملزوزي بالأرجوزة (انظر الهامش رقم 41).

الغالب الأعم. وقد نستطيع التأكيد على ذلك بالأرجوزة التي نظمها ابن عبد ربه الأندلسي[164] في وصف معارك الناصر[165] والتغني بانتصاراته وبطولاته[166] والتي رتبها على حسب السنين كقوله في واحدة منها وقعت سنة 303 هـ[167] :

ثمت أغزى في الثلاث عمه — وقد كساه عزمه وجزمه
فسار في جيش شديد الباس — وقائد الجيش أبو العباس
حتى ترقى ببذري يشتر — وجال في ساحاتها بالعسكر
فلم يدع زرعا ولا ثمارا — لهم ولا علقا ولا عقارا
وقطع الكروم منها والشجر — ولم يبايع علجها ولا ظهر[168]

كما نؤكده بالأرجوزة التي نظمها الشاعر نفسه في موضوع العروض[169] والتي نقتطف منها بعض ما جاء فيها في باب الأسباب والأوتاد :

فالسبب الخفيف إذ يعهد — محرك وساكن لا يعدو
والسبب الثقيل في التبيين — حرفان غير ذي تنوين

---

164) من أبرز شعراء الأندلس وكتابها، مات عام 328 هـ انظره في مقدمة ديوانه ص 3 ـ 11.

165) هو عبد الرحمن الناصر، حفيد عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس، انظره في نفح الطيب، ج 1 ص 353 ـ 356.

166) انظرها في ديوان ابن عبد ربه من ص 181 إلى ص 210.

167) كانت معركة واجه فيها عمه وانتصر عليه.

168) ديوان ابن عبد ربه ص 192.

169) انظرها في نفس المصدر السابق من ص 213 إلى ص 226.

والـــوتــــــد المفروق والمجمـــوع كـــلاهمــــــا في حشـــوه ممنـــوع
وإنمــــــا اعتــــل من الأجـــزاء في الفضـل والغـائي والابتـداء[170]

6) ولعلنـا نستطيـع أن نتبين خـاصيــة أخرى من خصــائص هــذه الأراجيز المغربيـة، تلـك التي تتمثل في ولع المغـاربـة بهـذا اللون من التعبير، وهو ولع يبرز للباحث من زوايا متعددة يمكن أن نذكر منها :

أ) انصراف بعض الشعراء أو العلمـاء إلى أسلـوب الأرجـوزة منـذ سن مبكرة، مما يدل على خصوبة هـذا الميـدان من القول أولا، كما يـدل على أنـه كان مادة أساسية من مواد الدراسـة والتلقين، الشيء الـذي يتيح للمتلقن أن يتمرس بهـذا الأسلوب قراءة وحفظـا في مرحلـة أولى، ثم إبـداعـا وإنشـاء في مرحلة ثانيـة، وقـد نستـدل على هـذا الولع المبكر ببيت للجـادري[171] من أرجوزتـه المسماة : روضـة الأزهـار[172] حيث يـؤكـد أنـه نظمهـا وهـو ابن الثامنة عشرة من عمره، يقول :

وإن أك أخطئ أو أقصر فـابن ثمـان عشرة قـد يعـذر[173]

ب) توسل الراجز الواحـد بـأسلـوب الأرجـوزة في أكثر من ميـدان، وهـو تـوسـل يجعلنـا نقف على محـاولات متعـددة صـدرت عن راجـز معين

170) نفس المصدر السابق ص 205.
171) أبو زيد عبد الرحمان الجادري المديوني، مات عام 818 هـ، انظره في فهرس الفهارس والإثبات ص 216، والجذوة ج 2 ص 404.
172) انظرها في مجموع رقم د 2046 من ص 97 إلى ص 130.
173) نفس المصدر السابق ص 130.

يعالج فيها موضوعات قد تكون متقاربة، إلا أنها على كل حال ليست واحدة.

فهذا أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتقدم يتوسل بالأرجوزة في موضوع التوقيت[174] والفلك[175] والجداول والأوفاق[176] والفقه[177] والوعظ[178] وغير ذلك، وهذا محمد العربي الفاسي المتقدم كذلك يتوسل بأسلوب الرجز في أكثر من موضوع كالتوحيد[179] والفقه[180] والحديث[181] والجداول[182] وما إليها.

ومن هنا يبدو لو أن هذه الأعمال جمعت لمبدعيها لكونت دواوين مستقلة وضافية في هذا الباب.

---

174) منها أرجوزة عقد الجوهر في الربع المقنطر (انظر الهامش رقم 35) ومنها أرجوزة في ربع الجيوب (انظرها في مجاميع متعددة منها مجموع رقم د 2046 من ص 74 إلى ص 76 وآخر رقم د 2023 من ص 504 إلى ص 506).

175) أرجوزة المدخل إلى علم النجوم (انظرها في مجموع رقم د 2000 من ص 58 إلى ص 64).

176) أرجوزة تبيين معنى المجمل في علوم الجدول (انظرها في مجموع رقم د 2000 من ص 173 إلى ص 183).

177) كأرجوزته في علم الحسبة (انظر الهامش رقم 36).

178) كأرجوزته في مزية العلم (انظرها في مجموع رقم د 87 21 ص 177).

179) كأرجوزته مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد (انظرها في مجموع رقم د 1645 من الورقة 95 إلى الورقة 116، ومجموع آخر رقم د 2173 من ص 275 إلى ص 347).

180) كأرجوزته في الذكاة (انظر الهامش رقم 21).

181) كأرجوزته الطرفة في ألقاب الحديث (انظرها في مجموع رقم د 2149 من ص 290 إلى ص 292).

182) كأرجوزته سلك درر ملتقط في الخمس الخالي الوسط (انظرها مشروحة في مجموع رقم د 2167 من ص 396 إلى ص 448).

جـ) يبدو أن هذه الأراجيز، وخاصة العلمية منها، قد حظيت باهتمام كبير من لدن المثقفين والعلماء المغاربة، ومن ثم راحوا يتتبعونها شرحا أو تذييلا أو اختصارا، فقد تقدم أن الشاعر المرغيثي قد اختصر أرجوزة ابن مقرع فيما سماه المقنع، كما نجد أبا فارس الرسموكي يذيل أرجوزة في الحساب لإبراهيم الزنتلي، وهو الذيل الذي نجد ذيلا آخر عليه من نظم أحمد بن سليمان الفرضي[183].

أما الشروح فإنها تنقسم إلى قسمين اثنين :

أ - الشروح التي يضعها الرجاز أنفسهم، وكأنهم أدركوا صعوبة ما نظموه، فراحوا يوسعون القول فيه شرحا وتوضيحا، ومن هذا الصنف نذكر قاسما بن أحمد التليدي الأخماسي الذي نظم أرجوزة في آداب النكاح وما يتعلق به مما يتجنب أو يباح ثم وضع عليها شرحا سماه : الجواهر المنظومة في شرح المنظومة[184]، ونذكر كذلك عبد الله الصنهاجي صاحب الأرجوزة في الفقه مع شرحها[185] وأبا سالم العياشي المتقدم صاحب أرجوزة في نظم بيوع ابن جماعة مع شرح عليها بعنوان : إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب[186]، وغير هؤلاء كثير.

---

183) انظر سوس العالمة ص 50.

184) انظرها مشروحة في مجموع رقم د 2008 من ص 53 إلى ص 127، ومجموع آخر رقم د 2419 من ص 126 إلى ص 211.

185) انظرها في مجموع رقم 570 غير مرقم الأوراق ولا الصفحات.

186) انظرها مشروحة في مجموع رقم د 1957.

ب - الشروح التي وضعها علماء آخرون على أراجيز غيرهم، وهذه أيضا تتسم بالكثرة والتقصي في آن واحد، ونكتفي بالإشارة إلى الشرح الذي وضعه محمد بن عبد السلام بناني على أرجوزة في الاسطرلاب[187] لعبد الرحمن الفاسي، والشرح الذي وضعه أحمد بن عبد القادر الفاسي على أرجوزة درة التيجان لمحمد بن عبد الرحمن الدلائي[188] والشرح الذي صنفه عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الزياتي حول أرجوزة الذكاة لمحمد العربي الفاسي[189].

وعموما تبقى الأراجيز المغربية حقلا خصبا يحتاج إلى اقتحامه وتنقية تربته مما علق بها من رواسب الإهمال والتلف، ومحاولة إخراجها من مظانها المختلفة، عسى أن ترى النور من جديد، فتكون بذلك منبعا ثرا من منابع ثقافتنا، ومصدرا شافيا من مصادر حضارتنا ومقوماتنا، كما يبقى هذا البحث الموجز مجرد إشارات خاطفة لعلها تدفع ببعض الأقلام إلى مزيد من التوسع والتفصيل.

الرباط **عبد الجواد السقاط**

187) انظر الشرح في مجموع رقم د 2237 من ص 1 إلى ص 23.
188) انظر الشرح في مخطوط رقم ك 1432.
189) انظر الشرح في مجموع رقم د 2170 من ص 1 إلى ص 129

المصادر والمراجع

- الأخضر - محمد

الحيـاة الأدبيـة في المغرب على عهـد الـدولـة العلويـة - دار الرشـاد الحـديثـة، الـدار البيضاء 1977م -

- البغدادي - أبو بكر أحمد بن علي الخطيب.

تاريخ بغداد مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1349 هـ 1931م.

- ابن تاويت - محمد

الـوافي بـالأدب العربي في المغرب الأقصى دار الثقـافـة - الـدار البيضـاء 1402 هـ - 1982م.

- التعارجي - عباس بن إبراهيم

الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام تحقيق الأستاذ عبدالوهـاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط 1403 هـ - 1983م.

- جامع مجهول :

- مجموع رقم د 850 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2230 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2003 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1859 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2215 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1861 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2300 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2000 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2218 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1929 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2134 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1180 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2425 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

- مجموع رقم د 2023 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2008 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2187 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1264 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2057 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2280 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2227 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2214 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2237 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2013 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2210 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2170 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2419 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2046 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2149 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2015 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2167 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2236 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 3640 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2233 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2134 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2173 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 2128 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم د 1645 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم ك 1234 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم ك 1180 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- مجموع رقم ك 213 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 478 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 355 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.

- مجموع رقم ك 497 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 608 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 346 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 140 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 462 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 361 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 359 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 356 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 345 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 371 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 358 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 26 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.
- مجموع رقم ك 570 مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش.

- الجراري - عباس

الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الرباط 1399 هـ - 1979م.

عبقرية اليوسي، دار الثقافة - الدار البيضاء.

- جلاب - حسن

أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي، مرقون بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، السنة الجامعية 1977 - 1978م.

- بوجندار - محمد

الاغتباط بتراجم أعلام الرباط مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1287.

- كَنون - عبد الله

ذكريات مشاهير رجال المغرب مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت

النبوغ المغربي في الأدب العربي دار الكتاب اللبناني، بيروت - 1395 هـ - 1957م.

- الجوزو - مصطفى

الرجز والشعر وموقف القدماء منها، مقال بمجلة الفكر العربي - عدد 25 يناير فبراير 1982.

- حجي - محمد
الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، 1397 هـ - 1977م،
الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية بالرباط،
1984 هـ - 1964م.
- الحساني
استكمال القصد في أرجوزة ابن رشد، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 211.
- الحضيكي
الطبقات مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1123.
- الحوات - سليمان
البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.
- ابن خلكان - شمس الدين بن أبي بكر
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت.
- داوود - محمد
تاريخ تطوان، مكتبة الناصر تطوان 1959م.
- الدرقاوي - عبد الله
الطاهر الإيفراني، حياته وشعره، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا للسنة الجامعية 1984 - 1985م خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- الزركلي - خير الدين
الأعلام دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1979م.
- السقاط - عبد الجواد
الشعر الدلائي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1985.
- السوسي - محمد المختار
خلال جزولة، تطوان، المغرب.
سوس العالمة، مطبعة فضالة 1380 هـ - 1970م.
المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1380 هـ - 1960م.
- السولاسي - إبراهيم
الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء.

- الصلتان
شرح غريب المشكل، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 209.
- الصنهاجي - عبد الله
أرجوزة في الفقه مع شرحها، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 570.
- الضعيف - محمد
تاريخ الدولة السعدية (تاريخ الضعيف) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 758.
- ضيف - شوقي
العصر الجاهلي، دار المعارف، (الطبعة الثامنة).
- ابن عبد ربه أبو عمر أحمد
ديوان ابن عبد ربه، جمع وتحقيق وشرح الدكتور محمد رضوان الداية مؤسسة الرسالة بيروت 1399 هـ - 1979م.
- ابن عسكر - محمد بن علي الشفشاوني
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، المطبعة الحجرية بفاس.
- العلوي - عبد الرحمن بن زيدان
المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ج 595.
- العياشي - أبو سالم عبد الله
إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1957.
- الفاسي - عبد الرحمن بن عبد القادر
ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 326.
- الفاسي - محمد العربي
مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن، المطبعة الحجرية بفاس 1324 هـ 1906م.
- الفخار - ميمون
أرجوزة الدرة الجلية في القراءات، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 610.

- القادري ـ عبد السلام بن الطيب
الإشراف في نسب الأقطاب الأربعة الأشراف، مخطوط بالخزنة العامة بالرباط ضمن مجمو رقم 2007 من ص 1 إلى ص 9.
- الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني، المطبعة الحجرية بفاس 1309 هـ ـ 1982م.
- القادري ـ محمد بن الطيب
التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1403 هـ/1983م.
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1402 هـ ـ 1982م.
- ابن القاضي ـ أحمد بن محمد المكناسي
جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1973.
درة الحجال في أسماء غرة الرجال، نشر علوش، الرباط 1934م.
- القباج ـ محمد بن العباس
الأدب العربي في المغرب الأقصى، مطبعة فضالة المحمدية 1400 هـ ـ 1979م.
- ابن فتية ـ محمد بن عبد الله
الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1974م.
- الكتاني ـ عبد الحي
فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، المطبعة الجديدة بفاس، 1346 هـ.
- الكتاني ـ محمد بن جعفر
سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية بفاس 1316.
- اللغوي ـ أبو الطيب
مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة القاهرة.

- مجلة دعوة الحق، العدد 252 ذي الحجة 1405 هـ شتنبر 1985م.
- المحبي - محمد
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1284 هـ.
- مصباح علي
ديوان أبي الحسن علي مصباح الزرويلي، تحقيق وجمع الحسني محمدي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا عن السنة الجامعية 1984 - 1985، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.
- المقري - أحمد
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1388 هـ - 1968م.
- ابن المؤقت - محمد
السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، دار الطباعة الحديثة - البيضاء.
- الناصري - أحمد بن خالد
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م.
- الناصري - محمد المكي.
الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1103.
الرياحيين الوردية في الرحلة المراكشية، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 77 ج.
- الولالي - أحمد بن يعقوب
مباحث الأنوار في أخبار الأخيار، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 2305.
- اليفرني - محمد الصغير
صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر طبعة حجرية.
- اليوسي - الحسن بن مسعود
الديوان، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 32.
- المحاضرات، نشر الدكتور محمد حجي مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 هـ - 1976.
ع.ج.س

المستشرق وليام رايت (W. WRIGHT) ومجهوده العلمي في تحقيق رحلة ابن جبير

محمد عبد العزيز الدباغ

من الظـواهر الأدبيـة ببـلاد المغرب والأنـدلس كتب الرحـلات التي تعددت أغراضها وتنوعت أسبابها حتى صـارت سجلا ضروريـا للتعرف على أحوال هاته البلاد وعلى اهتمامات سكانها.

ولقـد كان الحج إلى بيت اللـه الحرام حـافـزاً دينيـا يـدفـع كثيرا من المثقفين إلى الربط بين الرحلة الدينية والرحلة العلمية فكانت رحلات هؤلاء من أقوى الأواصر التي ألفت بين المسلمين وعرفت بعضهم بالبعض وسـاعـدت على إذكاء الروح الفكريـة فكانـوا يقـدمـون للمتعطشين إلى المعرفـة مـا يحتـاجون إليـه من أحوال المغرب والمشرق وصـاروا بسبب ذلـك مصـدرين ومستوردين في آن واحد.

ومن المعلوم أن رحلاتهم هاته كانت من أهم المصـادر التي يعتمـد عليهـا في الـدراسـات التـاريخيـة والجغرافيـة من جهـة وفي الـدراسـات الأدبيـة

والاجتماعية من جهة أخرى ولهذا السبب توجهت عناية كثير من الباحثين إلى دراسة مضامين هاته الرحلات وإلى العمل على إخراجها ليستفيد منها المعاصرون وليوازنوا بينها وبين واقع الحياة التي يحيونها.

ولقد توجهت عناية المستشرقين في القرن الماضي إلى دراسة أحوال المسلمين وإلى الاطلاع على إنتاجاتهم الفكرية خدمة للعلم عند طائفة منهم وخدمة لأغراض سياسية عند طائفة أخرى كانت ترى أن الاطلاع على التراث الإسلامي والعربي يعين على التعرف على المسلمين ويمهد السبيل لاحتلال أراضيهم وللاستيلاء على ممالكهم.

وسواء كانت المقاصد علمية أو سياسية فإن البحث العلمي قد استفاد من مناهج هؤلاء المستشرقين وأعان علىالتعرف على كثير من خبايا الخزائن الأوروبية التي كانت تحتوي على عدد من المخطوطات العربية المفيدة.

فمن بين المخطوطات التي كانت بمكتبة جامعة ليدن في القرن الماضي نسخة من رحلة ابن جبير[1] اطلع عليها المستشرق الإنجليزي وليام رايت[2] فوجدها جديرة بالنشر نظراً لما فيها من الفوائد الجمة والمعلومات الدقيقة ووصفها حين الطبع فذكر أنها تحتوي على مائتين وعشر من الورقات وانها قد كتبت في مكة سنة 875 هـ بخط رجل يدعى عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المومن القرشي وأنها نقلت من نسخة بخط مغربي أصيل

---

1) هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي الأصل الغرناطي الإقامة توفي بالأسكندرية سنة أربع عشرة وستمائة.

2) ولد في الهند عام 1830 وتوفي بكمبردج عام 1889 كان له اهتمام باللغة العربية وقد استفاد كثيرا من المستشرق الهولاندي دوزي أثناء تدريسه بكلية ليدن.

وأشار إلى أنها تحمل عنوان كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك.

وعقب على ذلك بقوله... وأنا أظن أن هذا العنوان لم يكن من وضع المؤلف وإنما هو ناتج عن خيال مجهول ودليلي على ذلك أن المؤلف حين شرع في رحلته ذكر أنها تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار بحيث يعتبر هذا التقديم إسما لها زيادة على أنها لا تعرف عند الكثير إلا برحلة ابن جبير...

ولم يقتصر رَايت على الاعتماد على هذه النسخة بل أشار إلى نسخة مبتورة توجد بمكتبة الأسكوريال وحاول عند التحقيق أن يستفيد إلى أبعد الحدود من كل إمكاناته العلمية والمادية.

وأشار عند الطبع إلى أن هذه النسخة المحققة إنما تمثل الرحلة الأُولى التي بداها ابن جبير مع صديقه الطبيب أحمد بن حسان القضاعي[3] في شوال سنة 578 هـ والتي استمرت إلى أواخر محرم من عام 581 هـ ولقد زار فيها مصر والشام والعراق والسودان ومر فيها على صقيلة فوصفها وصفا رائعا ما زال يعتبر من الأوصاف الدقيقة المعتمد عليها إلى الآن.[4]

---

3) هو أحمد بن الحسن بن حسان القضاعي العالم الأندلسي الشهير كانت له مهارة في علم الطب والهندسة والحساب والموسيقى ألف كتاب الجمل والتفصيل في تدبير الصحة وأهداه للسلطان يعقوب المنصور توفي عام 598 بمدينة فاس وقيل أنه توفي بمدينة مراكش في السنة التي بعدها.

4) حقق المستشرق الإيطالي ميخائيل اماري (M.Amari) المتوفى عام 1899 الجزء الخاص بصقلية وترجمه ونشره في المجلة الأسيوية المجموعة الرابعة المجلد 6 ـ 7 وعلق على ترجمته الشيخ طبطاوي وقد اشتهر هذا المستشرق بدراسة حول تاريخ المسلمين في صقلية.

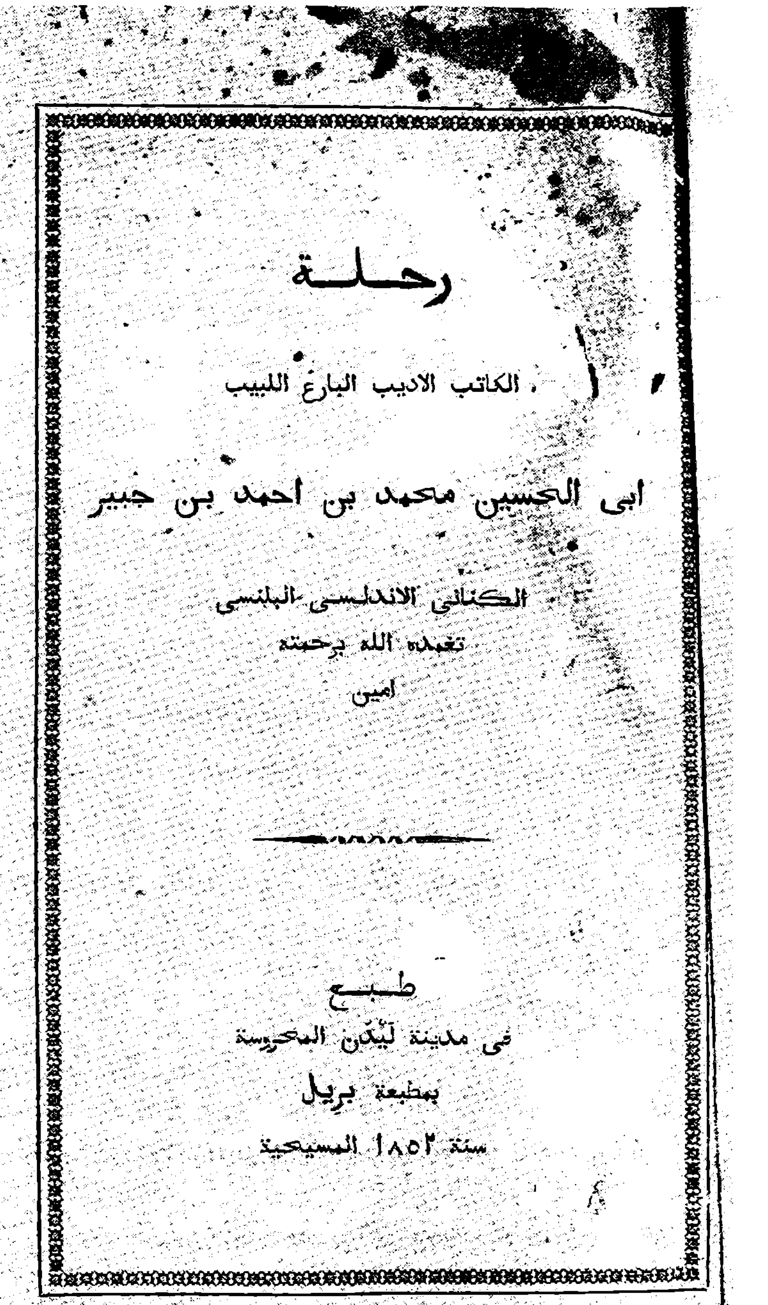
وللرحالة هذا رحلة أخرى توجه فيها لزيارة بيت المقدس بعد أن بلغه أنه قد حرر على يد صلاح الدين الأيوبي وكانت هذه الرحلة سنة 585 هـ وعند رجوعه منها سكن غرناطة ومالقة وفاس وسبتة وما زالت كتب التاريخ تتحدث عن دروسه الرائعة التي كان يقدمها في مدينة فاس سواء في الميدان الأدبي أو في الميدان الصوفي.

وشاءت الأقدار أن يفقد شريكة حياته وأن يحس بألم شديد وحزن عميق فلم يجد سبيلا لإطفاء جذوة حزنه إلا التوجه مرة أخرى إلى المشرق عساه أن يجد في الحرمين ما ينسيه ألم الجوى ويلهيه عن مصيبة الموت وكانت هاته الرحلة الثالثة فاصلا بينه وبين الرجوع إلى المغرب والأندلس فقد وافاه الأجل بمدينة الأسكندرية في شهر شعبان سنة 614 هـ عن سن تناهز الرابعة والسبعين.

ان ابن جبير رحمه الله أصبح علما من الأعلام التي لا يستهان بها في تاريخ الثقافة المغربية الأندلسية نظرا لما يمتاز به من المشاركة الفعالة في المجال العلمي والأدبي وقد تحدث عنه ابن الخطيب في كتابه الإحاطة وخص له المقري ترجمة وافية في كتابه نفح الطيب.[5]

ولما نشر رايت بليدن سنة 1852 هذه الرحلة ضمنها أوراقاً تتعلق بترجمة ابن جبير منقولة عن المقريزي وابن الخطيب والمقري وصدرها بتمهيد مكتوب باللغة الإنجليزية أعانني على الاطلاع على بعض مضامينه ولدي الدكتور محمد أصلحه الله حينما كان طالبا بكلية الطب وإني لأتمنى أن

5) توجد ترجمته في الجزء الثالث من التجزئة العشارية التي قام بتحقيقها المرحوم محمد محي عبد الحميد.



رحلة

الكاتب الاديب البارع اللبيب

ابى الحسين محمد بن احمد بن جبير

الكنانى الاندلسى البلنسى
تغمده الله برحمته
امين

طبع
فى مدينة ليدن المحروسة
بمطبعة بريل
سنة ١٨٥٢ المسيحية

تكون الترجمة التي قام بها مطابقة للأصل غير مجحفة بالمقصود ولا محرفة للهدف المنشود.

ففي هذا التمهيد أشار إلى الصعوبات الجمة التي واجهته وهو يقرأ النسخة الخطية التي اعتمد عليها لما فيها من الخلط الناتج عن الغموض الخطي الذي كان نتيجة لسرعة الناسخ فقد زحزحت بعض النقط عن أماكنها وأهملت بعض الحروف من النقط وحصل لبس في بعض الكلمات وفضل الناسخ ترك بياض في بعض الأماكن حتى لا يتحمل مسؤولية التحريف وهذا شيء مزعج لمن يريد التحقيق والأمانة ومع ذلك فقد رأى أن العمل يقتضي مواجهة عنيفة وشجاعة قوية بشرط التحري والتقصي والرجوع إلى الأصول الموازية إما عن طريق النقل وإما عن طريق الاقتباس.

وانه لمجهود يحتاج إلى حذر وتبصر وهو يختلف باختلاف الكلمات الغامضة التي تقبل الاجتهاد أحيانا والتي لا ينفع فيها إلا النص الموازي أحيانا أخرى ولهذا كان من الضروري الرجوع إلى المعاجم العمرانية وإلى رحلات أخرى وإلى الاطلاع على بعض الكتب التي اهتمت بنفس الموضوع لتكون التصويبات معتمدة على حجة ومردودة إلى أصل وهو في كل ذلك يبحث عن المختصين ويستشير أصدقاءه وأساتذته ليكون عمله قريبا من الصواب بعيدا عن الارتجال.

ولقد أشار في التصويبات المتعلقة بالأمكنة إلى صديق يسمى جانبل فلقد ساعده هذا الصديق مساعدة عملية وفتح له أروقة مكتباته ويسر له الاطلاع على مصادر كثيرة أعانته على التحقيق والتدقيق.

إن المحقق اعتمد في تصويباته على بعض الرحالة الـذين ذكر من بينهم الأسماء الآتية :

أولا ـ العبدري وهو الرحالة الـذي خرج من حـاحـا من بلاد المغرب الأقصى فوصـل إلى مكـة سنـة 688 هـ مـوافـق 1289م وقـد مر على طـول ساحل شمال إفريقيا إلى أن بلغ إلى الأسكنـدريـة ثم توجـه إلى مكـة وأقـام قسطا من الزمن بفلسطين وأشـار في رحلتـه إلى ابن جبير فـذكره مرتين أو ثلاثا عند وصفه لمدينتين من مدن الرحلة.

ثانيـا ـ البلوي وهو القـاضي أبو البقـاء خـالـد بن عيسى البلوي ترك المدينة التي ولد فيها والمعروفة بقنتورية على شاطئ المنصورة سنـة 736 هـ ثم تـوجـه إلى تـونس إلى أن وصـل إلى الأسكنـدريـة وزار القـاهرة وأقـام بالقدس ثم دخل إلى الحجاز عن طريق الحجاج السوريين.

ورحلته تحمل العنوان التالي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق وهو عنوان يعطي صورة واضحة لطبيعـة محتويـات هـذه الرحلـة ولقـد تحـدث المحقق عن البلوي هذا فقـال : إذا كان ابن الخطيب اتهمـه بـأنـه كان يسطو على سجع عماد الدين الأصفهاني فإني أضيف إلى ذلك أنه أخذ من رحلة ابن جبير وصفه للأسكندريـة والقـاهرة ومكـة من غير أن يحور في ذلـك شيئـا اللهم إلا تحريفا يسيرا لم يكن نزيها فيه لأنه أفسد به ترتيب بعض الأبيـات الشعرية وأحدث فيها اضطرابا ـ

ثالثـا ـ ابن بطوطـة الـذي أشـار إلى ابن جبير في رحلتـه وقـد عمـد المحقق إلى البحث عن ذلك وساعده على الاستفادة من هاتـه الرحلـة السيـد سايكلين الذي أرسل إليه من باريس كل ما يحتاج إليه استجابة لصديق لـه اسمه دير فرمري.

ولم يكتف المحقق بمن ذكر بل قال بعد ذلك.

ومن المؤرخين العرب الذين تعرضوا لابن جبير والذين يجب ذكرهم.

أولا ـ ابن الخطيب فقد تعرض له في كتاب الإحاطة ثم ذكر المحقق أنه ترجم ما يتعلق بابن جبير ونشره في كتاب دوزي إلا أنه اعتذر عن عدم تعمقه في هذه الترجمة نظرا لغموض الأصل بالنسبة إليه.

ثانيا ـ المقريزي في كتابه المقفى وقد حرص (رايت) على ترجمة ما يتعلق بابن جبير من هذا الكتاب وجعلها ترجمة طبق الأصل وقال.. انه مما ينبغي ملاحظته أن المقري نقل القطعة كلها في صفحاته مع بعض التعديلات الضئيلة جدا ثم ذكر أن المقريزي تعرض لابن جبير أيضا في كتابه الخطط والآثار وخصوصا فيما يتعلق بعيذاب.

ثالثا ـ الفاسي في كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام وفيها مقطع قد نسخه له السيد درفرمري السابق الذكر من نسخة باريزية.

رابعا ـ نسخة باريزية في وصف المسجد الأعظم بدمشق أخذت من تاريخ هذه المدينة لمؤلف مجهول وتعتمد في الوصف على ما في شرح الشريشي لمقامات الحريري وهو بدوره مأخوذ من ابن جبير.

خامسا ـ المقري في كتابه نفح الطيب وقد خص لابن جبير ترجمة طويلة في الباب الخامس من كتابه ولقد أشار المحقق إلى أنه نشر ما يتعلق بذلك في شكله الأصلي مستعملا نسخة كوطا وهي مكتوبة بخط واضح جيد.

ثم تحدث فيما بعد عن الشريشي في شرحه للمقامات وما في هذا الشرح من النصوص المنقولة من رحلة ابن جبير.

وهكذا نلاحظ أن رحلة ابن جبير قد حظيت بهذا التقديم من قبل المستشرق رايت في القرن الماضي وتعد طبعته هاته من أدق الطبعات وأصحها نظرا للمجهود الذي بذله في إخراجها إخراجا علميا يقيد الباحثين ويعينهم على تحري الحقيقة ومعرفة الصواب وقد زين طبعته بمعجم حضاري شرح فيه كثيرا من الكلمات المتعلقة بالملاحة أو المتصلة بالعمران، واعتمد في شرحها على معاجم دوزي الذي كان يعينه بكل إمكانياته.

وشاءت الأقدار أن يعاد النظر في تحقيق هذا الكتاب وأن يطبع مرة أخرى على يد المستشرق دي غويي (De goeyé) عام 1907 ضمن سلسلة جيب التذكارية وأن تمتد إليه الأنظار مرة أخرى خصوصا من البلدان العربية التي رأت أن الاهتمام بنشر التراث الحضاري واجب مقدس وأن على جميع الذين لهم إلمام بالثقافة العربية أن يعملوا بجد على نشر التراث والتعريف به وعلى مراجعة ما كتبه المستشرقون في هذا الباب للاستفادة من جهة ولإبعاد كل ما من شأنه أن يكون دسا أو تدليسا.

ولقد عمد إلى تحقيق هذه الرحلة من جديد الدكتور حسين نصار سنة 1955 واستفاد من تجربة رايت ومن تجربة مختلف المستشرقين الذين كانت لهم عناية بهذا الكتاب وقال في مقدمة تحقيقه : «...والحق أن الكتاب عني به عدد من كبار المستشرقين فدرسوه دراسة دقيقة وكانت لهم عليه التعليقات النافعة ولذلك تعتبر النسخة الأوربية من أحسن الكتب التي وقف المستشرقون على طبعها».

وهو كلام سديد ينطبق مع حقيقة وضع الكتاب المذكور في شكله الذي طبع عليه.

وقد حرصت دار التحرير للطبع والنشر عام 1968 بلبنـان على طبع الرحلة من جديـد معتمـدة هي أيضـا على نسخـة رايت وعلى نسخـة غويبي وقدم لها الدكتور مصطفى زيادة ومع ذلك فإن المجهودات السـابقـة غـالبـة على المجهود اللاحق ولهذا فإننـا نرى أن هـذه الرحلـة في حـاجـة إلى تحقيق يسـاير التطور العلمي وإلى دراسـة عميقـة تبرز بعض عنـاصرهـا القيمـة التي تـدل على خبرة ابن جبير وعلى شـدة احتكاكـه بـالمجتمع الإسلامي في المشرق والمغرب وعلى قوة إيمانـه بـالوحـدة الإسلاميـة وعلى صفـاء عقيـدتـه وحسن اختياره ودقة ملاحظاته وجمال إشاراتـه مع العمل على توسيع دائرة نشرهـا ليستفيد منهـا أكبر عـدد ممكن من المسلمين الـذين يحرصون على نشر التراث للاستفادة منه وللاستنارة بـه في تسيير شؤونهم في الوقت الحـاضر وفي تمهيـد سبل الخير لهم في المستقبل إن شاء الله وإنا لمنتظرون.

فاس **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

أنواع الأدب الشعبي

-4-

مالكة العاصمي

الأدوات المستعملة في الآلة

إذا كان المغاربة يسمون هذه الموسيقى «بالآلة»، فذلك أيضا لتمييزها عن موسيقى أخرى، لم تكن تستعمل هذا النوع من الآلات، وإنما تستعمل أدوات أخرى من نوع آخر، كالتعريجة، والطر، ومجموع «الأدوات النقرية» التي «يكَرحون» بها.

بذلك سَمَّوا هذا النوع الآخر باسم «لكَريحة». وهو نوع من العزف قري. ويصدر بالتعريجة بالذات، في أنواع من الموسيقى التي تستعمل لتعريجة. كطرب الملحون. وطرب الدقة. واللون العروبي الشائع في سهول الرحامنة والسراغنة، نسبة إلى «العروبية»، وهو مصطلح يطلق على المناطق البدوية التي يستوطنها الأعراب.

وهذا النوع من العزف يسمى «التكَراح» وفعله «كَرَّح» ويعتبر أُستاذنا الجليـل الـدكتـور عبـاس الجراري أن هـذه التسميـة تـدل على صـدوره عن القريحة[1].

ويظهر أن هـذا الفعـل منـدمـج بين معنيين : المعنى الأول : كـونـه صادرا عن القريحة. والمعنى الثاني هو كونه صادرا عن آلة نقرية تساعـد على ضبط الميزان هي آلة «التكَراح»، ويؤكد ذلـك أن حلقـة الـدقـة في مراكش مثلا تتكون من ناقرين وهم الذين «يتكَرحون» بالدقة، ومن الشعراء الذين يمدون الحلقة بذوب قرائحهم وهم «لقرايحية» الذين «يتكَرحون» أيضا بالدقة، مما يجعل هذه الكلمة تتحمل معنيين هما المعنى النقري، والمعنى الإبداعي.

ثم إن ميزان الموسيقى الشعبيـة يعتمـد بـالأسـاس على الآلـة النقريـة، ويمكن ملاحظة ذلـك من خلال مظـاهر : منهـا أن عـازف الغنـاء الملحون ينقر أساسا بالتعريجة أو بالكف. وأن الميزان الموسيقي الشعبي يبـدأ بخمس يسمى «داوداو» وهو ضربات خمسة : ثلاث ضربات تتبعها ضربتان، ثم يتبع بضربـة واحـدة تسمى «التفراد»، ثم بثلاث ضربـات تسمى «التثـلاث»...الـخ ويسمى هذا الميزان «التهديرة» وهو أساس كل عزف شعبي.

كـذلـك معـزوفـات «لمـازنيـة» في مراكش هي نقرات بـالأيـدي «والتعريجـة»، ومعـزوفـات الحـوزى نقرات بـالأيـدي والتعريجـة أيضـا. ومعزوفات العيطة تتجاوب فيهـا «التعريجـة» بـالأسـاس، والعزف الصـامت «للشيخـة» المسمى «التبييضـة» هـو تجـاوب ثنـائي بنقر «التعريجـة» الرقيقـة الصوت، وغناء هوارة أساسه «التعريجة».

---

1) الزجل في المغرب صفحة : 61.

«والآلي» نفسه الذي يريد أن يضبط «الميزان» الإيقاع أو يتابعه، يضرب ضربات بيده على كفه الأخرى، أو على زكبته، أو يضرب برجله على الأرض وينادي على صاحبه «اقبط الميزان» وهذه الملامح تؤكد أن ميزان الموسيقى الشعبية هو ميزان نقري، ويبرر تمييز بعض الألوان الموسيقية الشعبية بتسمتها «لكَريحة» لكونها تعتمد على «التكَراح» وتمييز اللون المسمى «الأندلسي» بتسميته «الآلة» كما يميز كل لون بتسميته الخاصة.

اما موسيقى «الآلة» فتستعمل الآلات الوترية في الغالب، وبشكل عام تستعمل آلة العود - وآلة الرباب - وآل الكمان - وآلة القانون - والماندولينا - وجوق الآلة يتكون من عدد كبير من الأفراد، يتعدد العازفون على كل آلة من الآلات الوترية، بينما يكون في الجوق دربوكة واحدة - وطر واحد - على أهمية دوره في هذه الموسيقى لأنه يجعل هذه الموسيقى مجلجلة وبهيجة.

الآلات الوترية تعتبر غالبة في هذا اللون من الموسيقى فتطبعه بالتالي بطابع يسميه المغاربة «الآلة».

كما أن جزءا من هذه الموسيقى معزوفات صامتة، لايصاحبها غناء، وإنما تقتصر على العزف، وتجاوب الآلات وتجلجلها. ولعل هذا أن يكون سببا آخر في تسميتها بموسيقى الآلة. لأنها موسيقى تعتمد على الآلات وحدها فتغني أنغاما غير معبأة بكلمات أو أشعار.

وهذا اللون من الموسيقى كثير متعدد في المغرب، يعزف الموسيقيون معزوفات لايصحبها غناء. وإنما يترك المجال للآلة وحدها أو الآلات لتعزف عزفا اما منسجما واما متجاوبا واما متحاورا.

ومن هـذا النـوع مـوسيقى «الطبـالـة والغيـاطـة» ومـوسيقى «الخمسة والخمسين» والموسيقى الرمضانية «النفار والغيطة» والتبييضة عنـد الشيخـات» و«التهديرة» وكثير من أنواع الموسيقى الشعبية المغربية.

ولقد أقدم مؤرخو هذا الفن في وقت متأخر خاصـة في القرن الثـالث عشر الهجري، كالفنان أبي الفيض حمدون بلحـاج السلمي المرداسي ت 1232، على تعبئة بعض هـذه الطبوع والنبوبـات بـأشعـار، لحمـايتهـا من الضيـاع، وتسهيل حفظها وتداولها (انـاكلي ملـك لكم). خـاصـة وقـد أنسى جزء هـام منها ظل المؤرخون يعملون على جمعه، واكتشافه، وعددها كما يقول الحائـك في مقدمـة كتـابـه : 366 طبعـا مما يؤكـد كون جزء منهـا كان معزوفـات موسيقية خالصة بالآلات لايصحبها غناء أو إنشاد، كما يقوم دليلا على صحة هذا الرأي.

والمجتمع المغربي يسمى مجموعة عـازفي موسيقى الآلـة «بـالآليين» ويسمي العازف «آلي».

ويعتقد الأستـاذ إدريس التويمي في مقـدمتـه لكتـاب التراث العربي المغربي الموسيقى مطبعة الرايس بالبيضاء ص 1 أن تسميتها بالآلـة تمييزا لهـا عن موسيقى السماع المستعملة بالأصوات دون الآلات وهو يؤكد مـا إذهب إليه من رأي يرمى إلى القول بتمييزها بهذه التسميـة عن بـاقي ألوان الموسيقى التي تستعمـل الآلات النقريـة أو تعتمـد على الصـوت كالسماع أو الأمـداح وسـواهـا من الألـوان وهـو في ص 2 يعتبر السماع مـوسيقى مغربيـة والآلـة موسيقى أندلسية مع اعتبار وحدة أصليها العربي واستظلالها بالامبراطورية المغربية.

وتتجاوب الآلات فيا بينها أحيانـا، وتعزف في أحيـان أُخرى أنغـامـا متناسقة منسجمة مصحوبة بغناء جماعي يقوم بـه العـازفون أنفسهم صحبـة مغنيين غير عازفين. وتتخلل هذا الغناء إنشادات فرديـة لمنشـدين ينشـدون أشعـارا تسمى «البيتين» وتصمت الموسيقى خـلال إنشـاد المنشـد. وهـو عـادة صاحب صوت جميل رائق ونطق سليم جميل.

وهي في عمومها موسيقى عذبة تشيع جوا من البهجة والحيوية والفرح العـام. بـذلـك تستعمل في المنـاسبـات الزاهيـة. والمغنـون يرتـدون اللبـاس التقليدي المكتمل الأبيض (تشامير ـ قفطان، أو بدعية أو صدريـة في الربيع ـ فراجيـة وتسمى أيضـا منصوريـة نسبـة إلى المنصـور السعـدي ـ جـلابـة ـ طربوش أحمر ـ بلغة). كما أن لجلسة الطرب طقوس خاصة ضرورية لاتكتمل بـدونهـا وهي صينيـة الشـاي ذات الطقم الكامـل الفضي أوالنحـاسي. ومجمر النحـاس الأحمر أو الأصفر أو المتكـون من النحـاس الأصفر والأحمر ويسمى «مجر شمس وقمر» وقـد يستبـدل بـالبـابور النحـاسي كـذلـك أو الفضي. ومع صينية الشاي «طيافر» أو «أطباق» الحلوى المنوعة خاصـة «لغريبـة» و«كعب غزال». و«مبخرة» الصندل الفضية والنحاسية، وصينية «المرشات» المعبأة بمـاء الزهر والورد. والبيوت الواسعة الفخمة، والفرش الوثيرة. والألبسة الزاهية.

كل هـذا إطـار ضروري لطرب الآلـة لـذلـك فهـو نـوع من الطرب لاتتداولـه الأوسـاط الشعبيـة ولا تستعيره في منـاسبـاتهـا ومجـالسهـا للسبب المذكور سـالفـا، ولسبب آخر هو أن الأوسـاط الشعبيـة تتعـاطى ألوانـا من الموسيقى تسمح بانـدمـاج الحـاضرين والمستمعين مع الموسيقى غنـاء ورقصـا، بينما هذا الطرب ليس في متناول الجميع، زيادة على أنـه طرب وقور بسبب إطاره الارستقراطي.

الطرب الغرناطي

وإلى جانب هذا التراث الموسيقي ؟ «الأندلسي» ؟، وجد تراث أندلسي حقيقي هو الطرب الغرناطي، الذي استقر في بعض المدن المغربية واعتنت به أيما عناية وعرفت به.

ويقول الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل أنه «لما كانت سنة 893 هـ استقبل المغرب وبخاصة مدينتا تطوان وشفشاون، جموعاً غفيرة من الموريسكوس الذين رحلوا إلى الأندلس بعد سقوط غرناطة أيام حكم الوطاسيين. وأصبحت المدينتان مؤهلتين لتخوضا فيما بعد معركة التنافس مع فاس على مناصب الزعامة في مضمار الآلة الأندلسية»[2].

ويضيف في مكان آخر «فقد استقبل المغرب السعدي مسلمي الأندلس الذين طردهم فليب الثالث سنة 1019 هـ 1610م وهم المعروفون بالموريسكوس أو المدجنين، واستوطنت أهم جالياتهم الرباط وسلا. وما من ريب في أن هؤلاء الموريسكوس قد حملوا معهم إلى المغرب أغاني وأناشيد الأندلس التي كانت تحمل خليطا من الأنغام الإسبانية والألحان العربية الغرناطية التي استقرت في أعماق الذاكرة العربية وهي تقاوم حملات التنصير والتعجيم، ولقد نحوا في الغناء منحى الطرب الغرناطي»[3].

ويعتبر الطرب الغرناطي أقرب نموذج إلى موسيقى الفلامينكو الشعبية الإسبانية، لما يتميز به من طابع الحزن ومد الصوت بالغناء. ويعتقد

---

2) المصدر السابق صفحة 56.

3) المصدر السابق صفحة 106.

أن هـذه الموسيقى هي من بقـايـا الـوجـود العربي في الأنـدلس، وبكائيـات الهزيمة.

ونحن نعرف أن مـدن الأندلس تسـاقطت تبـاعـا عبر فترة من الزمن ممتـدة، فكانت أفواج المسلمين تنزح من المواقع المتسـاقطـة نحـو غرنـاطـة من جهة، ونحو باقي مناطق الشمال الإفريقي من جهة أخرى.

وقد تداولت هذا الطرب جماعـات اليهود المغـاربـة وطوروه فكاد أن يكون طربا خاصا بهم في مختلف أنحاء المغرب. ومـا زال هو طـابع موسيقي اليهود المغاربة الذين تفرقوا في البلاد وهـاجروا خـارج الوطن. ونـذكر من قصائدهم قصيدة الساقي لابن سليمان وهي من قصائد أشيـاخ الملحون يغنيهـا الفنان المغربي اليهودي سامي المغربي.

يـا السـاقي بـاقي نـور شمعنـا   مـــا قرب حسكاتـــو
مـــابتنـــا هـــذا شحـــال   مـــاغـــدرنـــا كيســـان

☆ □ ☆

نـــوصيــــك نـــوع السفرا   بكيـــــوس المــــــدام
أنـــــا بـــلا كيـــوس اسقيني   عمر مراشفـــــك واعطيني
الريق بلا خمر يكفيني
كاس الرحيـــــــق داير   عقلي حـــــــــاير
معـــــاه طـــــاير   نـــدري رشفـــاتـــو
كب كيــــوســــك   فنـــــاجـــل الخمر[4]

4) أصل هذا البيت في قصيدة الساقي لابن سليمان هو كما يلي :
ما نشـرب حتى تـردني   بالمـرشـف سكـران

تهت على الألوان

يـا السـاقي بـاقي نـور شمعنـا مـا قرب حسكاتـو

مـا بتنـا هـذا اشحـال مـا غـدرنـا كيسـان

وهـذه القصيـدة يغنيهـا مطرب جـزائري بلحن جـزائري. ومن هـذا النوع الأغنية الشهيرة :

قفطـانـك محلـول يـاالالـلا قفطـانـك محلـول

واش مـا وصـالـو حـد قـل لي راني كي المهبـول

وفي موضوع آخر يعتبر الأستاذ بنعبد الجليل أن الطرب الغرناطي هو موسيقى أندلسية جزائرية «وقفت الموسيقى الجزائرية المعروفة بالطرب الغرناطي إلى جانب «الآلـة» تفرض نفسهـا في أوسـاط الهـواة والمحترفين، وعرفت نوعـا من النفوذ والانتشـار بلـغ في بعض المـدن المغربيـة درجـة لا يستهان بها، وخاصة مدينة وجدة على الحدود الجزائريـة، ومـدينـة الربـاط المطلة على المحيط الأطلسي»[5].

«ويرد ذلك إلى ثلاثـة أسبـاب أولهـا أن الجزائريين كانوا يلجأون إلى المغرب بحثا عن الحرية على عهد الاحتلال العثماني، وثـانيهـا رواج الموسيقى الجـزائريـة في المغرب على عهـد الاحتـلال الفرنسي، كأغـاني الشيـخ العنقـا، وانتقال فنانين إلى الرباط كقـدور بنغبْريـط. وثـالثهـا استقرار الموريسكيين المدجنين بالرباط، وتسرب هذا الفن من تلمسان إلى وجدة بالجوار»[6].

---

5) نفس المصدر ص 221.

6) نفس المصدر ص 222.

والحقيقة أن منطقة المغرب العربي تتداول ثراتا مشتركا، على رغم توفر كل منها على لون خاص، وهوية موسيقية مغايرة، فقد «تلقت الجزائر الأسلوب الغرناطي في صورته البسيطة، وأخذت تونس بالأسلوب الإشبيلي الأصيل»[7]. الذي امتزج بقوالب شرقية عثمانية، واكتسى طابعا خاصا يسمى المألوف، مع ذلك فقد كانت تتبادل الإنتاج الفني فيما بينها، كانت الجزائر وتونس تغنيان لسيدي قدور العلمي، والمغاربة يتداولون أغاني على الرياحي كأغنيته الشهيرة :

ينجيــــــــــك وينجني — من عين الحســـــــــــاد
يخليــــــــــك ويخليني — عيشتنــــــا أعيـــــاد
لمـــــا نكـــونـــوا اثنين — بعيـــــــــد عن العينين
تبقى لي يـــــــــازين — يـــــاسيــــد الأسيــــاد
من عين الحســـــــــاد — ينجيــــــــــك وينجيني

أو أغينته شد السيف هيا ڤابلني وكذلك أغاني الشيخ العنفا ومنها أغنيته :

الحمـــــام اللي والفتـــو مشى عليـــــا
مـــا بقى لي نسمـع صـوتـو في رســـامي
صـــار هـــارب عني مـــادار لي مـــزيـــا
بعـد مـاكان صـديقي يحـوم على خيـامي

هذا زيادة على أن المغاربة يغنون لشعراء جزائريين كقصيدة مولات السالف الطويل التي يغنيها سامي المغربي، وقصيدة الساقي لابن سليمان

7) نفس المصدر ص 57.

التي يغنيها مطرب جزائري كما ذكرنا. ولاننسى أن مدينة وجدة تتشابه في ثراثها الموسيقي الأندلسي مع أسلوب المدرسة الجزائرية في الطرب الغرناطي، لمجاورتها للجزائر من جهة، ولوقوعها في طريق القوافل المهاجرة التي نزلت بالجزائر، وربما تركت بقايا منها. كما أن الرباط توجد بها هي الأخرى جماعات من الأندلسيين استقروا ونقلوا ثراثهم الغرناطي ضمن ما نقلوا، خاصة ان الهجرات الجزائرية إلى الرباط لم تكن بالحجم الذي يجعلها تخلق تيارا عاما يتحول إلى طابع فني للمدينة.

بذلك نفترض أن يكون هذا اللون الغرناطي القديم في مدينتي وجدة والرباط متشابها مع اللون الجزائري لاتحاد أصولها الغرناطية، لامنتقلا من الجزائر إلى المغرب.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المغاربة لاينسبون موسيقى «الآلة» إلى الأندلس ولكنهم يعتبرونها طربا مغربيا ويسمونها موسيقى «الآلة». وأتوقع أن موسيقى الآلة وإن كانت نهجا نشأ في الأندلس في أول أيامه إلا أنه انتقل في أحقاب من التاريخ بعيدة لعلها تترافق مع أحقاب نشوء هذه الموسيقى في الأندلس. فنحن لانجهل أن المغرب كان طريق أهل الأندلس في رحلاتهم وتحركاتهم، وأن العلاقة بين العدوتين لم تتغير خلال التاريخ. وانها توطدت في مراحل كثيرة كان آخرها حركة المرابطين في أواسط القرن الخامس. وأن المغاربة أنفسهم كانوا كثيري الرحلة إلى الأندلس والانجذاب إليها كما كان الأندلسيون كثيروا الرحلة إلى المغرب والانجذاب إليها خاصة بعد أن أصبحت مركز دولتهم أي منذ ما يزيد عن ستة قرون على الأقل قبل هجرة اللون الغرناطي.

ولعل تبادل التأثير ظل مستمرا، وظلت الموسيقى تتطور خلال فترات التاريخ الطويلة، وانها استمدت من الهجرات الأخيرة بعض نفحاتها ولكنها لم تنشأ من عدم بوجود هذه الهجرات.

ويكاد يؤكد لي ذلك ما يميز به المغاربة الموسيقى الوافدة بنسبتها إلى أصلها ويسمونها «الطرب الغرناطي» عن الموسيقى الأصيلة ويسمونها «موسيقى الآلة».

كما يؤكد ذلك تشابه هذه الموسيقى الغرناطية بالموسيقى الشعبية الأندلسية المعروفة بالفلامنكو، مما يؤكد وحدة الأصل، وأن اللون الغرناطي هو اللون الأندلسي الحقيقي، بما أضيف إليه من ألم المخاض المؤذن بسقوط الأندلس، والمتشكل عبر فترة من الزمن تقارب القرن، هي فترة انحسار الحكم المغربي بضعف الخلافة. وتخبط ملوك الطوائف. وتركز الهجمات الصليبية. وظهور نذر الهزيمة.

يتبع

مراكش — مالكة العاصمي

من نفائس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش :

"كتاب الفرق بين الحروف المشكلة"
لابن السيد البطليوسي
444 - 521 هـ

محمد عز الدين المعيار الإدريسي

توطئة :

لا اخال المرء يكون مبالغا إذا قال : إن ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِي خير من يمثل علوم ومعارف عصره في الأندلس، فقد كان متعدد المواهب متسع الأفق له في كل مجال من مجالات المعرفة قدم راسخة وحجة بالغة فهو محدث، فقيه، فيلسوف، نحوي، لغوي، أديب، شاعر...

يقول عنه معاصره الفتح بن خاقان : «...وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه مقودها وزمامها، لديه تنشد ضوال الأعراب وتوجد شوارد الاعراب...»[1].

---

1) أحمد المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض 106/3 طبعة صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة 1395 ـ 1978.

ويقول : «... وله تحقق بالعلوم الحديثة والقـديمـة وتصوف في طرقهـا المستقيمـة مـا خرج بمعرفتهـا عن مضمار شرع ولا نكَّب على أصل للسنـة ولا فرع. وتواليفـه في الشروحـات وغيرهـا صنوف، وهي اليـوم في آذان الأيـام شنوف.»[2].

وان رجلا يصبح شيخا للمعارف في عصر وبيئة يعيش فيها أمثال ابن بـاجـه وابن العربي المعـافري وابن عطيـــة الأنــدلسي، وابن مضــاء، والاعلم الشنتمري، وابن الطراوة وابن الباذش وغيرهم لجدير بالتقدير والإكبار.

على أنه إذا كان ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِي قد برز في كل مجـالات المعرفـة وتفوق إلا أن أخصب جوانب ثقافته كان هو الجانب اللغوي.

يقول الضبي : «...إمـام في اللغـة والآداب سـابق مبرز وتواليفـه دالـة على رسوخه واتساعه ونفوذه وامتداد باعه»[3].

ومن هذا الجانب نختار أحد كتب ابن السيد الذي تحتضن خزانـة ابن يوسف بمراكش نسخة نفيسة منه تحت رقم 134 في (78 ورقة).

كتاب الفرق بين الحروف المشكلة

يعرف هذا الكتاب بين الدارسين والباحثين بـاسم، الفرق بين الحروف الخمسـة، وهـو العنـوان الـذي تحملـه نسخـة خـزانـة القرويين بفـاس رقم 538 مكرر ضمن مجمـوع من 131/ظ إلى 207 و)[4] وغيرهـــا من النســخ

2) نفسه.

3) الضبي : بغية الملتمس ص 337 ـ دار الكاتب العربي.

4) يرمز حرف (ظ) إلى ظهر وحرف (و) إلى وجه ومن البـاحثين من يستعمـل بـدل ذلـك (أ)، و (ب).

المعروفة، لكن الملاحظ هو أن نسخة ابن يوسف تحمل اسم الفرق بين الحروف المشكِلة (بكسر الكاف).

والنسخة منقولة من نسخة ابن السيد نفسه ومقروءة عليه كما سيأتي

الناسخ وتاريخ النسخ :

ناسخه هو الفقيه أبو العباس أحمد بن [عـ.....] بن [هـ.....] اللخمي أما تاريخ نسخه فهو عام 515 هـ بمدينة بلنسية.

توجد على وجه الورقة الأُولى إجازة ابن السيد بخطه لناسخها ونصها : «قرأ علي الفقيه أبو العباس أحمد بن [عـ.....] بن [هـ.....] اللخمي سلمه الله جميع هذا السفر وأجزته له فليروه عني وكتبه عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي [مو.....] بخطه في ذي القعدة سنة خمس عشرة ومائة».

حاولت التعرف على اسم الناسخ الكامل في عدد من المظان فلم أستطع الوصول إلى شيء يفيد القطع في ذلك، لكنني عثرت على اسم أرجح أن يكون هو المعني. وهو أحمد بن عثمان بن هارون اللخمي غَرْناطي أبو جعفر وأبو العباس عاصر ابن السيد وروى عن بعض شيوخ بلنسية ورحل حاجا فلقيه بالأسكندرية أبو طاهر السلفي..»[5].

ويؤكد هذا الترجيح عندي حرفا العين والهاء الواضحان في إجازة ابن السيد لناسخ الكتاب كما تقدم....

---

5) المراكشي الأنصاري : الذيل والتكملة تحقيق د.محمد بنشريفة القسم الأول من السفر الأول ص 286 ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان.

أما تاريخ النسخ فهو أواخر العصر المرابطي وبالضبط زمن علي بن يوسف بن تاشفين، وفي الفترة التي استقر فيها ابن السيد ببلنسية ليتفرغ لخدمة علوم الدين والعربية بعيدا عن الحكام وأصحاب السلطان، وذلك سنة 515 هـ.

أهمية الكتاب :

يبدو أن قيمة هذا الكتاب تكمن في عدة جوانب فهو يستمدها من مضمونه ومن منهجه وطريقته كما يستمدها من زمنه الذي ألف فيه ومن صاحبه الذي ألفه

أ ـ مضمونه : يعد كتاب الفرق لابن السيد معجما لغويا هاما جمع فيه صاحبه كل غريب كما قال ابن خلكان في الوفيات، وفي نشره وتحقيقه إضافة جديدة إلى ما لدينا من معاجم لغوية[6] بالإضافة إلى أنه يذكر في

---

6) يذكر بروكلمان أن كتاب ابن السيد في الفرق بين الحروف الخمسة نشر في مجلة الدراسات الشرقية الألمانية (انظر مجلة «المورد» العراقية المجلد 6/ع 1 1397 هـ ـ 1977م ص 85.

ـ وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور حمزة عبد الله النشرتي قام بتحقيق ورقات من كتاب الفرق لابن السيد تحت عنوان : «صفحات محققة من كتاب : ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة وهي الظاء والضاد والذال والصاد والسين وذلك بمجلة «كلية اللغة العربية» السعودية العدد 8 س 1398 هـ ـ 1978م (من ص 134 إلى ص 179).

بدأ من أول الكتاب : الحمد لله الذي باسمه يبدأ الذكر ويختم وانتهى عند الفظا والفضا من باب ذكر الحروف المزدوجة من الظاء والضاد مما لاشركة فيه للذال.

ـ كما تجدر الإشارة إلى أن الأستاذ علي عبد الحسين قام في السنوات الأخيرة بتحقيق كتاب الفرق لابن السيد ونال به شهادة الماجستير بتقدير (جيد جدا) كما أخبرني بذلك فضيلة الدكتور صلاح الفرطوسي.

متنه جماعة من أئمة اللغة العربية أمثال، الخليل، والمبرد، والأصمعي، وابن دريد، وأبي علي القالي وأبي عبيدة، وأبي عمرو والشيباني وغيرهم ممن لم تصلنا آثارهم كاملة وكمثال على ذلك تلك النقول على البارع لأبي علي القالي المكتوبة بحواشي نسخة القرويين من مختصر العين للزبيدي التي يُظن أنها من عمل ابن السيد البطليوسي وقيمة هذه النقول وأهميتها تكمن في كونها تحتفظ بقدر هام مما ضاع من البارع كما يؤكد الدكتور عبد العلي الودغيري،[7] ويبدو أن كتاب الفرق لابن السيد يتضمن الكثير من هذا القبيل.

وموضوع كتاب ابن السيد هو الفرق بين الحروف الخمسة كما يتضح من عنوانه الكامل : «كتاب الفرق بين الحروف المشكلة من حروف المعجم الظاء والضاء والذال والصاد والسين» وقد وهم من ذكر الشين بدل السين كما في هداية العارفين للبغدادي 454/1 ورغم أن ابن السيد يشترك مع من سبقوه إلى التأليف في الفرق بين الحروف ومن جاءوا بعده في حرفي الظاء والضاد فإنه يكاد ينفرد فيما وصلنا من تراث الفرق بين الحروف بالتأليف في الحروف الخمسة : الظاء، الضاء، الذال، الصاد، السين.[8] وليس فيما أعلم من ألف في هذه الحروف مجتمعة إلى جانب ابن السيد خاصة من سابقيه غير

---

7) عبد العلي الودغيري :المعجم العربي في الأندلس (مجلة «عالم الفكر» الكويتية المجلد 12 عدد أبريل / مايو / يونيو 1981م ص 104.

8) هناك تآليف في غير هذه الحروف ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون 1255/2 منها : الفرق بين الراء والعين لأبي سعيد محمد بن علي الجاواني (468 ـ 561) وذكر ابن خير في فهرسته ص 385. منها الفرق بين الراء والعين للرئيس أبي الفضل أحمد بن علي بن الفضل بن الفرات الدمشقي.

أبي الفهد النحوي البصري (تـ 320 هـ) ذكره ابن خير الأندلسي في فهرسته ص 363 وهو كتاب لا نعرف إلى أين طوحت به يد الزمان.

وعندما نقارن بين مضمون كتاب ابن السيد وبعض المضامين الأخرى في الموضوع ككتاب الضاد والظاء لابن سهيل النحوي (ق 5 هـ)[9] وكتاب زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء لأبي البركات بن الأنباري (ق 6 هـ)[10] وغيرهما نجد أن كتاب ابن السيد أعمق منها وأوسع بكثير بحيث لا مجال للمقارنة بينها وبينه.

ونجد السيوطي في المزهر ينقل عن كتاب الفرق لابن السيد في أكثر من موضع ج 469/1، 563 ـ ج 94/2 دون أن ينقل عن غيره باستثناء الاعتضار لابن مالك في موضع واحد ج 282/2[11].

وقد ألف ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِي كتابه هذا تحت تأثير الحاجة الماسة إليه كما قال : «هذا كتاب قصدت فيه ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة التي يغلط فيها كثير من خواص الناس فضلا عن عوامهم» الورقة 1/ط.

منهجه وطريقة تأليفه :

يخلو كتاب الفرق لابن السيد من الحشو الذي لا طائل تحته، فهو يتصدر للمفردات فيشرحها شرحا وافيا وفي سبيل صحة دعواه يلجأ أحيانا

9) انظر تحقيق الدكتور عند الحسين الفتلي لهذا الكتاب في مجلة «المورد» العراقية المجلد الثامن ـ العدد الثاني 1399 هـ ـ 1979م ص : 285 ـ 321.

10) قام بتحقيق هذا الكتاب د. رمضان عبد التواب. دار الأمانة / مؤسسة الرسالة بيروت ط 1391 هـ.

11) السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها تحقيق : محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي دار إحياء الكتب العربية ط 1378/4 هـ ـ 1988م.

إلى النقل والرواية القائمة على استقراء النصوص القديمة الفصيحة شعرا ونثرا، ويعتمد أكثر ما يعتمد على القرآن والشعر القديم وأقوال علماء اللغة.

وقد قسم ابن السيد كتابه هذا إلى خمسة أبواب وفي ذلك يقول : «هذا كتاب قصدت فيه ذكر المفرق بين الأحرف الخمسة التي يغلط فيها كثير من خواص الناس فضلا عن عوامهم، وهي الظاء والضاد والذال والصاد والسين بوبته خمسة أبواب أولها باب الظاء والضاد والدال والثاني باب الظاء والضاد والثالث باب الظاء والذال والرابع باب الضاد والذال والخامس باب الضاد والسين [....] ووجد لبعضه قياسا يعين على ضبطه فنبهت عليه وأما أكثره فلا قياس له وإنما يضبط بالحفظ» الورقة الأولى / ظ.

ويستفاد من كلام ابن السيد أنه اقتصر على المفردات المستعملة المعروفة دون سواها، وانه كان في إمكانه لو أراد الاستقصاء أن يأتي بالشيء الكثير....

«ولم يكن غرضي حصر النوع كله واستيعابه فقصدت إلى المستعمل المشهور وأضربت عن كثير من الحواشي...» نفس الورقة.

ويقول في آخر ورقة من الكتاب : «قد ذكرنا أعزك الله من هذا النوع الذي قصدنا إليه ما فيه كفاية ولو ذهبنا إلى تتبعه وتقصيه لطال جدا وأمل الناظر فيه».

أما طريقة معالجة ابن السيد للمادة اللغوية التي قدمها فهي أنه يذكر من كل حرف كلمة ثم يشرحها ويذكر معانيها واستعمالاتها ثم يذكر القياس في ذلك إذ وجد مثلا (العطب، العضب، العذب).

وبعد أن يفرغ من الحروف باتفاق اللفظ واختلاف المعنى كالتي تقدمت يوردها باتفاق اللفظ والمعنى إذا كان من ذلك شيء مثل : (نابض، نابذ).

ثم يذكر بعد ذلك ما اشتهر به كل حرف دون سواه، ويسير على هذا المنوال إلى أخر الكتاب.

وحتى تتضح طريقة ابن السيد في هذا الكتاب أكثر أقدم هذا الفهرس العام للموضوعات كما استخرجته منه.

الباب الأول : الظاء والضاد والذال باتفاق اللفظ واختلاف المعنى[12].

الباب الثاني : باب الحروف المزدوجة من الظاء والضاد مما لا شركة فيه للذال

- الظاء والضاد باتفاق اللفظ والمعنى.

الباب الثالث : باب ذكر الحروف المزدوجة من الظاء والذال مما لاشركة فيه للضاد

- الظاء والدال باتفاق اللفظ والمعنى.

الباب الرابع : الضاد والذال باتفاق اللفظ والمعنى.

- ما يكتب بالظاء من الألفاظ المشهورة.

---

12) قدم الدكتور حمزة عبد الله في تحقيقه لورقات من كتاب الفرق لابن السيد (الظف والضف والذف) على (الافظاظ والافضاض والافذاذ) والعكس هو الصحيح كما في نسخة ابن يوسف (انظر ترتيب د.حمزة في مجلة كلية اللغة العربية (السعودية) عدد 8 ص 154).

ـ ما يكتب بالضاد من الألفاظ المشهورة.

ـ ما يكتب بالذال من الألفاظ المشهورة.

الباب الخامس : الفرق بين الصاد والسين[13].

• باب ذكر الألفاظ المزدوجة والمتناظرة من الصاد والسين.

باتفاق الابنية واختلاف المعاني.

ـ الصاد والسين باتفاق اللفظ والمعنى.

• باب ما ينقاس من هذا الباب وما هو موقوف على السماع.

ـ ذكر الألفاظ التي لا نظائر لها.

• باب ما يكتب بالصاد مما لا نظير له في السين.

• باب ما يكتب بالسين مما لا نظير له في الصاد.

ج ـ قيمة الكتاب على المستوى الزمني

تظهر قيمة هذا الكتاب على المستوى الزمني يكون أوائل القرن السادس الهجري كانت امتدادا لفترة ازدهار الدراسات اللغوية بالأندلس التي عرفت نشاطا عظيما منذ دخول أبي علي القالي (تـ 356 بقرطبة) إلى الأندلس والذي كان لكتابه البارع في اللغة أثر كبير على الدراسات اللغوية في الأندلس.

---

13) يأخذ الفرق بين السين والصاد من كتاب ابن السيد القسم الأكبر حوالي 70 ٪.

وقد قام تلامذة القالي المباشرين وغير المباشرين بنشر علم القالي ومنهجه وإشاعته بين الناس أمثال : الزبيدي، وابن القطوطية، والفهري والأخوين ابني ابان بن سيد من المباشرين. وأمثال البكري وابن السيد البطليوسي والأعلم الشنتمري وابن سيدة المرسي من غير المباشرين[14].

وقد أشرت سابقا إلى مدى اهتمام ابن السيد بكتاب البارع وكثرة نقوله عنه...

د - مؤلفه :

أما مؤلفه ففي غنى عن التعريف ولعل علمه ومكانته اللذين ألمحت إليهما في مدخل هذا الموضوع المتواضع كافيان للدلالة عليه.

نماذج من كتاب الفرق لابن السيد :

(1) - ظَلَّ وَضَلَّ وَذَلَّ : يقال : ظل فلان يفعل كذا وكذا بالظاء إذا فعله نهارا وبات يفعل كذا وكذا إذا فعله ليلا هذا هو المشهور، وقد استعمل ظل في جميع الأوقات قال الله تعالى : ﴿**فظلت أعناقهم لها خاضعين**﴾[15] وقال : ﴿**فظلتم تفكهون**﴾[16] فهذا عموم لم يخص به نهار دون ليل، وأما ضَلَّ بالضاد فيكون بمعنى تحيَّر ويكون بمعنى أخطأ كقوله تعالى : ﴿**لا يضل ربي ولا ينسى**﴾[17] ومنه قول طرفة :

14) انظر عبد العلي الودغيري : عالم الفكر المجلد 12 ص 77.
15) الشعراء : 4.
16) الواقعة : 65.
17) طه : 52.

وكيف يضل القصد والحق واضح وللحق بين الصالحين سبيل[18]

وتكون أيضا بمعنى غاب وتَلِف يقال : ضل الماءُ في اللبن وضل الرجل في الأرض قال الله تعالى : ﴿**وقالوا ايذا ضللنا في الأرض**﴾[19] وأما ذَلّ بالذال فله ثلاثة معان : يقال : ذَل الرجل إذا انقاد لعدوه وهو ضد عز وذلت الدابة لراكبها إذا لم تعاسره ولم تصعب عليه. وذل الطريق للماشي إذا سهل ولم تعترضه فيه حُزونة يشق عليه المشيء فيها. يقال من المعنى الأول رجل ذليل بَيِّنُ الذل بضم الذال ومن المعنيين الآخرين ذَلول بين الذل بكسر الذال وقياس هذا الباب إن كل شيء كان معناه راجعا إلى الإقامة أو إلى معنى الستر والتغطية فهو بالظاء، وما كان معناه راجعا إلى الحيرة والخطأ أو الهلال أو التلف فهو بالضاد وما كان معناه راجعا إلى معنى الانقياد والسهولة فهو بالذال.

الظِّل والضِّل والذِّل : الظل بالظاء أصله الستر ومنه قيل ظل الشمس لما سترته الشخوص من مسقطها ومنه ظل الجنة وظل شجرها إنما هو سترها ويقول الرجل للرجل أنا في ظلك أي في ذراك وسترك، وظِل كل شيء خياله الذي يُرى له يقال لا يفارق ظل ظلك حتى تنصفني، وظل الثوب زيبِرُه وظِل الليل سواده لأنه يستر كل شيء قال دو الرمة :

قد أعسف النازِح المجمول معسفه في ظل أخضر يدعو هامةَ اليومِ[20]

---

18) طرفة بن العبد البكري : ديوان طرفة مع شرح الشنتمري. ص 78 ـ باريس 1900م.

19) السجدة : 10.

20) ذو الرمة : ديوان شعر ذي الرمة تصحيح كارليل مكارتني ص 574 / مكتبة المثنى بغداد / عن طبعة كمبردج 1919 وقد جاء البيت كالتالي :

قد أعسفُ النازِحَ المجهول معسِفَهُ في ظل أغضَفَ يدعو هامه اليومُ

ويعني بالأخضر ها هنا الليل، وأما الضِّل بالضاد فالداهية يقال أنه يضِل اضْلال وصِلٌ اصلال بالضاد والصاد أي داهية دواه، ويقال أيضا ضُل أضْلال بالضاد معجمة مضمومة حكى ذلك اللحياني فإذا قيل بالصاد غير معجمة فالكسر لا غير، واصل الصل الحية التي تقتل من ساعتها إذا نهشت قال النابغة :

ماذا رُزئنا به من حية ذَكَر   نضناضة بالرَّزايا صِلٌ أصْلال[21]

والذِّل بالذال ضد الصعوبة يقال : دابة ذلول بينة الذل ويقال ركب فلان ذِلٌ الطريق أي محجته المستقيمة التي قد وطئها الناسُ..

الأَظْلال والأَضْلال والإِذْلال : الاظلال بالضاء جمع الظِّل فإذا كُسرت الهمزة فهو مصدر أَظَلَّهُ الأَمرُ إذا غشيه ومصدر أظللتَ الشيءَ إذا سترته وأما الأَظْلاَلُ بالضاء وفتح الهمزة فجمع ظَلَلٍ وهو الماءُ الجاري تحت الحجارة لا تصيبه الشمس قال الشاعر :

نشاص الثريا بماء ضَلَلْ[22]

والإضْلال أيضا جمعُ ضِلٌ وهو الداهية وقد ذكرناه في الباب المتقدم فإذا كسرت الهمزة فهو مصدر أضللتَهُ إذا حيرته حتى يخطيء طريق الاستقامة في دين أو غيره ويقال : أُمور الله جاريةٌ على أذلالها بالذال أي على مجاريها وطرقها المعتادة، لاراد لها ولا عاصِم منها قالت الخنساء :

---

21) النابغة الذبياني : ديوان النابغة الذبياني / صنعة ابن السكيت ـ تحقيق د.شكري فيصل ص 121 / دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان.

22) لم أستطع الوقوف على اسم الشاعر ولا على تمام البيت.

لتجر المنيـــة بعـــــد الفتـــى   المغـــادَر بـــالمحـــو أذلالهــــــا[23]

(2) - الضاد والذال باتفـاق اللفـظ والمعنى : نبض العِرقُ فهو نـابض ونبذ فهو نابذ لا أعرف غيره».

(3) - في آخر الكتاب ومن باب ما يكتب بـالسين مما لا نظير لـه في الصاد الذي يبدأ من الورقة 68 / و إلى نهاية الكتاب :

«والسمو آل اسم رجل والسلسبيل عين بالجنة».

وبعـد فهـذه بطـاقـة تعريف متـواضعـة لكتـــاب الفرق بين الحروف المشكِلة لابن السِّيد البَطَلْيَوْسِي ولنسختـه الخطيـة النفيســة الموجودة بخزانـة ابن يوسف بمراكش نقدمها للقارئ في انتظـار طبع هـذا الكتـاب وتـداولـه بين الناس...

محمد عز الدين المعيار الإدريسي

23) الخنساء : ديوان شرح الخنساء ص 124 / منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.

الشعر الدلائي

تأليف: عبد الجواد السقاط
عرض وتقديم: نجاة المريني

صدر أخيرا عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط كتاب «الشعر الدلائي» للأستاذ عبد الجواد السقاط، وهو كتاب يقع في 424 صفحة من الحجم المتوسط، الطبعة الأولى 1985م، والأصل في هذا الكتاب رسالة جامعية نال بها صاحبها دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها تحت إشراف الدكتور عباس الجراري.

لعل من مميزات هذا الكتاب ما يحمله بين ثناياه من نصوص شعرية نفض المؤلف عنها غبار الإهمال والنسيان بتقديمها ودراستها، ذلك أنها تشكل شعر مرحلة هامة في تاريخ المغرب، مرحلة ضعفت فيها سلطة الحكام السعديين، فانتشرت الزوايا في أنحاء البلاد المغربية، كل زاوية تمثل دويلة صغيرة بحكامها وقضاتها وعلمائها وشعرائها، والباحث في تاريخ المغرب أواخر القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين يجد نفسه أمام مادة دسمة

في جميع العلوم الدينية والأدبية والعلمية.. لكن لمّ الشتات والتعريف بهذه العلوم لم يكن بالأمر السهل الميسر، فالمصادر التاريخية والأدبية لم تتخذ موقفا معينا من أدب الفترة، بل اكتفت باستعراض أهم شعرائها وأدبائها وعلمائها مشيرة إلى أسماء الكتب والمؤلفات، وبذلك فإن الباحث في الأدب المغربي يجد نفسه في متاهات ملتوية، وفي ظروف عمل شاقة تتطلب منه بحثا وتنقيبا واطلاعا واسعا عله يعثر في نهاية المطاف على مراده وطلبه، غير أن العناية بالبحث في مثل هذه المواضيع من خلال رسائل جامعية وبحوث متعمقة للكشف عن هذا المخبوء بدراسته وتقديمه ونشره بدأ يخفف من عناء البحث في الخزانة الأدبية المغربية، وييسر أدوات للعمل للمهتمين بهذه الدراسات والأبحاث المغربية، ومن هذه الرسائل رسالة السيد السقاط عن الشعر الدلائي...

وقبل استعراض أبواب الكتاب وفصوله نشير إلى التقديم الذي يتصدر الكتاب للدكتور عباس الجراري الأستاذ المشرف على البحث - وفيه يلخص الدور الريادي الذي قامت به الزوايا في المغرب «وفي طليعتها زاوية الدلاء»[1]، فضلا عن أنها - وفي فترة حاسمة في تاريخ المغرب - «بلورت الدور المتشعب الذين كانت تنهض به مثيلاتها على جميع مستويات هذا الدور، بالإضافة إلى المكانة المتميزة التي كانت لها في مجال العلوم العربية والإسلامية، ولا سيما ما كان منها متصلا باللغة والأدب، والشعر على وجه الخصوص»[2]. والشعراء الدلائيون كما يشير إلى ذلك الدكتور الجراري «تسنى لهم أن يحافظوا على استمرارية الإبداع حيا وخصبا وغنيا، رغم عوامل

1 - 2) الشعر الدلائي ص 7.

التمـزيـق والاضطراب التي شهـدتهـا المرحلـة، وتسنى لهم أن يخلفـوا بصمات واضحة ومتميزة أتاحت لمن جاء بعدهم أن يقتفى آثارها ويقيم عليهـا حركـة شعرية متطورة ومزدهرة هي التي سيحتضنها عصر العلويين»[3].

مضامين الكتاب :

يتألف الكتاب من مقدمة يحصر فيها المؤلف أسباب اختيـار الموضوع، وكذلك الصعوبات التي اعترضته أثناء البحث، أما المنهج الذي اعتمده فيقول عنه : «حاولت أن أسلك فيه منهجا تـاريخيـا وتحليليـا يضع هـذا الشعر في إطاره المناسب»[4]، وبعد ذلـك يعرض لأبواب الكتـاب وفصولـه موزعـة كما يأتي :

- مـدخـل تـاريخي : ويضم مبحثين، اهتم في الأول منها بـالخلفيـة التاريخيـة التي عـاشهـا المغرب في فترة ظهور الزوايـا، وفي الثـاني بـالحركـة الثقافية مفصلا الحديث عن الزاوية الدلائية وعن مصادر ثقافة أصحابها...

- تمهيـد : وتنـاول فيـه مصـادر الشعر الـدلائي ومفهـوم الشعر عنـد الدلائيين.

- الباب الأول : وعالج فيه مضمون الشعر الـدلائي، وتتوزعـه فصول أربعة.

---

3) الشعر الدلائي صفحة 9.

4) الشعر الدلائي صفحة 16.

ـ الفصل الأول : وتعرض فيه لغرض المدح عند الدلائيين، وجعله نوعين :

1 ـ المديح النبوي : وتتميز قصائده بـ «طول النفس الشعري الذي كان يصل بالقصيدة أحيانا إلى ما يقرب من مائتي بيت، كما نقرأ في قصيدة لمحمد المرابط وقد بلغت مائة وستة وسبعين بيتا مطلعها :

حيّ المعاهد طافح الأشجان وانثر هناك لآلئ الأجفان[5]

ومن شعراء المديح النبوي الدغوغي واليوسي والتاستاوئي وغيرهم كثير.

2 ـ مدح الرجال : وفيه انصرف الشعراء الدلائيون إلى مدح أقطاب الزاوية ورجالها، هؤلاء الذين «كان لهم حضور بارز سواء في الميدان الديني الصوفي أو العلمي أو السياسي»[6]، ومن هذه الأمداح ما مدح به محمد المرابط أباه محمد بن أبي بكر :

ذاك أبو المجد إمام الورى ومن له في الفضل أسمى مكان
شمس المعارف ومورثها ومطلعُ الجود وقطب الأوان
رب الندى غوث الورى والذي غدا وحيد الفخر في كل آن[7]

---

5) الشعر الدلائي صفحة 109.
6) الشعر الدلائي صفحة 126.
7) الشعر الدلائي صفحة 127.

ـ الفصل الثاني : الرثاء، وجعله كذلك نوعين :

1 ـ رثاء الأشخاص : ويتمثل في رثاء الدلائيين بعضهم لبعض، من بينهم الطيب بن المسناوي، وفي رثائهم للأمراء والعلماء، ومن بينهم الشاذلي، والرثاء الدلائي صادر عن نفس حزينة وقلب باك، من ذلك قول أحدهم في الرثاء :

قضى الله لا أسلو فلا أنا واجد ومن يستطع رد القضاء إذا جرى
أنا الهائم الولهان شوق أحبتي قضى أن أكون ذاهلا متفكرا
وياعين لا تنفك بعد سخية عليهم، ولا ينفك جسمي أغبرا[8]

2 ـ رثاء الزاوية : وتشكله الأشعار التي نظمت في البكاء على الزاوية بعد خرابها، وتشرد أصحابها، فقد هزت الصدمة النفوس، وحركت العواطف لبكاء زاوية الدلاء، والتحسر على ما أصابها، من ذلك ما قاله المرابط في رثائها :

إن قلبي ساكن بين جلى كيف أسلو وكيف لي أتسلى
وربوع الدّلا تنادي جهارا أين أهلي ومن برسمي حلا
أين من يسحر العقول بلفظ وبدور العلوم تنشر قولا

إلى أن يقول :

ليتني مت يوم بانت ركابي راكبا للفلاة وعرا وسهلا[9]

---

8) الشعر الدلائي صفحة 144.

9) الشعر الدلائي صفحة 167.

- الفصل الثالث : الغزل، وقد كان عندهم «عبارة عن نماذج قصيرة يتراوح جلها بين البيتين والخمسة عشر بيتا»[10]، من ذلك قول الشرقي :

عندي من الشوق ما كفاني ... يا من يغيبُ عن عياني
طبعي بحرب الهوى شجاع ... والقلبُ قلب فتى جبان
ارحم بوصلك مستهاما ... وانظر بعينك في هواني
جد لي بطيفك في منامي ... يا نازحا وهو في جناني[11]

والشاعر الدلائي لا يتورع في وصف جمال حبيبته، وإعجابه بهذا الجمال :

يا كعبة الجمال في ... وصلك حج واعتمار
على استواء الخال في ... خدّيك يفنى الاصطبار[12]

كما أن الشعراء الدلائيين توسلوا بالغزل كمقدمات لقصائدهم، بل «إنهم أطالوا في غزل المقدمات التي كانوا يفتتحون بها قصائد المدح»[13]، ومن نماذج ذلك مقدمة غزلية لقصيدة في مدح الرسول ﷺ للشاعر المرابط يقول فيها :

بعيشك عج بي نحو سلع أسائله ... وأشكو له حالي وما أنا حامله
وما نافعي والعيش قد جد جده ... عكو في على رسم تناءت رواحله[14]

---

10 ـ 11) الشعر الدلائي صفحة 183.
12) الشعر الدلائي صفحة 189.
13) الشعر الدلائي صفحة 183.
14) الشعر الدلائي صفحة 184.

ويحاول المؤلف في هـذا الفصل استنطـاق النصوص الغزليـة الـدلائيـة لإعطاء فكرة عامـة عن هـذا الموضوع مشيرا إلى المرأة الرمز في هـذا الشعر، وهكـذا «يمكن اعتبـار فن الغـزل في الشعر الـدلائي من أنضـج الفنـون التي طرقهـا الـدلائيـون، لأنـه بهـذا المنظـار قـد تحـول عنـدهم إلى أداة تعبيريـة استطاعت الوصول إلى مستوى الرمز»[15].

الفصل الرابع : موضـوعـات أخرى : وهي أغراض شعريـة راجت في الشعر الدلائي، ومن بينها التصوف والوعظ والحكم والفخر والهجاء والوصف، بالإضافة إلى منظومـات الأنسـاب والمنظومـات العلميـة والفقهيـة مستشهـدا بنماذج شعرية لكل غرض.

الباب الثاني : ويتركز الحديث فيـه حول الشكل في الشعر الـدلائي من خلال فصول ثلاثة :

الفصل الأول : عن بنية القصيدة الدلائية، وتشمل نقطتين :

أ ـ الهيكل العام للقصيدة الدلائية : وهو هيكل القصيدة العربية في القصيدة المدحية بنوعيها. فالشـاعر يقف على الأطلال ويتغزل في حبيبتـه، ليصل إلى الغرض الذي من أجله أنشأ قصيـدتـه سواء كان مـدحـا نبويـا أو مدحا لأصحاب الزاوية وعلمائها.

أما قصيـدة الرثـاء «فيمكن تقسيمهـا إلى ثلاثـة أقسـام : أولهـا مقـدمـة يخصصها الشاعر لشرح حالته النفسية بعد موت الفقيد، وثانيها بسـط موسع

15) الشعر الدلائي صفحة 199.

لمناقب الفقيد واستعراض لأمجاده وعلمه، وثالثها خاتمة تلخص دعوات الشاعر لفقيده[16].

أما الموشح فقد اتخذه بعض الدلائيين قالبا لأشعارهم كالطيب بن المسناوي.

ب - الإيقاع : «ويعتبر من أهم العناصر المكونة للشعر»[17] وتتقاسمه ظاهرتان : الوزن والقافية، فبالنسبة للوزن اعتمد الدلائيون على البحور الطويلة، في الموضوعات الطويلة كالمدح، وعلى البحور القصيرة الخفيفة في المقطوعات وخاصة الغزلية، أما القافية فقد بنوا القصيدة على روي واحد، بل إن بعضهم كان يذهب أبعد من ذلك في اعتماد قافيته على أكثر من حرف، وهو المعروف بلزوم مالا يلزم[18]، أو في اعتماد قافية داخلية توفر الجرس الموسيقي الداخلي في البيت الواحد[19]، أو في تماثل القوافي بين الأضرب والأعاريض في القصيدة الواحدة[20].

- الفصل الثاني : عن الصورة الشعرية، ذلك أنها «تعتبر من بين العناصر الأساسية التي تعطي المعنى بعدا شاملا، وتقربه من ذهن السامع أو القارئ بأسرع مما يقربه منه التعبير الجاف المجرد»[21]، ومن خلال هذا التعريف حاول المؤلف دراسة الصورة الشعرية في الشعر الدلائي منطلقا من عنصرين :

---

16) الشعر الدلائي صفحة 244.
17) الشعر الدلائي صفحة 249.
18 - 19) الشعر الدلائي صفحة 257.
20) الشعر الدلائي صفحة 260.
21) الشعر الدلائي صفحة 265.

1 ـ الطبع والصنعة : فالقصيدة الدلائية تغلب عليها الصنعة في مستويات متعددة كالعناية بالمحسنات البديعية كالجناس والطباق ولزوم مالا يلزم..

2 ـ التصوير : فالشاعر الدلائي كان شغوفا بهذا العنصر، يجنح به الخيال إلى عوالم ينسجها بخيوط متماسكة لتصوير حالة أو ظرف أو واقعة، وقد تتبع المؤلف الصور الشعرية عند الدلائيين مؤكدا بأنها صورة لواقعهم وثقافتهم...

ـ الفصل الثالث : عن الأسلوب، وفيه يحاول المؤلف ـ وقد درس هذا الشعر في مضامينه وأساليبه ـ أن يتحدث عن أسلوب الشعر الدلائي، فهو عندهم متكلف وركيك، وإن كان جيّدا مستويا عند بعضهم، ومن الملاحظات التي سجلها المؤلف على الأساليب الشعرية الدلائية : الإطناب والحشو، استعمال بعض الأساليب المنطقية والخطابية، توظيف الثقافة الدينية واللغوية واللسانية إلى درجة كبيرة، الاتكاء على نماذج الأقدمين تقليداً ومعارضة، والخلاصة «أن الشعر الدلائي يتأرجح جودة ورداءة، ويتسع للجميل المشرق الأنيق مثلما يتسع للمسفّ الساقط المرذول»[22].

خاتمة : وقد تناول فيها المؤلف قيمة الشعر الدلائي من حيث كونه متأثرا بالتيارين المشرقي والأندلسي، محافظا على الروح الإسلامية، متميزا بين شعر الفترة، وفي الشعر المغربي خاصة.

---

22) الشعر الدلائي صفحة 303.

وبصفة عامة فإن للشعر الدلائي مميزات وخصائص أهمها تمثيله لواقع الدلائيين وظروفهم، وتشكيله لاتجاه شعري واسع امتد إلى فترة متأخرة من بين شعرائها ابن زاكور وابن الطيب العلمي وغيرهما.

ويختم المؤلف كتابه بملحق للشعراء الدلائيين مرتبا حسب أبناء الزاوية (28 شاعرا) ثم الطارئين عليها (7 شعراء)، ثم بفهارس عامة للمصادر والمراجع والأعلام وأخيرا الموضوعات...

عدد خاص من «المناهل»

بمناسبة عيد العرش المجيد، سيصدر العدد المقبل «36» من مجلة المناهل خاصاً بمؤرخي الدولة العلوية الشريفة.

الإعلام الثقافي

موسم أصيلة الثقافي

احتضنت مدينة أصيلة خلال شهر غشت 1986 الموسم الثقافي التاسع الذي تنظمه جمعية المحيط. ويعتبر موسم هذه السنة امتداداً لتجربة المواسم السابقة التي نجحت في جعل مدينة أصيلة أرضاً للقاء والحوار، وملتقى للمفكرين والمثقفين من كافة قارات العالم، وقد أكد - بفضل المشرفين عليه من أبناء المدينة المخلصين - جدوى استمرارية العمل الثقافي البناء، والمرتكز على النظرة المستقبلية، طموحاً إلى تحقيق نموذج فريد في التجربة الثقافية الهادفة إلى إثبات دور الفعاليات الثقافية في التنمية، وتعميق الروابط الحضارية العربية والافريقية، وبالتالي استشراف الملامح المستقبلية للثقافة.

وقد تميز برنامج هذه السنة :

□ بعقد سلسلة من الندوات واللقاءات والتظاهرات التشكيلية والعروض المسرحية والموسيقية رفيعة المستوى.

□ بمتابعة نشاط «جامعة المعتمد بن عباد الصيفية» والتي تضم مفكرين من المغرب واسبانيا وأمريكا اللاتينية من خلال أشغال سنتها الثانية.

□ بتنظيم الملتقى الثاني لندوة «التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق»، شارك في أعمالها نخبة من مفكري المغرب والمشرق سعياً لتدارس إشكالية التواصل بين المشرق والمغرب، ومحاولة إيجاد صيغ ملائمة لمعالجتها، وتحقيق تواصل إيجابي وفعال بين جهات الوطن العربي.

ـ وفي سبيل تدعيم العلاقات العربية الإفريقية وتقوية وسائل الاتصالات الضرورية بين العالمين العربي والإفريقي، تمّ تنظيم المنتدى العربي الإفريقي الرابع الذي تشرف بافتتاحه سمو ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية الحسن بن طلال والسيد ليوبولد سيدار سنغور ـ الرئيس السينغالي السابق ـ وذلك تحت شعار «الإبداع والبحث من أجل تعبئة الموارد البشرية العربية الإفريقية» وقد شاركت في المنتدى عدة شخصيات تنتمي إلى السياسة والفكر في العالمين العربي والإفريقي.

مُلتقى الأندلسيّات الخامس بشفشاون

نظمت وزارة الشؤون الثقافية أيام 23 ـ 24 ـ 25 ـ 26 ـ 27 شتنبر 1986 ملتقى الأندلسيات الخامس بمدينة شفشاون، وقد ترأس حفل الافتتاح بمقر عمالة الإقليم السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية بعد ظهر يوم الثلاثاء 23 شتنبر 1986 بحضور السادة ممثلي السلطات المحلية والمنتخبين وصفوة من العلماء والأساتذة والمثقفين المغاربة، إلى جانب ممثلي الجامعات الأندلسية الإسبانية.

وبعد تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم، ارتجل الأستاذ محمد سعد العلمي ـ النائب البرلماني، ورئيس المجلس البلدي ـ كلمة رحب في بدايتها بالسيد الوزير، مشيدا بالتعاون المثالي والبناء، القائم بين المجلس ووزارة الشؤون الثقافية وما يسفر عنه تباعا، من نتائج إيجابية تنمو وتتسع سنة تلو أخرى. ويعكس برنامج ملتقى هذه السنة بإنجازاته الهامة، وتطوير أنشطته، مصداقية ذلك.

كما نوه في كلمته باقتران هذا المهراجان بالإعلان عن افتتاح مركز الدراسات والأبحاث الأندلسية، والذي سبق للسيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية أن وعد به شفشاون في الملتقى الفائت، وها هو الآن يتحقق على أرض هذه المدينة التي تميزت بالحفاظ على تراث الأندلس في معمارها وتقاليدها وعاداتها وفنونها.

وبعد ذلك، ارتجل السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية، كلمة أعرب فيها : عن ابتهاجه وهو يفتتح هذا الملتقى الهام، الذي يكتسي هذه السنة صبغة خاصة، لاقترانه باستقبال المناسبة الخامسة والعشرين لاعتلاء صاحب الجلالة عرش أسلافه الميامين وبالاحتفال بالسنة السابعة والخمسين لميلاد جلالته، والذي اقترن حلولها ـ اطال الله بقاءه ـ بشيء لا تفنى جدواه، ولا تخبو شعلته وهو الثقافة، باعتبار العام الحالي 1986، «سنة الثقافة»، وللمغرب كدولة في العالم الثالث، حق الفخر بما سجله في تاريخه الحافل من تخصيص الثقافة للمرة الأولى بتكريم عبر سنة كاملة، وفي إطار ذلك، واعتزازا بتراثنا الأندلسي وتكريما لأعلامه، كلف جلالته صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد بتوشيح ثلاثة من شيوخ الموسيقى الأندلسية بوسام فارس العرش.

كما أوضح السيد الوزير في كلمته، بأن ملتقى الأندلسيات في شفشاون ذو دلالة خاصة لدى العاهل المغربي، وعند جميع المثقفين والمفكرين والمبدعين في ربوع المملكة.

وتابع السيد الوزير حديثه مشيرا إلى أن افتتاح مركز البحوث والدراسات الأندلسية في مدينة شفشاون، يمثل حدثا هاما في مسيرة سياسة اللا مركزية، كما أن اختيار شفشاون لاستضافة المركز، نابع أساسا من الخصوصيات الثقافية للمدينة، بما تختزنه من أصالة وتراث، حرصت على الاحتفاظ به وحمايته عبر تاريخها، ويعتبر المركز بذرة نبت سوف ينمو برعمها ويكبر ويترعرع ويستفيد المغرب من عطائه لا محالة والبلاد الإسبانية والبرتغالية كذلك، وبالتالي جميع الباحثين والمهتمين بالدراسات الأندلسية في مختلف أنحاء العالم، وأشار السيد الوزير إلى أنه كان لزاما علينا إقامة هذا المركز يوم هاجر بعضنا وبقي البعض في الأندلس، وحتى نصوغ من هذا الرباط السلالي تاريخيا، حضارة واحدة تعكس السمات المشتركة للإنسان الإيبري المغربي، وامتداد أثرها إلى النهضة الأوربية، وأن الهدف من المركز هو أن يكون منبتا لبنيات ـ منبتا لكافة البحوث، وليس الفلسفية والأدبية منها فحسب، فقد أمضينا للأسف الشديد سنين طويلة ندرس الآداب،

والفلسفات، مهملين الجوانب التراثية من الدراسات الأندلسية في العمارة واللباس، والأكل والموسيقى، والرقص، والتي تستوجب محاورها الدراسة والبحث، من خلال اعتبار المركز مخزنا لتجميع تلك المعلومات، وقد شرعت وزارة الشؤون الثقافية في بداية تزويده بالمراجع والمصادر المتصلة باختصاصه، كما ستعمل على تمكينه في القريب بحول الله من حاسوب آلي يفسح المجال أمام المركز للارتباط بالعديد من المراكز الدولية ذات الصلة باهتماماته.

كما أوضح السيد الوزير في كلمته، الأسباب التي حدت بالوزارة إلى إقامة الملتقى الأول لهواة الموسيقى الأندلسية، حتى تأخذ حظها من العناية الجادة، والتطوير الواجب، وبالتالي صيانة الباقي مما سلم منها، بعد أن نالت الشيخوخة من أعلامها، الأمر الذي يحتم علينا كذلك أن نبحث في الموسيقى الأندلسية ونوثقها في بلادنا أولا، ثم نتابع البحث في أصولها عند الإسبان ثانيا، بهدف التعرف على حقيقتها علميا وتاريخيا، ومقاومة الغزو الموسيقي عن طريق حماية الذات والتنقيب والتوثيق وتحبيب الموسيقى لصغارنا، ووقايتها من الشوائب، وتخليصها مما بدأ يتسم به أسلوبها من سوقية في الكلام والأداء، وحماية الموسيقيين أيضا. وتمشيا مع هذا الاتجاه، قررت وزارة الشؤون الثقافية تسجيل 11 نوبة تتضمن كل الصنعات.

وقد اغتنم السيد الوزير المناسبة، للإعلان في كلمته كذلك، عن مشروعين هامين في نهاية مطاف إنجازهما، والمتمثلين في افتتاح المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، والمعهد العالي للدراسات المسرحية والنشاط الثقافي بالرباط، إضافة إلى سعي الوزارة الحثيث لاستكمال دراسة إحداث خزانة وطنية تنفيذا للتعليمات السامية.

وانتقل السيد الوزير في كلمته، إلى إبراز الأهمية التي اكتستها المناظرة الوطنية الأولى للثقافة المغربية بتارودانت، والتي أولاها صاحب الجلالة كامل رعايته بتوجيه خطاب تاريخي هام إلى المشاركين في أعمالها، وقد أجمعوا بعددهم البالغ أزيد من 250 مشاركا وبمختلف اتجاهاتهم، على واجب دعم الكيان الثقافي الحضاري لبلادنا وشعبنا، وإقرار توصيات تعكس الطموح المشترك لعامتهم، وقد عزز مناظرة تارودانت ما تلاها من مناظرة الجماعات المحلية بمكناس ومناداتها بحشد القدرات للعمل الثقافي.

وبالمناسبة حث السيد الوزير من خلال نداء إلى السادة رؤساء الجماعات المحلية بالمملكة المغربية، وهم يعدون قانون ميزانية 1987 على الاقتداء بشفشاون في تخصيصها، لأول مدينة مغربية بندا مستقلا في ميزانيتها للعمل الثقافي مما يتجاوب وتوجيهات جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، ويعتبر البداية الفعلية لتطبيق توصيات تارودانت ومكناس، وقد أطلق السيد الوزير على هذا النداء، نداء شفشاون.

وبعد حفل شاي أقيم على شرف الحاضرين، توجه السيد الوزير رفقة الشخصيات التي حضرت افتتاح هذا المهرجان، إلى متحف شفشاون لتدشين مركز الدراسات والبحوث الأندلسية، حيث زار مرافق المركز الذي يعتبر في وضعه الحالي النواة الأولى الذي يأمل كل من السيد الوزير ورؤساء الجماعات المحلية والمنتخبين التعاون من أجل إغناء مشمولاته مستقبلا، وتحديث وسائل عمله.

كما دشن معرض الفنون التشكيلية لجماعة من الرسامين الشباب «مجموعة مدرسة تطوان» ومعرض الخزف الريفي، ومعارض أخرى أشرف على إعدادها الأستاذ صالح الشرقي، يحتوي الأول منها على وثائق وصور للموسيقى الأندلسية، والثاني على آلات موسيقية، والثالث حول أعلام الموسيقى الأندلسية.

وفي إطار الحفلات الموسيقية الأندلسية المنظمة ضمن هذا الملتقى عرفت رحاب ساحة «وطاء حمام» عدة سهرات فنية أحياها كل من جوق المعهد الموسيقي بشفشاون برئاسة محمد أحمد المريني، وجوق فاس برئاسة الحاج ماصانو وجوق المعهد التطواني برئاسة محمد العربي التمساني، وجوق جمعية النسيم بوجدة للطرب الغرناطي برئاسة حيدا يحيى، وجوق جمعية هواة الموسيقى الأندلسية بالرباط برئاسة الحاج محمد الزكي.

وحفزا لقرائح هواة الموسيقى الأندلسية، وحرصا من الوزارة على النهوض بهذا الفن إلى مستوى يليق به كجانب فني يحتل مكانته في وجدان الإنسان المغربي، وفي إطار الملتقى السنوي لفرق الهواة للموسيقى الأندلسية الذي تعتزم الوزارة أن يصبح تنظيمه ابتداء من هذه السنة تقليدا يفسح المجال أمام الهواة للتنافس الشريف، فقد توبعت هذه المسابقة بقاعة الشبيبة والرياضة حيث استمعت اللجنة إلى الأجواق المرشحة التالية :

- جوق الموسيقى الأندلسية بتطوان.
- جوق الموسيقى الأندلسية بشفشاون.
- جوق جمعية هواة الموسيقى بتطوان.
- جوق شبان العربي السيار بطنجة.
- جوق عشاق الموسيقى الأندلسية بالدار البيضاء.
- جوق المدرسة الوطنية للموسيقى بمكناس.
- جوق المعهد الموسيقي بآسفي.

وقد أسفرت هذه المباراة الفنية على النتائج التالية :
الجائزة الأولى : لجوق شبان العربي السيار من مدينة طنجة.
الجائزة الثانية : لجوق المعهد الموسيقي بمدينة آسفي.
الجائزة الثالثة : لجوق المدرسة الوطنية للموسيقى بمدينة مكناس.

وتقديرا للجهد المبذول من أجواق الهواة المشاركين غير الفائزين فقد حرصت الوزارة على منحهم شهادة تشجيع متمنية لهم كامل التوفيق في المسابقة القادمة.

وتجدر الإشارة إلى أن لجنة التحكيم تكونت من عضوية السادة الأساتذة : محمد المريني، محمد شعبان، محمد أبا جدوب، محمد المختار العلمي، يونس الشامي وتولى مهمة «المقرر» السيد أحمد عيدون.

كما تميز ملتقى الأندلسيات الخامس بشفشاون هذه السنة، باحتضان ندوة «دور العدوتين في النهضة الأوربية» التي افتتح أشغالها السيد الوزير بقاعة الشبيبة والرياضة، والتي استمرت أشغالها ثلاثة أيام، في جلسات تعتبر حلقة أولى من سلسلة لنداوت دراسية في الأندلسيات والتي سوف تحرص وزارة الشؤون الثقافية على متابعة تنظيمها خلال سنة كاملة، فى محاولة للإحاطة بمختلف الجوانب.

وقد أسهم في أعمال هذه الندوة أساتذة متخصصون مغاربة وأسبان، قدموا عروضا مركزة في مجال اختصاص كل واحد منهم.

والجدير بالإشارة أن تنظيم هذه الندوة يمثل العمل العلمي الأول لانطلاق وظيفة مركز الدراسات والأبحاث الأندلسية الذي تم تدشينه من لدن السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية.

المهرجان الوطني الأول لفن الأمداح والسماع

بتعاون مع جمعية «أبي رقراق» نظمت وزارة الشؤون الثقافية «المهرجان الوطني الأول لفن الأمداح والسماع» في سلا أيام 27، 28، 29 نونبر 1986، افتتحه السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية بحضور مستشار صاحب الجلالة السيد محمد عواد الرئيس المؤسس لجمعية «أبي رقراق».

وقد ألقى السيد الوزير كلمة أشار فيها إلى أن تنظيم هذا المهرجان يعد الأول من نوعه في المملكة المغربية إن لم يكن في العالم الإسلامي، وأن الملتقى يبرز مدى تمسك المغاربة بتراثهم وقيمهم الحضارية، مذكرا بمضمون الخطاب الملكي السامي الذي تفضل صاحب الجلالة بتوجيهه إلى المشاركين في المناظرة الوطنية الأولى حول الثقافة المغربية بتارودانت، وبخطاب جلالته خلال افتتاح الدورة البرلمانية الحالية لمجلس النواب الذين وضح فيهما جلالته الهوية الإسلامية والحضارية للأمة المغربية.

وقد تضمن برنامج المهرجان تقديم أمداح من منشدي المجموعات الأربع المشاركة وهي : مجموعات الرباط، سلا،ومجموعة الدار البيضاء، مراكش، آسفي،ومجموعة فاس، مكناس، مولاي إدريس زرهون ومجموعة تطوان، طنجة، شفشاون، العرائش، القصر الكبير، كما تم تنظيم مسابقة في الإنشاد الفردي لعشرين من المنشدين بالمملكة من المجموعات المذكورة.

وقد خصصت وزارة الشؤون الثقافية جوائز نقدية للفائزين الثلاثة الأوائل، كما أضاف السيد محمد عواد الرئيس المؤسس لجمعية أبي رقراق الجائزة الرابعة والخامسة، وأحد أعضاء الجمعية الجوائز السادسة والسابعة والثامنة، كما منحت مكافآت نقدية للمجموعات المشاركة.

واختتم المهرجان بحفل ألقى فيه السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية كلمة أوضح فيها أن هذا الحفل ليس في الواقع حفل اختتام بل حفل تدشين مسيرة ثقافية جديدة من المسيرات الثقافية الحسنية، مذكرا بقرار صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بأن تكون هذه السنة سنة الثقافة مشيرا إلى أن مدينة سلا وجمعية أبي رقراق تكون باحتضانها هذا المهرجان قد قامت بعمل ثقافي جديد استمدت مقوماته وضوابطه من الأصالة والدين الإسلامي الحنيف.

معرض أقطاب الفن المعاصر في فرنسا بالرباط

في إطار الاحتفالات بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين، دشن صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد رفقة السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية وسفير الجمهورية الفرنسية بالرباط مساء 28 نوفمبر 1986 رواق باب الرواح ـ في حلته الجديدة بعد أن تم تجديده ـ بافتتاح معرض أقطاب الفن المعاصر في فرنسا الذي يشارك فيه فنانو «مدرسة باريس في الفنون التشكيلية»، وينظم هذا المعرض لأول مرة في بلاد العالم الثالث بالتعاون بين وزارة الشؤون الثقافية ووزارة الشؤون الخارجية في الجمهورية الفرنسية، ويستمر المعرض من 86/11/28 إلى 1987/1/10.

التعاون الثقافي بين المغرب وسلطنة عمان

انعقدت بمقر وزارة الشؤون الثقافية صباح يوم 15 دجنبر 1986 جلسة عمل برأسة كل من السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية والسيد سالم بن اسماعيل وكيل وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان.

وفي مفتتحها ألقى السيد محمد ابن عيسى كلمة أشاد فيها بالتعاون الثقافي المغربي العماني وما أعطى من إيجابي النتائج، مما يمثل نموذجاً مثالياً يحتذى به، ويعكس بالتالي جدوى وفعالية العمل الثنائي، معربا في ختام كلمته عن ترحيب الوزارة بامتداد التعاون المشترك.

كما ألقى وكيل وزارة التراث القومي والثقافة العماني من جهته كلمة نوه فيها بالعلاقات الودية القائمة بين قائدي البلدين وشعبيهما مؤكداً رغبة بلاده في استمرارية التعاون الثنائي في مختلف المجالات وخاصة المجال الثقافي والعمراني.

تعيين المدير الجديد
للمعهد الوطني للموسيقى بالرباط

أشرف السيد محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية مساء الإثنين 15 دجنبر 1986 بقاعة المحاضرات في الوزارة، على حفل تنصيب السيد يونس الشامي مديراً جديداً للمعهد الوطني للموسيقى بالرباط، خلفاً للسيد أحمد عواطف، وفي كلمته نوه السيد الوزير بالجهود التي بذلها المدير السابق على رأس إدارة المعهد متمنياً له التوفيق في مهامه الجديدة، مشيرا بالمناسبة طرح جملة تصورات مستقبلية لوظيفة التعليم الموسيقي في بلادنا، وسعي الوزارة لتحقيقها من خلال إصلاح - تحت الدرس - لتطوير برامجه ومناهجه.

المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث

رأس السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية حفل تدشين المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث يوم الثلاثاء 16 دجنبر 1986 بحضور والي صاحب الجلالة على الرباط وسلا وعدة شخصيات.

وقد ألقى السيد محمد ابن عيسى وزير الشؤون الثقافية بهذه المناسبة كلمة أشار فيها بالجهود التي تم بذلها لإنجاز هذا المشروع الذي يعكس بكل وضوح رعاية حكومة صاحب الجلالة لعلوم الآثار، مشيرا إلى المشاريع المنتظر من وزارة الشؤون الثقافية إنجازها في السنة الموالية والتي تهم صيانة التراث.

كما ألقت السيدة مديرة المعهد كلمة أشارت فيها إلى إحداث هذا المعهد، الذي يعزز أسس البحث في ميدان الآثار وصيانة التراث الوطني، يصادف الذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين ويبرهن على مدى العناية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة للثقافة.

ويهدف هذا المعهد إلى تكوين أطر للعمل في ميداني الآثار والتراث والقيام بأعمال البحث في هذين المجالين، ويضم سبعة أقسام متخصصة في علوم الآثار وصيانة التراث والمحافظة عليه.

ستغرق مدة الدراسة فيه أربع سنوات بالإضافة إلى توفره على سلك ثالث، ويتابع حاليا 21 طالبا دراستهم في السنة الأولى على إثر مباراة جرت في شهر شتنبر المنصرم.
أما هيئة التدريس بالمعهد فتتألف من 14 أستاذا جامعيا مغربيا باستثناء أستاذ أجنبي واحد في اللغة اللاتينية.

الملتقى الثاني للمسرح المغربي بالجديدة

من تنظيم وزارة الشؤون الثقافية، وتحت شعار (حوار، بحث، إبداع) احتضنت مدينة الجديدة أيام 20 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24 دجنبر 1986 الملتقى الثاني للمسرح المغربي، شارك في برامجه صفوة من المبدعين والنقاد، من خلال عرض أعمال مسرحية، وتقديم لقاءات فكرية وإجراء تداريب ـ إعداد الممثل ـ إضافة إلى معرض صور يعكس مسيرة المسرح في المغرب وما حرص رواده على تنويع تقديمه، والتعريف بشتى ألوانه، كما تمّ على هامش المهرجان تقديم عروض خاصة بالأطفال.
وقد افتتح السيد الوزير هذه التظاهرة المسرحية، بخطاب تحدث فيه عن سعي الوزارة الدؤوب لتحقيق الاهتمام بشامل قطاعاتها، معلناً في خطابه عن افتتاح المعهد العالي للفنون المسرحية والنشاط الثقافي.

نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1986

أنهت اللجنة العلمية الموكول إليها فحص وتقييم المخطوطات والوثائق المرشحة لنيل «جائزة الحسن الثاني» لهذه السنة أشغالها، وأسفرت نتائج أعمالها عن منح الجوائز المقررة كالتالي :
أولا : الجوائز التقديرية
أ) الجائزة التقديرية الأولى وقيمتها خمسة آلاف درهم (5.000 د) تمنح مناصفة بين :

1 ـ السيد أحمد محمد المرير من تطوان عن مخطوطاته :

ـ مجموع فيه :

* فهرست سيدي احمد ابن عجيبة.
* تقييد في وفاة سيدي أحمد الورزازي.
* الضوابط والإرشادات لأجزاء علم القرآن للبقاعي
* محاذاة لامية الأفعال للعربي الفاسي.
* أرجوزة في الفرائض لمرصو العلمي.
* أرجوزة في الألغاز الفقهية لمرصو العلمي.

ـ مجموع فيه :

* شرح الشيخ زروق لمنظومة يحي القرطبي.
* منظومة في غريب القرآن.

ـ مجموع فيه :

* المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي
* رسالة في العمل بغير المشهور للعميري.
* مختصر من كتاب الإمام البرزلي : مسائل من الفتيا والاستفتاء تأليف حلولو القيرواني.

2 ـ السيد عبد الله العلوي الإسماعيلي من الرباط عن :

ـ مجموع فيه :

* كلام على قوله ﷺ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... الحديث، لأبي علي عمر ابن ابراهيم الحسيني.
* كتاب التفكر والاعتبار : لأبي علي عمر ابن ابراهيم الحسني.
* اختصار الرعاية للمحاسبي.
* بيان أدلة الأحكام للعز ابن عبد السلام.
* الحقائق والرقائق لأبي عبد الله المقري.
* حكم مفيدة لأبي جعفر أحمد ابن عبد الله الحسني.

ب) الجائزة التقديرية الثانية وقيمتها أربعة آلاف درهم (4.000 د) تمنح مناصفة بين :

1 ـ السيد عبد الله التهامي الوزاني من فاس عن :

ـ سلسلة الأنوار في طريقة الصوفية الأخيار لأحمد ابن عطية السلاوي.

ـ النصف الأول من الشفا لعياض : مخطوطة ممتازة.

ـ الاشراف على من بفـاس من مشـاهير الأشراف لمحمـد الطـالب ابن حمـدون بن مخلـوف الثعالبي.

ـ مجموع فيه :

* شرح الصلاة المشيشية لمحمد بن عبد السلام بناني.
* إرشاد المسافر للربح الوافر لابن يجبش التازي.
* رسالة في أصول طريق الشيخ سيـدي عبـد اللـه بن ابراهيم تـأليف تلميـذه عثان ابن عمر العجمي.
* رسائل سيدي محمد بن الطالب الزمراني.
* رسائل سيدي الحاج علي بركة.
* اختصار كشف الأسرار الغيبية لأبي عبد الله الهبطي.

ـ مجموع فيه :

* الفتوحات الربانية في شرح الصلاة المشيشية للزرويلي.
* شرح البردة للشطيبي.

ـ ظهير السلطـان سيـدي محمـد الرابع يتضمن اقرار الشيـخ سيـدي عبـد السـلام ابن علي بن ريسون على سكنى الرياض الملكي بتطوان.

ـ ظهير للسلطان سيدي محمـد الرابع يتضمن تـدخل الشيخ عبـد السـلام بن علي ابن ريسـون لحل نزاع بين شرفاء مولاي عبد السلام بن مشيش وقبيلة بني عروس.

ج) الجـائزة التقـديريـة الثـالثـة وقيمتهـا ثلاثـة آلاف درهم (3.000 د) وتمنـح مناصفة بين :

1 ـ السيد حماد بوعياد من فاس عن :

ـ الدرة المضيئة والخفية الشمسية المعروفة لابن سبعين.

2 ـ السيد عبد العزيز الجباري من تطوان عن :

ـ وسيلة الفقير المحتاج في شرح شمائل صاحب اللواء والتاج لبدر الدين الحمومي.

ـ كتاب في الأدب لابن هذيل.

ـ عمدة الموثق (أرجوزة للماجري).

ـ مختصر من وثائق الفشتالي والجزيري وابن فتوح.

ـ نور العلم، رسالة في العبادات (مبتور الأخير).

ـ مجموع وثائق عدلية.

ـ رسالتين في التصوف للجباري.

ـ رسالة في التصوف للجباري جمعها من كلام شيخه سيدي محمد بن عبد الله البقالي.
ـ ورقات من شرح عيون ابن السقاط (مبتور).

ثانيا : الجوائز التشجيعية

تقرر منح خمس جوائز تشجيعية تتراوح قيمتها ما بين 1.200 د و400 د وزعت على سبعة وعشرين مشاركاً.

بلاغ
من وزارة الشؤون الثقافية
حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق
لسنة 1987

في إطار التعريف بالتراث التاريخي والحضاري بالمغرب، وجريا على العادة المألوفة التي سلكتها وزارة الشؤون الثقافية، في تنظيم جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق، يسرها أن تعلن للجمهور المغربي الكريم في هذه السنة عن الجائزة التاسعة عشرة للمخطوطات والوثائق التي خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب أهمية المخطوط أو الوثيقة التي توجد في الملكية الخاصة.

ومن المعلوم أن جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة كان مكتوبا على الرق أو الورق أو الألواح ولهذا فإن الجوائز ستخصص لما يلي :

أولا : للأهم من الكتب المخطوطة، مؤلفات وتقاييد وكناشات علمية ومذكرات شخصية وخطوط العلماء وكنانيش ونسخ الملحون، ومجموعات الفتاوي أو الرسائل

ودواوين الأشعار والمجموعات الموسيقية وكل ما هو مخطوط ولو كان على ورقة أو ورقات معدودة.

ثانيا : للوثائق أيا كان عصرها وموضوعها. ظهائر ورسائل رسمية أو شخصية أو رسوم عدلية ومحاسبات وإجازات علمية وشهادات الأنساب وغير ذلك.

هذا وستشرف لجنة برئاسة السيد وزير الشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها، وإصدار بلاغات حول نتائج الجائزة.

وتؤكد الوزارة أنها اتخذت كل الاحتياطات لضمان إرجاع المخطوطات إلى أصحابها كاملة غير منقوصة، بدون إبطاء ولا تأخير فور انتهاء المعرض وأشغال اللجنة المختصة.

والجدير بالذكر أن قيمة المخطوط أو الوثيقة إنما تتجلى في مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الأمة وحضارتها، وأن ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة في ثروتها الفكرية، لهذه الاعتبارات كلها، قررت وزارة الشؤون الثقافية تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ في المكتبة العامة بالرباط للاستفادة منها وخشية مما قد يعتريها من ضياع، كما أن تصويرها لا يمكن أن يصيب المخطوط أو الوثيقة بأي ضرر ولا يفقد أيا منها ما له من قيمة كمستند خطي.

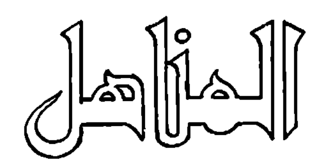
ورغبة من الوزارة في الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة تؤكد للسادة المساهمين في هذه الجائزة أن المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديمها لن تقبل في المسابقة الحالية :

فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر أن يتقدم بها ابتداء من صدور هذا البلاغ إلى يوم الأربعاء 31 دجنبر 1986 إلى أحد المراكز التالية :

العمالة أو الإقليم	إسم المركز وعنوانه
ولاية الرباط ـ عمالة سلا ـ عمالة تمارة الصخيرات	وزارة الشؤون الثقافية ـ قسم المكتبات والنشر والتوزيع. شارع غاندي الرباط
ولاية الدار البيضاء عمالة الحي المحمدي عين السبع عمالة ابن مسيك سيدي عثمان عمالة الحي الحسني عين الشق عمالة الفداء عمالة المحمدية ـ زناتة عمالة إقليم سطات عمالة إقليم خريبكة عمالة إقليم ابن سليمان	النيابة الإقليمية للشؤون الثقافية. شارع الزيراوي رقم 133 الدار البيضاء.
عمالة إقليم الجديدة	المركز الثقافي. الحي البرتغالي ـ الجديدة
عمالة إقليم يفرن	المكتبة العمومية ـ يفرن
عمالة إقليم فاس عمالة إقليم تاونانت عمالة إقليم بولمان	خزانة البطحاء ـ بطحاء الاستقلال ـ فاس
عمالة إقليم تازة	الخزانة العامة ـ ساحة الاستقلال ـ تازة

العمالة أو الإقليم	إسم المركز وعنوانه
عمالة إقليم مكناس عمالة إقليم خنيفرة عمالة إقليم الرشيدية	خزانة الجامع الكبير ـ زنقة العدول ـ مكناس
عمالة إقليم القنيطرة عمالة إقليم سيدي قاسم عمالة إقليم الخميسات	خزانة القنيطرة ـ طريق المسيرة ـ القنيطرة ـ
عمالة إقليم بني ملال عمالة إقليم قلعة السراغنة عمالة إقليم أزيلال	خزانة البلدية ـ قلعة السراغنة ـ
عمالة إقليم مراكش عمالة إقليم ورزازات ـ زاكورة	خزانة ابن يوسف العمومية ـ مراكش ـ
عمالة إقليم أكادير عمالة إقليم كلميم عمالة إقليم تزنيت عمالة إقليم طرفاية عمالة إقليم طنطان	خزانة المجلس البلدي ـ أكادير ـ
عمالة إقليم تارودانت عمالة إقليم طاطا	خزانة الإمام علي ـ تارودانت ـ

العمالة أو الإقليم	إسم المركز وعنوانه
عمالة إقليم وجدة عمالة إقليم فكَيكَ عمالة إقليم الناظور	خزانة الشريف الإدريسي ـ ساحة القصبة ـ وجدة ـ
عمالة إقليم تطوان عمالة إقليم شفشاون	الخزانة العامة للكتب والمخطوطات شارع محمد الخامس ـ تطوان ـ
عمالة إقليم الحسيمة	المركز الثقافي ـ الحسيمة
عمالة إقليم العرائش ـ القصر الكبير ـ عرباوة	خزانة البلدية ـ القصر الكبير
عمالة إقليم طنجة	الخزانة العامة ـ شارع الحرية 71 ـ طنجة ـ
عمالة إقليم آسفي عمالة إقليم الصويرة	خزانة المجلس البلدي ـ آسفي
عمالة إقليم العيون عمالة إقليم بوجدور عمالة إقليم السمارة عمالة إقليم وادي الذهب	مراكز السلطة المحلية



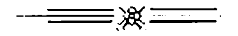
تصـــدرهـــا :

وزارة الشــؤون الثقافيــة

زنقة غاندي - الرباط - المغرب

التليفـــــون : 680.37

تلكـــس : 63 318 الثقافة



AL - MANAHIL

Publication du

MINISTERE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi – Rabat (Maroc)
Tél : 680-37
Télex : 318 63 Attakafah

مطبعة فضالة ـــ المحمدية (المغرب)